ابن الأمير وعصره

صورة
من كفاح شعب اليمن

تأليف

قاسم غالب أحمد حسين أحمد السياغي

محمد بن علي الأكوع

عبد الله المجاهد الشماحي محمود إبراهيم زايد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين .

اللهم انا ما قصدنا بهذا العمل الا وجهك الكريم فان كنا قد أصبنا — وهذه عقيدتنا — فاللهم أجرك .

وان كنا قد بعدنا عن الطريق فاللهم غفرانك يا أرحم الراحمين .

المؤلفون

إنى ومن بَيْتِ الأمام عصابةٌ
في العد قد زادوا على الآلافِ
مُسترزِقون من الرعَايا ليتهم
قَنِعوا بأَكل فَرائض الأَصْنَاف
بَلْ يأْخذون من الرعايا كلَّ مَا
يَحْوُونه كُرْهًا بلا اسْتِنْكَافِ
أَتَظُن من منكم يَلِي أَمْرَ الوَرَى
يَلْقَى قَرَابَتَهُ بلا اسْتِخْفَاف
لا بل يقول عَطَاهُمُ لِي لازِمٌ
بل ذالك المقْصُود فى اسْتِخْلافى
أُعْطِى الصَّغِيرَ مع الكَبِيرَ مُعَمِّمًا
ذَات الخِمَارِ وَرَبَّةَ الأَشْنَافِ
وإذا أَراد خِلافَ هذا أَشْعَلوا
فى الأَرض نَارَىْ فِتْنَةٍ وخِلافِ
أَعْنِى بِهِمْ من يَزْعُمُونَ بِأَنَّهُم
رَأْسُ الوَرَى والناسُ كَالأَخْفَافِ

محمد بن اسماعيل الأمير

تقـــديـــم

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

فيشرف المراكز الاسلامية الثقافية باليمن أن تقدم للشعب العربى عامة وللشعب اليمنى خاصة باكـورة انتاجها فى هذا البحث عن « ابن الأمير وعصره » .

وهو محاولة لكشف النقاب عن فترة من تاريخ اليمن . وما أحوج اليمن العظيم الى أقلام الباحثين لتجلو عن تاريخه هذا الغموض .

ونسأل الله تعالى أن يوفق ويعين على أن نتمكن فى الفترة القـادمة من تقديم انتاج يرضى وجه الحق ويخدم تاريخ الأمة العربية ويعرف العالم بحقيقة شعب اليمن ذى الحضارة العريقة والمعدن الكريم والجهاد الطويل فى خدمة العروبة والاسلام .

انه سبحانه ولى التوفيق .

المشرف على المراكز

مقدمة

ولد محمد بن اسماعيل الأمير فى عام ١٠٩٩ هـ وتوفى فى عام ١١٨٢ هـ فامتدت حياته ثلاثة وثمانين عاما .

وتمثل هذه الفترة من حياة ابن الأمير مرحلة من أخطر المراحل التى مرت فى تاريخ الشعب اليمنى وأكثرها تأثيرا فى المجتمع وفى الاتجاهات الفكرية والمذهبية .

وقد ولد ابن الامير فى عهد محمد بن أحمد بن الحسن الملقب بالمهدى صاحب المواهب الذى حكم اليمن ما يقرب من ثلاثين عاما ، تلك الشخصية الغريبة الأطوار التى تمثل الجشع والبطش والظلم والاستهانة بالعهود والمواثيق ، وتمثل شهوة المسعور الى الدماء وتمثل الملك المتقلب الذى لا يثبت على حال ، وتمثل أحمد حميد الدين ذلك الطاغية الذى صنع هو وأبوه انتفاضات اليمن العظيمة بما اصطنعوه من جور واستحدثوه من خيانات وغدر واهدار للحرمات وتمزيق لشعب اليمن العريق .

ومحمد بن أحمد صاحب المواهب أحد أفراد أسرة القاسم بن محمد بن الرشيد الذى وثب على ملك اليمن هو وأبناؤه من بعده منذ عام ١٠٠٦ هـ ورسم الطريق لتقاليد بربرية فى نظام الحكم وسياسة الرعية توارثتها الأسرة حتى قضت عليها ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢.

وعاصر ابن الأمير عشرات من الأئمة الطامعين وخمسة من الأئمة الحاكمين بعد صاحب المواهب آخرهم المهدى عباس ١١٦١ — ١١٨٩ هـ .

وقد عاش الرجل حياته فى صراع دائم وجهاد مستمر .

حارب الأفكار المضللة بين العلماء حتى تآمروا عليه وكادوا له كيدا .

قاوم الشعوذة فى صفوف الشعب حتى طاردوه وهموا بقتله مرات عدة هاجم قدسية الأئمة الزائفة وحكمهم الظالم .

كشف الغطاء عن فساد الحكام والقضاة والعمال .

كان الاقطاع فى أعنف صوره فدمغه بحـكم التاريخ وحكم الاسلام .

كانت سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهجورة فأحياها .

أبى أن يكون داعية للملوك وتابعا لهم فكان الملوك دعاة لمذهبه وله تبعا وأرغم سلطان الملوك أن يتطامن لسلطان العلماء .

ترفع عن أعلى المناصب وناضل فى سبيل رأيه فى شجاعة نادرة .

زهد عن حياة السـادة وكبرياء الأسر وترفعها والتزم جانب الشعب وعاش معه وأحس باحساسه وعبر أدق تعبير عن أوجاعه وآلامه .

فكان صورة صادقة للأصالة الممتدة الجذور لشعب اليمن وللمعـالم الحضارية التى نبضت بها هذه البلاد منذ فجر التاريخ .

[illegible] انسان أن تنفصل حتمة الثورة اليمنية وآثارها ومؤثراتها [illegible] الثائرين الذين بشروا بانتفاضة اليمن [illegible] .

فمن آفاق هؤلاء الأحرار امتد بريق الثورة وتجمعت روافدها حتى تدفق تيارها هادرا فى ٢٦ سبتمبر .

ولم يكن محمد بن اسماعيل الأمير بعيدا عن التيارات السياسية التى أحاطت بفترة خطيرة من تاريخ هذه الأسرة .

فقد عاصر المرحلة التى بدأ فيها قادتهـا بتزيف الأفكار وبث الأوهام ومطاردة العقائد السليمة فى الوقت الذى وصلت فيـه فوضى الحكم وظلم الحكام وفساد المجتمع الى درجة تنذر بالشر المستطير .

ومن هنا كانت عنايتنا بابن الأمير أحد معالم الحرية ورائد من روادها وعلم من أعلام اليمن والاسلام الذين ندل بهم على التاريخ حجة واضحةعلى أن شعب اليمن لم يخمـد له صوت فى أحلك الأيام ؛ وأكثر العصور ظلمة وجورا .

وكان من الممكن أن نبدأ بالمقبلى أو الجلال أو الوزير أو بنشوان الحميرى أو بشيخ الاسلام الشوكانى . ولكنا أردنا أن تتوسط الحلقة حتى نجمع بابن الامير صورة من سبقه وبعض الصور ممن لحقه .

فان يفهم ابن الأمير حق الفهم الا اذا درسنا أسرة القاسم منذ تملك القاسم بن محمد اليمن حتى ولو كانت هذه الدراسة عجالة سريعة .

ولن يفهم عصر أسرة حميد الدين بما فيه من آثام الا اذا تعرفنا على النهج الذى سار عليه آباؤهم من قبل وأن الأبناء كانوا يتتبعون من سبقهم فى البغى والعدوان والتضليل .

ولن يتكشف للشعب العربى — وقد أبعد عن ظروف اليمن وتاريخه وكيف كان يحكم فى عهد الأئمة .

لن تتكشف له الرسالة الانسانية والخدمات التى قدمت للعروبة والاسلام عندما آزرت ثورة الثالث والعشرين من يوليو الرائدة ثورة السادس والعشرين من سبتمبر .

لن يكون ذلك الا اذا عرفوا مدى الشقاء الذى عاش فيه اليمن بين براثن الأسر الحاكمة .

الا اذا قرأوا عن القاسم بن محمد ذلك السفاح الذى كان يكمن فى شوارع صنعاء لخصومه فيغتالهم بيديه .

الا اذا عرف المتوكل اسماعيل الذى استصفى الأموال واعتبر اليمن اقطاعية خاصة يتصرف فيها كيف شاء .

الا اذا عرف المهدى صاحب المواهب الذى كان يجمع المال من حله وغير حله حتى جمع من الأموال ما لا يخطر لعاقل ببال .

الا اذا عرف القاسم الرهيب الذى لم يجف سيفه أبدا من دماء ضحاياه.

الا اذا عرف الحسين بن القاسم الذى كان يحقد على أهل صنعاء فينزل القبائل فى ديارهم يطردون أهلها لا يفرقون بين عالم وجاهل .

الا اذا عرف المهدى عباس الذى امتدت يده الى الأوقاف فاحتواها .

الا اذا عرف أن خيانة الأبناء للآباء وتآمر الأخ على أخيه كان طبيعة متوارثة فى هذه الأسرة .

الا اذا عرف أن كل هذه المآسى تجمعت فى أسرة حميد الدين وأضافوا اليها مبتكرات من الفساد لا يرقى اليها خيال الأبالسة .

الا اذا عرف أن اليمن العظيم ذا الحضارة الموغلة فى القدم كان ممزقا شر ممزق وأنه لم يجتمع شمله فى حكم مركزى حضارى منذ ألف عام الافى عهد الثورة الرشيدة .

اذا عرف العرب كل هذا علموا أن رائد العروبة جمال عبد الناصر عندما مد يده لثورة اليمن كانت هذه اليد المخلصة تمثل غوث الانسانية واستجابة المسلم وايمان العربى بواجبه الحتمى .

سنرى سيرة المنصور محمد بن يحيى ومن بعدها يحيى بن محمد ثم الطاغية أحمد ــ تكرارا لسير آبائهم من قبل ولم يحاول واحد منهم أن

، ى الدماء والاستهانة بالأرواح واغتصاب حقوق الناس باسم الدين . وفرض السلطان الغاشم متسترين وراء الشرع واحاطة الشعب بسور من الجهالة العمياء والانعزالية الممزقة حتى يخلو لهم اليمن يمتصون خيره ويلعبون فى أشلائه .

وابن الامير فوق هذا أحد أفراد العلويين لم يطمع فى ملك ولم يتطلع الى نفوذ بل ترفع عن هذا فى كبرياء يدعو الى الاكبار . وكان على صلات طيبة بكل الأسر التى حكمت أو طمعت فى الحكم يحترمونه ويقدرونه ويهابونه فى الوقت نفسه .

لذلك فقد كان رأيه خير حكم على العصر والمعاصرين والحاكمين والمحكومين جميعا .

ولقد كان ابن الامير بعيد التأثير وعميقه فى الشعب والقادة ، واستطاع أن ينتزع من الأسر الهادوية جماعة من أحرار الفكر الذين يؤمنون بمبادئه ويفرغون أنفسهم لخدمتها . وفرض على العلماء الذين ساروا شوطا بعيدا

فى تشويه المذهب الهادوى أن يحدوا من شططهم وأن يراجعوا أنفسهم قبل كل خطوة تبعدهم عن الطريق أكثر مما بعدوا .

ويكفينا أن نعلم أن الأئمة خافوا ابن الأمير حيا وميتا حتى كان المنصور محمد بن يحيى جد الطاغية أحمد يردد دائما فى مجالسه :

(محمد بن اسماعيل الأمير ليس منا أهل البيت) .

(ان الأمير أفسد ثلاثة بيوت عظيمة فى اليمن : بيت المتوكل بشهارة وبيت شرف الدين بكوكبان وبيت اسحق بصنعاء) •

والبيوت التى أفسدها ــ على حد تعبير المنصور ــ هى التى خدمت كتاب الله وسنة رسول الله فى مدارسها ، وكان هذا يعتبر فى نظر الطغاة افساد ، وهم يعلمون حق العلم أنه اصلاح للعقيدة وافساد لسطوة الطغيان .

لكل هذا فاتنا قمنا بدراسة أسرة القاسم فترة تقارب المائتى عام ولتتضح شخصية ابن الأمير على أن يمسك بالراية بعده الامام محمد بن على الشوكانى ليقود قافلة التاريخ الى أسرة حميد الدين .

ويجدر بنا قبل أن نبدأ فى تاريخ أسرة القاسم بن محمد بن الرشيد أن نشير الى أننا استبعدنا كثيرا من الحقائق التى قد تشق على القارىء أو التى تخرج بهذا البحث عن هدفه من دراسة ابن الامير وعصره •

كما أننا استبعدنا تلك الأخبار التى تناولت الجرائم الخلقية المسفة تعففا لأقلامنا أن تخوض فى هذه الأوحال وتنزيها للقارىء سمعه وبصره ، من أن يقع على ما يؤذيه ، وحماية للأجيال البريئة ـــ عدة اليمن ومعقد آماله وآمال الأمة العربية ـــ من كل قبيح مستنكر .

وسيكون هذا البحث من قسمين :

القسم الاول : أسرة القاسم

القسم الثانى : ابن الأمير

القِسمُ الأوّل

أسرة القاسم

* نسب أسرة القاسم
* الطريق الى الحكم
* من القاسم الى المهدى صاحب المواهب
* من القاسم الرهيب الى العباسى الجشع

الفصل الأول

نسب الأسرة القاسمية

يبدأ تاريخ هذه الأسرة بالقاسم بن محمد بن على بن محمد بن على بن الرشيد ويتدرج النسب بعد ذلك حتى ينتهى الى الامام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ثم الى الحسن بن على رضى الله عنه وكرم وجهأبيه.

وقد ولد القاسم بن محمد رأس هذه الأسرة فى عام ٩٦٧ هـ ونصب نفسه اماما على اليمن فى عام ١٠٠٦ هـ وقام ملك القاسم على أنقاض أسرة شرف الدين ومن ثم تناول الصراع الذى حدث بين الجانبين تاريخ أسرة ابن الرشيد بالتفنيد والتمحيص .

كنا نميل الى عدم الخوض فىهذه الآراء التى أثيرت حول النسب، فلعل شهوة الحكم وتنافس الأسر أدى الى بعض النتائج التى لا تسعفها الأدلة التاريخية .

وما حاجتنا الى هذا وقد ظن المؤرخون الظنون بالرجل الذى قدم الى اليمن وادعى أنه الامام الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى وهو رأس الأسر الهادوية فى البلاد .

ما حاجتنا الى أن نتعرض الى نسب القاسم بن محمد وشخصية الهادى الرسى مشكوك فيها وقد تناولها كثير من المؤرخين بالتمحيص ومال كثير منهم الى أن الرجل قد انتحل هذه النسبة انتحالا وتظاهر بالتقوى والورع وتسلل بهما الى شعب طيب كريم أكرم وفادته وأحسن لقاءه ، فما كان من الهادى وبنيه الا أن وثبوا على ملك اليمن وراثة يتداولونها قرابة ألف عام .

كان من الممكن أن نتجاوز عما قيل فى نسب القاسم بن محمد بل كان من اليسير علينا أن نؤكد هذا النسب الى يحيى الرسى فما دام الأصل مطعونا فيه فما بنى على الأصل تبع ولكن التوغل فى هذه الحقيقة التاريخية قد يخرج هذا البحث عن أهدافه . الا أن مشكلة النسب هذه ارتبطت أشد الارتباط بأساليب الحكم وفرضت على الحاكمين اتجاهات ذات تأثير فى الشعب اليمنى ، فى أفكاره وتقاليده فى حياته العامة والخاصة .

وهذه التغييرات والمؤثرات تجعلنا نحرص على ابرازها وتتبع العوامل المحركة لها حتى تتعرف الأجيال الحاضرة والمستقبلة على أدق صورة من هذه الحقبة التاريخية .

والحقائق التاريخية التى قيلت والظروف والملابسات التى أحاطت بنشأة الأسرة القاسمية والأدلة التى تناولها المؤرخون ذات اتصال عميق بتاريخ

ن نسوق رأى المؤرخين فى نسب أسرة القاسم
حاويين ان نوجز هذه الأدلة مبتعدين بالقارىء عن متاهات الأسماء والروايات معقبين على ذلك بالمرجحات التى جعلتنا نميل الى الرأى الذى نقول به .

(١)

من الثابت أن أسرة القاسم بن محمد نشأت فى بنى مديخة من بلاد الشرف وأن محمد بن على بن الرشيد هو أول من استوطن هناك فى أول القرن العاشر الهجرى . وبنو مديخة من الموطن التى لم يكن بها فى القرنين التاسع والعاشر وما قبلهما أية أسرة من أبناء الهادى يحيى بن الحسين ومن الطبيعى ألا يكون بنو مديخة على علم بأنساب الهادويين فمن السهل على أى متسلل اليهم اذا أحسن خطته وأتقنها أن ينتحل من النسب ما يشاء .

والأسر الهادوية كانت معروفة ومحصورة وفى أماكن محددة باليمن وكانوا يحرصون على ابراز أنسابهم وتسلسلها لارتباطها بالحكم ولم ينبت

فى تاريخ هذه الأسر أن كان أحد أبناء الهادى الرسى يدعى الرشيد . بل أن اسم الرشيد غريب على اليمنيين وهو أقرب مايكون الى الأسماء الشائعة بين الفرس والأتراك .

وهذا يرجح الرأى القائل بأن محمد بن على بن الرشيد قدم الى بنى مديخة فى أوائل القرن العاشر مع الحملة التركية واستوطن فى هذا المكان وتزوج من أسرة يمنية من الشرف وحتى يطيب له المقام وتيسر له سبل الحياة ادعى هذا النسب وشجعه على هذا الادعاء أن الرجل قد درس المجتمع اليمنى وعرف الظروف المحيطة به فوجد فى هذا النسب خير سند له وأيسر طريق للحياة فى مجتمع تتحكم فيه العصبية والقبلية والتشيع .

ثم بعد : أغلب الظن أن الرجل قد امتدت به الأطماع الى أكثر من تيسير سبل العيش له ولأبنائه وأنه قد أراد أن يمهد لهم الطريق السهل اليسير الى ملك اليمن .

وليس بغريب على جندى شريد قادم مع حملة تركية أن يطمع فى ملك فقد رأينا محمد على الكبير تتقاذفه شواطىء الاسكندرية حتى كتب له النجاة من الغرق ثم ها هو بعد أعوام يطمع فى ملك مصر ويعمل لذلك حتى يصل الى مطمعه بعد أن خان شعبا وثورة وقادة .

نقول اذن ليس بغريب على ابن الرشيد أن يطمع فى ملك اليمن فلما تعرف على المجتمع اليمنى وجد طريقه الى غايته يعتمد على دعامتين :

اثبات نسبه الى العلويين .

التظاهر بالتقوى والورع واتنحال الزهد .

(٢)

هناك اختلاف كبير بين أفراد أسرة ابن الرشيد وبين أفراد الأسر الهادوية فى الملامح العامة .

تقاسيم الوجوه مختلفة وهياكل الأجسام متفاوتة وألوان البشرة لا تقارب بينها .

وقد كان القاسم نفسه ذا ملامح فارسية أو تركية فهو فى الرجال ربعة معتدل مفتول القامة عظيم القوة الى السمن أقرب واسع الجبهة عظيم العينين طويل اللحية عريضها اذا وقف تدلت لحيته الى سرته واذا جلس غطت صدره.

ومن الغريب أن نجد بين العلويين خاصة أو بين اليمنيين عامة رجالا بهذه الصفة لهم مثل تلك اللحية الكثة المبالغ فى طولها وعرضها وتلك الجبهة الواسعة التى تلفت الأنظار .

ولكن الرجل وجد فى هذه الملامح مع تظاهره بالتقوى ما يعينه على ما هو فيه .

(٣)

ثم ان الفترة التى انتحلت فيها الاسرة نسبها كانت فترة مضطربة مليئة بالحروب والخلافات والتمزق وكان الاستعمار التركى فى هذا الوقت من عوامل الضعف فى المجتمع . ومما يشجع طامعا فى الحكم ويمهد له الطريق فى الوقت نفسه أن ينتسب الى الاسرة التى تتداول الملك منذ مئات السنين .

فاذا قدر له ان يختار بقعة من الأرض وجماعة من الناس بعيدين عن تيارات الحكام وصراع المتنافسين اذا قدر له ذلك تم له ما أراد فى أسرع وقت وبأبسط صورة .

ولعل كثيرا من الناس قد حاولوا ما حاوله ابن الرشيد وغالب الظن ان كثيرا منهم نجح الى ما سعى اليه وان قلة قليلة قد تكشفت أمرها الى الناس .

ولنسق اليك تلك الحادثة التى رواها الامام الشوكانى عن أحد الأفاقين انتحل فيها شخصية ولد من ابناء المهدى صاحب المواهب ، ولولا الصدفة وحدها لما تمكن انسان من اكتشاف هذا التحايل .

ولندع الكلام الى الشوكانى فى البدر الطالع اذ يقول (١)

---

(١) البدر الطالع : ٢٣٥/١ .

(ذلك ان رجلا يقال له محمد حسين من اولاد المهدى صاحب المواهب غاب عن المواهب نحو عشرين سنة ثم لم يشعر أهله بعد هذه المدة الا وقد وصل رجل يزعم أنه هو فصدقه أهل الغائب كزوجته ووالدتهواخوته وشاع انه دخل بالمراة واستمر كذلك أياما .

فوصل بعد ذلك رجل من بيتالنجم الساكنين فى زبيد وقال لأهل ذمار وعاملها : ان هذا لم يكن الغائب بل رجل من بيت صعصعة المزاينه أهل شمسان صعلوك متحيل متلصص كثير السياحة .

وكان عند وصوله قد لبس الثياب المختصة بآل الأمام فطلبه العامل فصمم على أنه محمد بن حسين من آل الامام . وشد من عضد دعواه مصادقة أم الغائب وزوجته واخوته) .

ثم يقول الشوكانى (وكان صاحب الترجمة « قاضي ذمار » حكم له بأنه محمد بن حسين اجتنادا الى الظاهر وهو اقرار الأهل) .
هذا ما حدث من ادعاء نسب وزوج وأم وأخوة ثم قضاء القاضى وفى عصر قريب من عصر القاسم .

فهل على بنى مديخة والشرف من لوم أن جاءهم رجل تركى أوفارسى يتلفع بلباس ظاهره التقوى والقرابة من الهادويين . هل عليهم من لوم أن صدقوه وقد جهلوا من نسب هذه الأسر ما علمته الام من ولدها وخبرته المرأة من زوجها وعهده الأخوة فى أخيهم .

(٤)

كان الأئمة يسيطرون على عقول الشعب بوسائل غريبة متوارثة فكل امام يسلك تنطلق ألسنة الدعاة من حوله تروى عنه الكرامات والشواهد على صحة امامته .

وليس من هذه الأدلة اختيار الشعب له أو رضاهم عنه أو قدرته على ادارة دفة الحكم ورغبته فى الاصلاح ورفع الظلم عن الرعية .

ولكنها قصص خيالية تؤكد اتصاله بالملائكة وتحكمه فى الجن وسيطرته عليهم اذ هو سلطان الأنس والجن .

كما تتناول هذه القصص رؤى يختلقها النائمون ويدعيها الامام نفسه عن اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبرأ سيرته السمحة من كل ادعاء .

وكان القاسم يبث أعوانه ومريديه فى البلاد للترويج لدعوته وابراز مؤهلاته بالسيطرة على الجن والأنس والاتصال بالملائكة ولم يكن هو أقل من اعوانه نشاطا ولا ادعاء فى هذا السبيل .

بل كان الرجل قد وهب قوة فائقة وذكاء حادا وخيالا بارعا وقدرة على اختيار القصص القريبة من أذهان الشعب والسيطرة عليه وتخديره .

ومن اراد التأكد من كل ذلك فليرجع الى السير التى كتبت عن الأئمة وليرجع الى الجرموزى مؤرخ سيرة القاسم ليرى الى أى مدى وصلت هذه الشعوذة على أيدى الرواة وعلى ألسنة الرواة عن القاسم نفسه :

روى الجرموزى عن القاسم أنه كان يتردد على سوق بيت عذاقة من بابه وكان المسيخ الدجال يتردد أيضا على هذا السوق ولكن بصفه خفية ليضلل الناس ويفسد عليهم دينهم فاكتشفه القاسم اذ كان لا يراه أحد من الناس غير القاسم فتتبع المسيخ حتى أخرجه واضطره الى الفرار ولم يعد الى سوق بيت عذاقه بعد ذلك .

أين ذهب المسيخ ؟ ولماذا لم يتردد على اسواق أخرى كثيرة فى اليمن وغير اليمن ليفتن الناس .

لم يتحدث القاسم ولا الجرموزى عن ذلك ولعلهما تركا الأمر لقاسم آخر يكتشف المسيخ فى سوق آخر من اسواق المسلمين .

وكثير من الروايات المماثلة التى أريد بها تضليل الشعب وارهابه والسيطرة عليه فكريا وروحيا .

وغالب الظن ان القاسم لم يكن يصدق صحة نسبه العاوى ولكنه عمل بشتى الوسائل على تدعيم هذا الادعاء الذى بدأ به جده .

وليس بغريب على من يزعم أنه يطارد المسيخ الدجال فى الأسواق أن ينتحل نسبا الى ابن أبى طالب رضوان الله عليه .

ولما كانت الأسر الهادوية كفيلة بان تدافع عن كيانها وتتدارك الملك الذى يوشك ان يفلت من يديها فقد وضع القاسم واتباعه فى اعتبارهم محاربة هذه الأسر فى الوقت الذى يدعمون هذا النسب .

وألفت كثير من الكتب لخدمة هذه الأغراض جميعها تكون مرجعا للدعاة ومنهجا دراسيا للهجر « المدارس » التى أنشأها القاسم فى شتى أنحاء اليمن .

وهاهو كتاب بغية المريد خير شاهد على ذلك اذ يطالعك عنوانه بالغرض الذى ألف من أجله .

(بغية المريد فيمن ولده السيد على بن محمد بن على بن الرشيد) وكان المؤلف أكثر توضيحا لهدف الكتاب عندما قال فى مقدمته :

(فانه لما طرق سمعى من ابناء السادة الاعلام أهل الوقت يسأل عن نسب بعض أهله من عصبته ونسبه بصيغة الاستنكار علمت يقينا انه قد جهل النسب من نفسه وأهله فضلا عن غيره) .

ارأيت الى صاحب الكتاب وهو أحد افراد الأسرة يدافع عن استنكار العلويين وانكارهم لنسب ابن الرشيد وقد أجهد الرجل فكره فادعى أن أصل الأسرة قدم من الشام « بلاد صعدة » .

وكان القاسم يسابق الأسر الهادوية فى انكارها عليه نسبه اذ يعمل على التخلص من هذه الأسر والقضاء عليها وعلى نفوذها كلية فى اليمن .

وقد رسم الطريق له ولأبنائه من بعده لمحاربة الهادويين ومطاردتهم ليشغلهم بمعركة البقاء عن معركة الحكم وقضية النسب معا .

والقاسم نهازة للفرص يحسن الاستفادة منها فى براعة وحذق وقد

استباح لنفسه ان يغتال منافسيه ويتخلص منهم بشتى الوسائل فماذا عليه ان استعمل سلاح الخيال والادعاء وهو سلاح هين ما أيسره ، قوى ماأقطعه

اتيحت له الفرصة ان يتصل باحد ائمة عصره ليكون من اعوانه وهو الحسن بن على بن داود ، وشاءت الصدف أن يقبض الأتراك على الحسن ويسوقونه الى الآستانة ليموت هناك .

وكان موته هذا قد أكسبه قدسية فى نفوس الشعب وأكسب القاسم حرية فى أن يروى عن الحسن ما شاء له خياله البارع وشاءت له أطماعه الواســعة .

فتارة يدعى ان الحسن عرف عن طريق الملاحم أو الجفر « وهو التنجيم الذى يزعم الرسيون أنه علم توارثوه عن جعفر الصادق رضى الله عنــه » عرف ان القاسم ستئول اليه الامامة فاخبره بذلك وأوصاه بعدة وصايا .

اذا صدق الناس هذا هل يمكن لأحد ان ينازع القاسم فى الامامة بعد حقائق العلم هذه التى أكدت حقه فيها ؟

وهل يمكن لأحد أن يرجع الى الحسن ليسأله ويتأكد منه عن صحة ما عرفه ونقل عنه من الملاحم ؟

صفوة القول أن ابعاد الحسن عن اليمن ثم مــوته فى تركيــا كانت فرصة اهتبلها القاسم ، وليكن من بين الوصايا التى أوصاها الحســن له التخلص من تلك الأسر الرسية الراسخة فى الحكم وفى النسب معا :

جاء فى بغية المريد ما يلى :

(وكان مما أوصى الامام الحسن بن على الامام القاسم أن بيوتات فى اليمن الغالب عليهم الميل الى الدنيا :

بنى شمس الدين	أهل كوكبــان
ومنهم الحــمزات	اينما كانوا « وابن الامير منهم »
ومنهم السادة القواسم	« ابناء القاسم العيانى »
الاغلب عليهم العيب	« الغــــدر »

واستشعر الامام ذلك وتطلبه فوجد الأمر كذلك . فلا زال مشغولا بحرب بنى شمس الدين .

وكان يكثر التبهل الى الله والدعاء اليه ان يخذل الحمزات ويبدد شملهم وكان قد دعاهم الى نصرته والجهاد بين يديه .

فاتفق ذات يوم — وهو يوم عيد — وكان فى جبل برط فنظر الى تراب ثائر فى بلاد الجوف فقال لمن عنده من أهل برط : ما هذاك التراب الثائر ؟

فقيل له : نقع الخيل من ملعب الأشراف يلعبوه أيام العيد .

فتوجه الامام الى القبلة وشال يده ودعا عليهم بأن قال :

(اللهم انك تعلم أنى قد دعوت هؤلاء لنصرتى فيما يجب لك من ازالة المنكرات فلم يجيبوا وأنا فى هذا الجبل غريبا وحيدا أتنظر نصرتك لى والفرج عنى فأسألك أن تبدد شمل هؤلاء وتهلكهم عددا ولا تجمع لهم شملا ولا رأيا ولا كلمة مسموعة وسلطهم على بعضهم بعضا واكفنا منهم وعنهم) .

وتحليل هذا الكلام يطول ويخرج بنا عما نهدف اليه من القصد ولكن أمورا نود أن نشير اليها اشارة عابرة نستعين بها مع القارىء على وضوح الرؤية :

— ان القاسم حدد فى هذه القصة الاسر التى عزم على القضاء عليها هو وأبناؤه من بعده .

— انه دمغ هذه الأسر بانها تميل الى الدنيا وانها تطلب الحكم لهذا الغرض وزعم أنه تحقق من كلام الحسن فوجده صحيحا . وبالتالى فهو رجل زاهد مصلح لا يطلب الملك الا للاصلاح وازالة المنكرات .

— انه بدأ فعلا بتنفيذ خطته حيال بنى شمس الدين بالحرب الساخنة وبالحرب الباردة حيال الحمزات وذلك لأنهم كانوا كثرة ومنتشرين فى اليمن لا يقوى عليهم .

— نود أن نلفت النظر الى الطريقة التى لجأ اليها الرجل فى الدعاية ضد الأسر التى كان يخشى منها وصورة التقى الورع المتبتل الى الله يتجه الى القبلة وقلبه يغلى حقدا وضغينة على بنى عمه ان كان ثمة قرابة بينه وبينهم .

ترى لو كان هؤلاء الحمزات من غير العلويين بماذا كان يدعو عليهم وماذا تتوقع أن يكون الدعاء لو كانوا من كفار التأويل فضلا عن الكفار المشركين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الرسول الكريم ، الرحيم الحليم ، الذى لاقى من أهل الطائف العذاب الأليم ، عندما ذهب اليهم يدعوهم الى الاسلام بعد أن يئس من استجابة كفار مكة ، فما كان من أهل الطائف الا أن أغروا به العبيدوالصبية يقذفونه بالحجارة حتىدميت قدماه

وعندما عرض عليه جبريل أن ينزل بهم عقاب السماء اتجه محمد عليه السلام الى ربه قائلا « اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون » .

لقد رأى القاسم كثرة الحمزات فأطارت عقله ورأى نقع الغبار فتصور الحرب المتوقعة بينه وبينهم فطار لبه وشاء له أسلوبه المشعوذ العميق أن يدمغهم بكل نقيصة تنتزع بقية اكبار من نفوس الناس من حوله بهذا الدعاء المسموم الذى جهر به حتى حفظه الناس من حوله وتناقلوه بعدمماته مأثرة من مآثره وكرامة من كراماته .

والأخبار التى تروى عن القاسم بن محمد لاتنتظم فى مبدأ ولا هدف واحد سوى مبدأ الوصول الى الحكم . ففى حين أننا نراه يطارد المتصوفة ويحمل عليهم ويلجأ فى بعض الحالات الى أن يغتالهم بنفسه كما فعل بالمتصوف صاحب صنعاء . تراه هينا لينا بل ومادحا مع صوفى آخر التقى به فى الحجرية .

وفى قصة صوفى الحجرية هذا كثير من الأدلة التى تدعم رأينا الذى نقول به لذلك فما علينا من بأس ان سقنا اليك مقتطفات منها نقلا عن بغية المريد .

(دخل « أي القاسم » بلاد خولان الطيال فلم يجد مايريد فرحل الى المشرق الأقصى من بلاد الرصاص فوجدهم لا التفات لهم الى الهدى بل هم كالأغنام فطلع جبل يافع فلم يجد منه نصرة وانما هم لصوص يخرجوا من بلادهم للاطماع ويعودوا بها ثم عزم الى جهة الحجرية والمعافر فوجدهم على مذاهب شنيعة) .

ونقف هنا وقفة يسيرة لنلاحظ أن الرجل كان يلح على بلاد المشرق واليمن الأسفل لأنه كان يعلم أن أهلها لن يناقشوه الا فى أمر واحد وهو أحقيته بالامامة أما فى الشمال — موطن الهادويين — فانهم سينكرون عليه نسبه أولا — وقد أنكروه — فضلا عن انكارهم الامامة المترتبة على النسب .

ومع التجاوز عن تلك الصفات التى وصم بها القبائل التى مر بها لا لشيء الا لأنها لم تصدقه ولم تستجب له فانه قد أوصى بنيه بهذه الروايات أن ينتقموا منهم أن تغلبوا على الحكم وكان أبناء القاسم — والحق يقال — أوفياء لوصية أبيهم فقد أذاقوا هذه القبائل ألوانا من الهوان تستعصى على الخيال .

ولا نحب أن نترك صاحب البغية أكثر من هذا فلنرجع اليه حيث يتم الرواية :

(ثم بلغه « القاسم أيضا » خبرالسيد صاحب الجعدى وكانعلىمنهج المتصوفة ويدعى الكشف ولما وصل الامام عنده فحال أن دخل عليه قال :

مرحبا بالامام القاسم .

وكان الامام فى السيادة لايؤبه له فقال :

انما أنا من الأشراف أو السادة أو ما هذا معناه فقال :

لا بل أنت الامام الداعي وستملك البلاد أنت وأولادك وتحكم فيهما برأيك .

فأخبر الامام أنه وجده رجلا صالحا) .

ونرجو أن يكون القارىء قد لاحظ كما لاحظنا تلك العبارة التى أفلتت من المؤلف دون أن يعى ماوراءها ولعلها أفلتت من القاسم نفسه الذى روى هذه القصة وهى قوله :

(وكان الامام فى السيادة لايؤبه له) .

ومعنى ذلك أن أحدا لم يكن يعترف له بهذا النسب وانما شغل الناس عن هذه القضية فيما بعد ما واجهوه من ظلم أو ما غنموه فى ظل الدولة القاسمية . أو هذا وذاك وما عفت عليه الأيام .

ثم هى سنة الحياة مع الغالب .

والناس من يلق خيرا قائلون له — ما يشتهى ..

والقاسم مع الحاحه على الدعوة وتصميمه وتلهفه عليها يفاجأ بكلام الجعدى ولذلك فهو يقول كالمتشكك :

« انما أنا رجل من الأشراف » .

كأنك صدقتنى فى الأولى عندما صدقتنى فى الثانية .

ولا أقل بعد ذلك من يبادل الرجل مدحا بمدح وثناء بثناء فيقول انه وجده رجلا صالحا .

(٥)

ومما يؤكد أن أفراد الأسرة القاسمية كانوا يحسون بضعف نسبهم وكانت هذه الحالة النفسية تؤثر على تصرفاتهم وتدفعهم الى أن ينتهزوا كل مناسبة لتأكيد هذا النسب أو نفى كل ما يثير الشبهة حوله .

وقد كان الطاغية يحيى يضيق بسواد وجهه وأنفه الأفطس أيما ضيق وكان معارضوه يعرفون نقطة الضعف هذه فيغمزونه منها .

وقصة الرجل الذى كان يتعرض له فى الطريق ويحمل عنبا أسود وينادى عليه عندما يراه « الأسود الأسود » قصة مشهورة ..

بل ان أباه كان أكثر ضيقا بلون ابنه وملامح وجهه وقد جاء يوما يعلمه أنه ينوى التسرى بجارية سوداء فما كان من الوالد الا أن صفعه ثائرا وهو يقول :

(عاد لحنا بنسوى نخرتك الى اليوم يا يحيى) .

وكان الرجل يخاف أن يتأصل اللون والأنف « النخرة » المفرطح فى ذريته .

وقد تكرر هذا الموقف بالنسبة لمحمد بن يحيى الذى كان أميرا على الحديدة وقد تناهى الى أبيه أنه انتزع زوجة تركية من زوجها بغيا واعتداء فلم يعترض على هذا التصرف . وبعد فترة علم أنه مال الى جارية من جوارى « الهيج » فغضب غضبا شديدا وأرسل فى طلبه ووبخه قائلا : « قد رضينا بالتركية لتحسين النسل وتريد الآن أن تزيد السواد ونحن نحاول أن نتخلص منه من كذا عام » .

ومهما يكن من شيء فقد جنب رأس الأسرة نفسه وجنب أبنـــاءه من بعده مئوية الصراع المذهبى ووفر عليه وعليهم جهدا كبيرا عندما أكد نسبه الى الهادويين .

فهو يعلم حق العلم أنه لو طمع فى الملك بدون هذا السلاح فان قول عبد الله بن حمزة سيصدق عليه ويطارده حتى يقضى عليه وعلى أتباعه :

أما الذى عنـــد جدودى فيـــــه   فيقطعون لســـــنه من فيـــــه
ويؤتمـــــون جهـــــــرة بنيـــه   لأن حق الغيـــــــر يدعيــــــه

الفصل الثانى

الطريق إلى الحكم

(١)

قلنا من قبل أن تاريخ الأسرة بدأ بالقاسم بن الرشيد وأن القاسم قد أعد اعدادا طيبا للدور الذى لعبه بعد ذلك للوثوب على حكم اليمن . وان دراساته ومميزاته الشخصية قد لعبت دورا كبيرا فى نجاحه فيما أعد له .

وقد كان الرجل الى جوار ذلك يلبس مسوح الرهبان ويتظاهر بالمثالية الدينية ووجد الفرص كلها مواتية للوصول الى حكم اليمن .

فالحرب قد أنهكت أسرة شرف الدين والأتراك جميعا وأنصار الدعوة الاسماعيلية كادت تخمد أنفاسهم فى مواطن قوتهم والبلاد ممزقة كل ممزق .

وبرغم كل هذا فقد كان الشعب يجاهد الاتراك ويحاربهم كلما وجد الى ذلك سبيلا فما أيسر على القاسم والحالة هذه من أن يختطف جهاد الشعب وملك اليمن لقمة سائغة وبنفس البراعة التى انتهجها أبناؤه بعد ذلك المنصور وابنه يحيى حميد الدين .

وقد أرسل القاسم دعاته فى كل مكان يدعون له وينشرون الدعايات من حوله ويختلقون الكرامات التى لايصدقها عقل فالجن خدم له والملائكة من أنصاره والمسيخ الدجال يفزع عنه رؤيته هربا . وهو نفسه لا يتورع أن يؤكد هذه القصص المختلقة بروايات يرويها وتتلقفها أجهزة الدعاية من حوله تنتقل بها فى أطراف اليمن .

ولم يكن الأمر يقتصر على بث الدعاية وارسال الرسل والدعاة . بل ان الرجل بعين الحاذق الخبير كان يتتبع الرجال الذين يخشى منهم على

دعوته سواء كانوا منافسين أم مناوئين وسرعان مايتخلص منهم بشـتى الوسائل : السم والاغتيال والوقيعة . تلك الوسائل التى ظلت شيمة هذه الأسرة والتى عرف الشعب اليمنى منها الكثير فى عهد الطاغية يحيى .

ومما يدهش العقول ويحز فى النفوس أن هذه الاغتيـالات كانت تغطى بستار الكرامات فتارة الجن هى التى قتلت وتارة الأفاعى هى التى انتقمت وتارة الغيرة الدينية هى التى دفعت الى هذا القتل ومن شاء فليرجع الى الجرموزى ليقرأ عشرات من هذه الحوادث وتلك الخرافات .

وما دام الرجل يريد ملكا فلا ضير عليه أن جمع بين الغيرة على الدين والغيرة على الوطن فى سبيل ذلك .

ثما أن أهل عام ١٠٠٦ هـ حتى أعلن نفسه اماما على اليمن من جبـل قارة وقد قاربت سنه الأربعين عاما فمولده فى عام ٩٦٧ هـ

وبدأت الحرب بينه وبين الأتراك يهاجمهم ويطاردونه حتى اذا اطمأن الى حصوله على منطقة الجبال وتأمين جانبه فى السيطرة عليها وقع الصلح معهم وبقى هذا الصلح بين الجانبين الى أن توفى فى عام ١٠٢٩ هـ .

وان المتتبع لتاريخ هذه الفترة التى اشتعلت فيها نيران الحرب بين القاسم وبين الأتراك تتكشف له بعض الحقائق الواضحة :

أولا : أن الخراب قد حل بأنحاء اليمن حتى اذا توصل القاسم الى مكاسب شخصية تجاهل ما أصاب البلاد فى سبيل هذا الكسب .

ثانيا : أن الصراع مع الأتـراك قد اسـتغل فى التخلص من المنافسـين الحقيقيين للقاسم باسم التحرير .

ثالثا : ان حرب التحرير كانت قائمة بين الشـعب وبين الأتـراك وكل ماصنعه القاسم أن استغل الشعور العام للوصول الى الحكم .

(٢)

وهذا الداعى الذى يتزهد ويتظاهر بالتقوى كان لايؤمن الا بالسيف وازهاق النفوس وسلب الأموال وبث الحزازات بين النـاس وتسـليط

القبائل بعضها على بعض « التخطيط » -- وظلت هذه سنة بيت القاسم حتى وصلت أسرة حميد الدين فكان « الخطاط » سبيلها الى حكم اليمن وفرض سيطرتها على القبائل واستصفاء أموال من يغنى منهم واضعاف من يقوى وتفتيت من يكثر .

فالرجل الذى يرى نقع الخيل فيفزع الى الله ويتجه الى القبلة ويرفع يديه داعيا بلحيته الكثة المستطيلة المستعرضة حتى تملأ صدره . يقدم عليه ابنه محمد المؤيد من حبس كوكبان (١) ورأى فى عنقه سبحة فقال له :

ما هذه ؟

قال : سبحة .

فقال :

بل اجعل مكان هذه هذا السيف . وقلده اياه وقال :

شمر للجهاد انما هذه من صفة القاعدين .

ويكتب كتابا الى أحد أتباعه وهو الشيخ أبو زيد فيحكى له ما فعله اليمنيون من أتباعه باليمنيين من خصومه فيقول :

(وبقية من المخذولين فى بلاد وادعة صار القتل فيهم كل يوم وقد قتل الجند المنصور الى اليوم فوق مائة قتيل وتغنموا منهم غنائم حسنة من السلاح والدراهم) .

ثم لايكتفى بالجريمة التى ارتكبها هو وجنوده فى وادعة بل شاء له ضميره أو شاءت له أطماعه أن ينتقل بالقتل والنهب الى جهة أخرى . واليك جزءا من الرسالة تتعرف منه على هذه الحقيقة :

(وكذلك اذا تفضلتم أن تتقدموا الى حجور وتخربوا بيت ابن عرجاش وتنهبوا ماله وتأخذوه خاسئا حسيرا ذليلا خاسرا فى الدنيا والآخرة وأنتم تقدرون على ذلك) .

أرأيت الى هذا الفضل والتفضل على الجريمة واستباحة أموال الناس ودمائهم .

---

(١) بغية المريد .

ثم هاهو القاسم لايريد أن يترك للرجل بقية من تردد الى مايدفعه اليه دفعا فيواصل رسالته : (وليس فى تراخيكم وصياتتكم لبلاد أعـداء الله فائدة فان أهل البلاد لايحنوكم « لايتركونكم » ان ظفروا بكم والعيـاذ بالله) .

(وكذلك أخربوا أموال أهل بيت مأخوذ وبيت جحوش وسحنة أقماهم الله « أحرقهم » وبعدهم من رحمته وأسكنهم النار بحق جـدى محمد رسول الله) .

ولا تستطيع أن تنكر على القاسم هذه البراعة فى السيطرة الفـكرية على أتباعه .

انظر اليه كيف يؤكد أن هذا العذاب الذى سيقع بخصـومه سيتبعه عذاب أشد وأنكى فى الآخرة .

ثم هذه العبارة الأخيرة (بحق جدى محمد رسول الله) فهى لاتحتاج الى تعليق .

قلنا اننا لا نستطيع أن ننكر على القاسم براعته ولكنا ننكر عليه كل الانكار هذه الأحقاد التى بثها فى القبائل حتى تأصلت فى النفوس وصارت عادة وتقليدا أن تغير قبيلة على أخرى وأن تثور الحروب بين أبناء الوطن الواحد والملة الواحدة .

وبين رحى الأحقاد والغارات والأطماع استبيحت الأموال وسفكت الدماء واعتدى على الحرمات وأصبحت الوحدة السياسية فى اليمن هى القبيلة هى العصبية وهى القومية وهى المبدأ حتى اذا تمكن كل ذلك أحاط الحكام الشعب الحضارى العريق بسور من الجهالة والانعـزالية لايتسرب منه شر ولا ينفذ اليه خير .

والقاسم يبث سمومه هذه بعد دراسة للمجتمع اليمنى وتعرف على علاقات القبائل ببعضها فهو قد طوف فى اليمن كما رأيت بتلك السـمات الشخصية المؤثرة الجبهة الواسعة والعينين العظيمتين واللحيـة الطـويلة العريضة ومسوح الرهبان التى يتستر وراءها والمثالية الدينية .

وكما وضع فى خطته التخلص من ثلاث أسر قوية فى اليمن ، كذلك وضع موضع التنفيذ القضاء على كل شخصية يشتم منها المنافسة القوية له ولدعوته حتى ولو اضطر الى أن يغتال بيده وأن يقتل بنفسه .

واذا كان قد أباح لنفسه أن يسلط أتباعه على معارضيه وأن يتفاخر بعدد القتلى الذين يتساقطون وبالغنائم الحسنة التى تنهب ويدفع القبائل لتخرب وتقتل وتعيث فما أهون عليه والحالة هذه أن يمد يده الى الأرواح فينتزعها وبكل قسوة :

جاء فى ترجمة القاسم للامام الشوكانى هذه القصة التى تؤكد المعانى التى أوردناها اليك والتى قد تكون موضع غرابة ودهشة . ولكننا لانبغى من وراء هذا الا أن نسوق اليك الحقائق وبكل صدق .

يقول الشوكانى فى البدر الطالع :

(حكى الحسن بن الحسين حفيد القاسم أن صوفيا بصنعاء كان شديد الخلاعة وكان يأكل الحشيش أكل الحمار ويستبيح المحرمات عامة فكمن له الامام القاسم فى بعض الأزقة كمون الأفعوان حتى اذا مر به ضربه بعمود فأخرج دماغه من بين الآذان .

ثم خرج من المدينة خائفا يترقب) .

كأن المسألة غيرة على الدين فحسب وازالة للمنكرات ولكن القصة اذا تناولها القارىء المدقق تكشف له بعض الضوء الذى يمكن أن ينير الطريق . فغالب الظن أن هذا المتصوف كان — القاسم يخشى منه على السياسة التى وضعها لنفسه فاذا علمنا أن بعض الرواة الآخرين يذكرون أن الرجل كان تركيا تكشف لنا السر فى اختيار هذا الصوفى دون بقية الأتراك من القادة والمحاربين .

فقد كانت خطة القاسم أن يوهم الشعب بأن الأتراك كفار وألا صلة بينهم وبين الدين .

فاذا ظهر منهم رجل متصوف حوله الأتباع ويكثر فى حضرته

المريدون . بدأ كثير من الناس يترددون فى تصديق ما يشيعه القاسم عن كفر الأتراك .

فاذا أضفنا الى ذلك أن القاسم كان يتتبع المتصوفة بالحرب والعداء الشديد لتخوفه منهم ومن أتباعهم وأنهم بسيطرتهم على جانب من الشعب يحولون بين دعوته وبين النفوذ الى أعماق العامة .

فى حين يؤمن هو بان السيطرة على النفوس والتضييق على العقول وقصر الفراسة عليه وعلى أبنائه هو السبيل الوحيد لوصوله الى الحكم واحتكار هذا الحكم لأبنائه من بعده .

لهذا فقد اغتال القاسم هذا الصوفى بيديه على تلك الصورة التى تقشعر منها الأبدان .

فلو كان هذا التركى — على فرض أنه تركى — يجاهر بتعاطى الحشيش وباقتراف المحرمات لوقف المجتمع فى صنعاء ضده . ولكان أى قاتل له محل اكبار الجميع ولوجد له مأوى يأوى اليه ويحميه من الأتراك ولما احتاج الى أن يخرج منها خائفا يترقب . بل لوجد المكان الذى يختفى فيه لعملية الاغتيال بدلاً من كمونه فى أحد الأزقة .

وغالب الظن أن قصة الحشيش والمحرمات انما هى تبرير لجناية ارتكبها القاسم فى شبابه وما أكثر المبررات التى اختلقها القاسم وأبناؤه من بعده لكل الجنايات التى ارتكبوها .

وقد مر عليك من هذا قليل من كثير .

(٣)

كان القاسم يعلم أن دعائم الدولة التى يهدف الى اقامتها تحتاج الى تثبيت عقائدى يضمن لها البقاء .

لذلك فقد أحاط الشعب اليمنى بسور من الرهبة الروحية والسيطرة الفكرية ..

وكان السبيل الى هذا ابراز تلك الأفكار السياسية المغرضة التى أقحمت على المذهب اقحاما ونسبت الى زيد بن على رضى الله عنه تلفيقا .

فأنشأ كثيرا من الهجر « المدارس » فى المساجد وأنشأ من حولها مساكن الطلاب ونشط أتباعه يعلمون فقها هادويا قاسميا لايقصد به الا تقديس الأسرة وتكفير الخارجين عليها واغراق العقول فى غيبوبة مذهبية لاتفيق منها ولا تعى مايدور حولها من ظلم واستبداد وامتصاص للخيرات ولا يتطلع حر الى أن ينازع فى حكم أويرفع مصلح رأيا باصلاح .

وفى الوقت نفسه يسهل قيادة الشعب وتحريكه الى الأغراض الخفية وغير الخفية لسادة الحكم والمسيطرين عليه .

وقد ساهمت الأسرة الحاكمة من أبناء الرسى فى هذا الذى صنعه القاسم وبنوه فى عقول الناس ومذاهبهم .

وكان من أبعد أهداف هؤلاء أن يحولوا بين اليمنيين وبين انطلاقة الفكر وحرية الرأى وأن يكونوا حراسا على العقول فيما يقدم اليها من أفكار .

فبرغم أنهم يدعون الانتساب مذهبيا الى الامام زيد بن على — رضى الله عنه — وهو ينادى بأن كل مجتهد مصيب وكان تلامذته أئمة مجتهدون — ومن غير العرب — يعتز هو بهم وببنوتهم ويفخرون به وبأستاذيته ويجلونه أيما اجلال كالامام أبى حنيفة النعمان .

برغم هذا فقد حرموا على العلماء الاجتهاد وألزموهم بالتقيد بالمذهب فقط . وأصبح الامام الحاكم بعد هذا مصدر التشريع ومناط الأحكام يضيف الى الفقه أحكاما تدعم سلطانه وتؤكد سيطرة الأسرة وتسوق الناس بارهاب الدين مع رهبة الملك . أو هى تضيف الى المعتقدات شيئا جديدا يباعد بين أتباعهم وبين تعاليم امامهم الأكبر زيد بن على رضوان الله عليه .

فزيد بن على كان ثائرا على الملك العضود والحكم المتوارث بين الأسر ولم يثبت عنه رأى أو حكم يقول بأن الامامة من أصول الدين أو

أنها محصورة ومتوارثة فى أبناء على — كرم الله وجهه — عامة أو أبناء فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — خاصة .

وتجاهلت كتب الفقه هذه الحقائق وتجاهل الأئمة ما علموه منها أو هم جهلوه فى حقيقة الأمر وانطلقوا يؤيدون ملكهم فكريا وعقائديا فى تلك الهجر التى أنشأها القاسم فى اليمن ودعمها أبناؤه من بعده .

وأصبح أساس العلم هو الامامة ومن هم أصحابها وأصبح كل معارض لهذا الأساس كافرا أو عاصيا حتى ولو كان هذا المعارض من أتباع زيد والمؤمنين بتعاليمه كفرقة المطرفية أحد الفرق الزيدية التى لاتشترط حصر الامامة فى أبناء فاطمة الزهراء .

واذا أراد القارىء أن يعرف ما حدث للمطرفية من الهادوية فليرجع الى تاريخ عبد الله بن حمزة الرسى الذى حكم بكفرهم وقتل منهم الآلاف المؤلفة وخرب مدنهم وقراهم وسبى نساءهم وذراريهم ومنعهم من دخول المساجد حتى أنه كتب على واجهة مسجده الذى بناه فى ظفار :

أقسمت قسمة حالف بروفى — لايدخلنك ما حييت مطرفى

والدين الاسلامى السمح الذى بعث به محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه — رحمة للعالمين ونورا للانسانية وحربا على استبداد الأسر واذلال العبيد .

هذا الدين الحنيف أصبح فى تعاليم القاسم كما يقول :

ياذا المريد لنفسه تثبيتا ولدينه عند الاله ثبوتا
أسلك طريقة آل أحمد واسألن سفن النجا ان يسألوا ياقوتا
لاتعدلن بآل أحمد غيرهم وهل الحصاة تشاكل الياقوتا

والاسلام لا يعرف فى الناس حصى وياقوتا ولا أسود ولا أبيض ولا عربى ولا عجمى اذ المسلمون سواسية كأسنان المشط لا فضل لفرد على آخر الا بالتقوى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد أرهقت هذه الأفكار أحرار الناس ارهاقا شديدا حتى اضطر كثير منهم الى مقاومتها بشتى الطرق . وكانوا يعارضون أحكاما منحرفة بأحكام وقرآن كريم وأحاديث نبوية شريفة .

كما كانوا يعارضون الشعر بالشعر ولتستمع الى نشوان الحميرى وهو يقول :

آل النبى همو أتباع ملته   من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله الا قرابته   صلى المصلى على الطاغى أبى لهب

ولولا أن الحديث يطول لتتبعنا من أمثال هذه الآراء الكثير والتى انتهت الى أن يستبيح فيها القاسم دماء المخالفين عليه ويستحل أموالهم وأعراضهم . وقد أشار الشوكانى الى بعض ذلك فى قوله :

(وله نظم فى المواعظ والعلوم والزجر والتهديد) .

واذا كنا قد لمسنا بعض الرفق فى الأبيات السابقة للقاسم والتى قسم عباد الله فيها الى حصى وياقوت . فما هذا الرفق الا لأن الأبيات تناولت رأيا خالصا يتدارسه طلاب العلم ويقوم بشرحه أرباب العلم . حتى تكون هذه التعاليم راسخة فى النفوس جارية على الألسنة عقائد ثابتة لا تناقش عند العامة ولا يجرؤ الخاصة على نقضها .

وآل أحمد فى عرف القاسم هم آل القاسم فحسب لا غيرهم من العلويين أو الهادويين فاذا تطاول أحد العلويين من غير بيت القاسم على التطلع الى الملك والسلطان كان الرد عليه مثلما كان رده على عبد الله بن على المؤيدى حين دعا لنفسه معارضا له :

ان كنت تبغى هدم دين محمد   فأنا المريد أقيمه بدعائم
أو كنت تخبط فى غيابة باطل   فأنا المزيل ظلامها بعزائم
لولا اشتغالى بالحروب وأهلها   لوجدت نفسك لقمة للاقم

واغوثاه . يالثارات الملك . ياللنفوس الظامئة الى الدماء المتعطشة الى الحكم .

رحماك يارجل ما لدين محمد وما أنت فيه مع المؤيدى من نزاع انك واياه تتنازعان الحكم وقد يباح لك فى شرعة هذا الصراع أن تجعله لقمة للاقم أو أن تكمن له فى أحد الأزقة بعمود من حديد فتضربه لتخرج رأسه من بين أذنيه أما أن تهدد العالم الاسلامى بهدم دين محمد كله فهذا مالا يقبله عقل ولا يقره شرع .

(٤)

وكان لابد أن يصاحب وصول القاسم الى الحكم ايجاد سياسة بعيدة المدى تقطع الأمل بين الشعب اليمنى وبين التفكير فى الحكم والانتقاض على الأسرة .

وأقوى الوسائل التى انتهجها القاسم ومن جاء بعده توسيع الهوة بين الشعب وبين السادة .

الالحاح على الشعب حتى يحس بالضعة والعجز وعدم القـدرة على امتلاك أمره بنفسه وحاجته الدائمة الى من يقوده ويوجه خطواته .

والارتفاع بطبقة السادة واحاطتها بهالة من القدسية الرهيبة :

الهادوى سيد والفاطمية شريفة وسيدة . فاذا كان من أسرة القاسـم آكدوا هذه السيادة بقولهم سيدى وسيدتى .

ويحرم تقديم اليمنى على السيد فى صف أو كلام أو مصافحة أو ركوب أو مأكل أو كل مايوحى بشرف أو تشريف .

وكل مناسبة يجتمع فيها الناس كالجمع والأعياد والأعراس والمـآتم والذكر عقب الصلوات فمن الآداب المرعية والتقاليد المتبعة الاشـارة الى السادة والاشادة بهم وبكراماتهم .

وخطبة الجمعة لابد أن ينص فيها على ذكر القاسـم صراحة والا لم تصح خطبة ولا صلاة . وستأتى الاشارة الى المحنة التى وقع فيها ابن الأمير بسبب اختصاره لخطبة الجمعة وعدم ذكر القاسم . وكيف تألب السادة عليه

وهددوا المهدى العباس بأنهم سيقتلون ابن الأمير ان لم يحبسه ، وحبس ابن الأمير لأنه لم يذكر فى خطبة الجمعة القاسم بن الرشيد .

ويحرم زواج اليمنى بشريفة وان حدث هذا وجب التفريق بينهما . وأشاعوا الوهم بين النـــاس أن من تجـرأ على هذا الزواج التهم البرص أعضاءه .

حتى جدران المساجد ومنابرها ومحاريبهـا ترصـع بأســماء الأسرة ومناقبها .

خرافات أريد بها اذلال الشعب العظيم حتى لايتطلع الى حكم نفسه فى يوم من الأيام .

ولم تكن الفروق بين المذهب وبين بقية المذاهب الاسلامية لتصــل الى هذه الدرجة التى وصلت اليها على أيدى بيت القاسم ودعاتهم .

فقد تعمدوا هذه الفرقة وعمقوها فى نفوس الشعب لتزيد العصــبية ويتشتت الشمل ومن ثم تتاح لهم فرصة استغلال هذه الخـلافات ليجنى صانعوها خيرات هذا البلد الطيب .

فلا غرابة اذ أن كان أصحاب المذاهب الأخرى كفار تأويل أو منافقين لايمتثلون الأحكام الشرعية الا كرها .

وكان الحرص على أن يفهم الشعب أن الدين الصحيح هو مايقــدمه السادة وغير ذلك — ايمان مزيف كان هذا الحرص يدفع بعض العلماء الى خرافات تثير الشفقة والسخرية معا .

ولتستمع الى هذا الذى رواه صاحب بغية المريد عن ابراهيم بن أحمد الكينعى . عندما ذهب لأداء فريضة الحج فرأى الناس يفدون من شتى بلاد المسلمين ويتضرعون الى الله ويبتهلون كما كان يفعل الكينعى تماما .

وهاله أن يرى هؤلاء الناس يلتفون حول الكعبة ويبــكون وتنهمــر الدموع من أعينهم خشية من الله ورجوعا اليه .

وكان الرجل قد خاف أن تؤثر هذه المناظر فى الشعب اليمنى عندما يرى غيره من أصحاب المذاهب تعمر قلوبهم بالايمان وتفيض عيونهم خشية ورهبة ولا فرق بينهم وبين هؤلاء .

كأن الرجل خاف من كل هذا على انقياد الشعب خاف أن تتفتح العيون والقلوب على الأخوة الاسلامية السمحة والفكر الاسلامى الوسيع والاحترام المتبادل بين وجهات النظر المختلفة مادامت تلتقى كلها حول الايمان بالله الواحد القهار والايمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، بالكتاب الكريم والسنة المطهرة وليختلف المسلمون فيما يصح الاختلاف عليه ماداموا يتفقون فيما يجب الاتفاق عليه .

خاف الكينعي أن يتطرق الى ذهن بعض العامة ما يشككهم فى السادة وما يقدمه السادة من علم .

واذا بالرجل يقص هذه القصة والعهدة على صاحب البغية فيما رواه :

(سمعت أهل المذاهب المختلفة يبكون ويتضرعون الى الله . فسألت الله عز وجل أن يرينى الحق .

فاذا بهاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه فى جوف الليل وهو يقول :

« لا يغرك بكاؤهم وان بكوا فالحق مع القاضى الحسن بن محمد النحرى وعصبته »

والقاضى الحسن هذا أحد دعاة المذهب الهادوى . والعلماء الذين نشطوا وراء — هذا الهدف اما أن يكونوا قد غرر بهم وعاشوا بما قدم لهم من كتب لاتنفتح أعينهم على غيرها .

واما أن يكونوا ممن يسعون لكسب المنافع الدنيوية فى مكر ودهاء .

فالقضاة والعمال والدعاة وخطباء المساجد وأئمتها يجب أن يكونوا من المتعصبين لبيت القاسم وكل خارج عن هذه الدائرة فهو بعيد عن دائرة الحكم وفتات موائده .

ومن هنا زادت الحالة سوءا على الشعب اليمنى فبجوار الاقطاع الذى تحولت اليه البلاد فى أقسى صوره نشأت طبقة من الأسر تتوارث الوظائف صاغرا عن كابر تستبيح من الحقوق والمظالم ما شاءت لها أطماعها واحتكرت العلوم التقليدية تتناول منه مايؤهلها لما تتوارثه .

وكان هؤلاء الموظفون يؤمنون فى قرارة نفوسهم أن كل ظلم يباشرونه انما هو حق من حقوقهم فكما تورث الاقطاعيات بما فيها من أراض زراعية وما عليها من سكان وحيوانات وطيور وخيرات وما يقدر عليهـا من فرض الزكاة أيضا . فكذلك تورث الأعمال الوظيفية بما يستتبعها من رشـاوى ومظالم وانتهاب لأموال الضعفاء . فليس العمل الذى أسند الى هؤلاء عن كفاءةوانما هو عن وراثة .

وبذلك ابتعد عن أداة الحكم وسلطان الأئمة العناصر الصالحة ، ابتعد ذوو النفوس العالية والضمائر الحية والتصق بالدولة ماشئت أن تتصور من طغام الناس .

ومن هنا ندرك القيمة العظيمة لثورة السادس والعشرين من سبتمبر . فقد حطمت ذل الرجعية وسجن الشعوذة المذهبية وقضت على الاقطـاع الحقيقى والاقطاع الوظيفى وأفسحت الفرصة للكفاءات لتعمل وتبنى وتخدم اليمن العظيم ، تعيد له حضارته التى تآمر عليها مشعوذون أفاقون تنـاهى ظلمهم حتى خرج على حدود التصور واشتد عسفهم حتى ألحقهم بوحوش الغاب .

وقد دعا ابن الأمير صراحة الى القضـاء على الأسر الحاكمة بل قد تمنى أن يحصدهم السيف حصدا لا رحمة فيه وسنؤكد هذه الحقيقة من شعر ابن الأمير ومذهبه .

ولكن انظر اليه وهو يسخر من هؤلاء الذين يعملون فى وظائف الدولة وقد أحاطوا أنفسهم بهالات كاذبة وتلفعوا بألقاب براقة يتجملون بها حينـا ويتسترون وراءها أحيانا :

تسمى بنور الدين وهو ظلامه	وهذا بشمس الدين وهو له خسف
وذا شرف الاسلام يدعوه قومه	وقد نالهم من جوره كلهم عسف
رويدك يامسكين سوف ترى غدا	اذا نصب الميزان وانتشر الصحف
بماذا تسمى هل سعيد فحبذا	أو اسم شقى بئس ذا ذلك الوصف

(٥)

وكان كل امام يبدأ دعوته بايهام الشعب بأنه يسيطر على الجن ويتحدث الى الملائكة وأوهموا الناس أن الامام يملك من الجن مايملك من الانس . فالامام ملك الجن والانس ويسوقون الناس سوقا بهذه الخرافات وأمثالها حتى كان المواطن العادى مطاردا بشبح الامام أنى سار وأين كان يعتقد أن عليه رقيبا يحصى حركاته ويسجل سكناته ، وليرجع الى جميع الكتب التى ألفت فى تاريخ الأئمة وقد تولى أتباع كل امام كتابة تاريخه وجمع كراماته التى لم تتوفر لأنبياء الله ورسله .

وأصبح سلطان الجن يسوم الناس فى حياتهم وأفكارهم وكثر تردد هذه الترهات حتى صارت بديهية من البديهيات وحقيقة مسلمة لاتقبل نقاشا .

وكل حادثة تستغرب أو ظاهرة تدهش الناس ما أسرع ما يرجعها المؤرخ الى الجن أو الى كرامات الامام .

ومازلنا نذكر أن الأتراك عندما دخلوا اليمن للمرة الثانية ومدوا شبكات سلكية للبرق تناول الناس هذه الظاهرة بالتفسير . فلم يكن أيسر عليهم من أن يرجعوها الى الجن . ومن أقدر من الجن على هذا الاختراع الغريب :

(وفى هذا العام قطع المجاهدون السلك ويسميه العجم « التلغراف » وهو من صنع الجن بلا خوف) .

والحديث فى هذا المجال يطول ولكنا سنعطى القارىء بعض الأمثلة حتى يلمس من كان بعيدا عن اليمن وظروفه صورة من هذا الذى قلنا به .

بدأت حركة الأحرار تظهر فى عهد الطاغية يحيى حتى صارت حديث الناس وتفتحت بعض الأذهان على المظالم الواقعة على الشعب وبدأت الألسنة تتحرك بالنقد مما لم يكن معهودا من قبل وأحس الأتباع من حول يحيى بالخطر فتلطفوا بالحديث مع الامام يوجهونه الى شيء من اعتدال السيرة والقصد فى العسف والجور والتحايل على ابتزاز الأموال دون اللجوء الى الأساليب التى درج عليها هو وبنوه ، ولكن يحيى استمع الى كل هذا الذى قيل له فى شيء من الاشفاق على خاصته وكثير من الاستخفاف بما يقولون ورأى أن يجرى استفتاء عاما يؤكد فيه لأتباعه أن الشعب مرتبط به أوثق ارتباط وفى الوقت نفسه يشعر هو بمدى سلطانه على العامة فيزهو بذلك ويفخر . ولعله أراد من وراء هذا الاستفتاء أيضا أن يؤكد للخارجين عليه فى عدن أن كل مايسعون اليه نفخات فى رماد .

وكان هذا الاستفتاء من نوع غريب على بقية شعوب العالم وعلى كافة ملوك الأرض ولكنه ليس بغريب على يحيى وعلى الشعب المسكين الذى فرض عليه أن يعيش فى وهم كبير .

أصبح الناس فى يوم من الأيام فاذا بالامام يتحدث فى مجلسه أن السلطان الأحمر وهو ملك الجن قد قتل وأن شعب الجن أصبح هملا بدون سلطان يحكم تصرفاتهم ويقيد أفعالهم ويراقب جناياتهم .

وما هى الا سويعات حتى تصدر ضعاف النفوس من العلماء ، وكبار الأتباع يروون الخبر عن الامام ويضيفون له ماشاء لهم خيالهم وشاءت لهم ضمائرهم حتى شملت الناس رهبة قاتلة .

وأتبع الامام هذا بان أرسل برقيات الى العمال والقضاة والأمراء ليحذروا الجن فى هذه الفترة التى ستشيع فيها فوضاهم حتى يتمكن الامام من احكام سلطانه عليهم وتعيين سلطان أحمر آخر يحل محل القتيل وعلى كل فرد من الشعب أن يحصن نفسه من سطوة الجن واعتدائهم بأن يسم جبهته بقليل من القار وأن يرصع باب بيته بكثير من القطران .

وأصبح الناس فاذا بأوعية القار قد وضعت فى الطرقات واذا بالحديث على كل لسان فهرعوا صغيرهم وكبيرهم يقتتلون على القار وسار الرجال والصبية ملطخة وجوههم بالقار وقبع النساء فى البيوت على تلك الحال ولم ينس صاحب بيت أبواب بيته من هذه الأوسمة السوداء .

هل رأيت استفتاء أغـرب من هذا الاسـتفتاء الذى أجـراه يحيى حميد الدين .

لقد جمع خاصته بعد أن رأوا مارأوا وقال لهم : مثل هذا الشـعب لا يمكن أن يشترك فى الثورة على امامه .

وحادثة أخرى تروى عن الطاغية أحمد بعد مقتل أبيه وفراره من تعز وما كاد يصل حجة حتى أمر فحيكت عشرات الجلابيب البيض كل جلباب يبلغ فى الطول عشرين ذراعا . ولكى يؤكـد للشعب حجة أنه أمام حقيقى مؤيد بسلطان الجن وأن شعبه الخفى قد اعترف به قبل أن يبايعه أهل اليمن. أعلن فى الناس يوما من أول أيامه بحجة أن الجن ستطوف بالمدينة هذه الليلة وأن على الناس أن يلزموا بيوتهم حتى لايؤذيهم طوافو الجن .

واختفى الناس من المارة وتلصصوا من نوافذ المنازل فى رهبة قاتلة فاذا بهم يرون جماعات من الجن تلبس جلابيب بيض متناهية فى الطول وتحمل رؤوسا سوداء لايكاد يدرك الرائى لها جسما ولا يتعرف لها على ملامح .

وأستغفر الله لم تكن جنا هذه التى رآها الناس وانما هم جماعة من أتباع الامام وخاصته قد اختفت داخل الجلابيب وحملتها على عصى طوال وفى رأس كل عصى رأس من الصوف .

ومن ذا الذى لا يصدق بعد هذا أن أحمد حميد الدين هو الامـام المختار ومن لم تحركه الأطماع حركته الأوهام ليندفع الناس الى صـنعاء يفعلون بها وبأهلها ما تعف الأقلام عن تدوينه فما صنعه التتار فى بغداد أهون وأقل بشاعة مما صنعه أتباع الامام بأهل صنعاء بعد ثورة ١٩٤٨ .

وكان أحمد داهية لا يشق له غبار فى هذا السبيل استعمل المسجلات ليحصى على زائريه كلامهم ثم يستمع الى مادار فى المجلس ليعيده عليهم .

ومن ذا الذى أخبره بهذه الأحاديث غير الجن .

وكان يتحرك مع حرسه وأتباعه فعثر جواده فى جانب صخرة فأوقف الركب واستدعى السجانين الموكلين بالقيود وأرسل فى طلب سلاسل الحديد الغلاظ وأحكمت القيود حول الصخرة ووضعت أقفال الحديد .

ثم التفت الامام الى خاصته يفسر لهم ما فعل :

« انما هو مارد من الجن خرج علينا ورام حربنا فأردنا أن نؤدبه » ولم تكن الجن وحدها من مصادر تدعيم حكم الامام فالبرق والمطر والخارجون على الامام الذين يغتالون بالسم والخناجر وتلقى تبعة قتلهم على أمور غيبية لا تعلم ، كل هذا من أسباب النصر الذى لايتوفر الا لامام .

ثم تلك الرؤى التى يخترعونها اختراعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والتى أتقنوا تلفيقها حتى أصبحت من لوازم كل امام يدعو لنفسه سواء نجح فى الدعوة أم فشل فيها .

ولنرجع الى مثال واحد من ذلك نختاره لك من سيرة المنصور الحسين ابن القاسم الشهارى الذى لم يكد تخلص له الامامة عاما كاملا وما قدر له السيطرة على زمام الملك بعد أن تنازل له المهدى صاحب المواهب عام ١١٢٧ وأجبر على هذا التنازل اجبارا وكان قائد الثورة على المهدى هو القاسم ابن حسين فلم تفلت السلطة من يديه حتى خلع المنصور حسين وانتزع البيعة لنفسه متلقبا بالمتوكل .

صفوة القول أن المنصور لم يملك ولم يحكم ولم ينله من الأمامة الا اسمها فترة عام أو يزيد قليلا ثم فارقه اللقب الى غير رجعة .

ومع هذا فقد انطلقت أبواق الدعاة تقول وتروى وتقص ومن بين ما قالت تلك القصة التى رواها نشر العرف عن محمد بن اسماعيل الكبسى :

لما حج (١)المنصور حسين سنة ١١٢٣ هـ اجتمع فى مكة بنصوح باشا أمير المحمل المصرى وسـأله عن أحوال اليمن فأخبره بمثلما كان قد أخبره بمكة المولى عبد الله بن أحمد بن المتوكل على الله اسماعيل من سوء الحالة فى اليمن فكان من قول نصوح باشا « للمنصور » أن مثلك من العلم يتعين عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودعوة النـاس الى ما فيه صياتتهم وحفظهم .

وقال السيد عامر بن محمد بن عامر فى بغية المـريد أنه أخبره بعض السادة الثقاة أنه قال له حاكم حبور السيد العلامة محمد بن اسماعيل بن ابراهيم جحاف أنه لما حج أخبره رجل أصله من اليمن وقد صار مهاجرا بأهله فى طيبة أنه رأى فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم يقول انهذا الأغا صار بجوارى يفعل المنكرات وقد أمرت بضرب عنقه ثم التفت النبى صلى الله عليه وسلم وأشار الى رجل وقال له :

وأنت : اليمن فيه ظلم كثير فقد أمرتك أن تـزيل المنكرات وتفعـل وتفعل .

قال وعرفت الرجل فى المنام وليس له خبر فى المدينة فلما وصل الزوار واذ ذلك الرجل الذى أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم معهم فأقبل الرجل الرائى اليه وقبل يده وقال له :

من أنت ؟

قال : شريف من اليمن .

قال ما اسمك ؟

قال : الحسين بن القاسم .

قال : سيدى تفضل تكون ضيفى .

وجد عليه ولم يقبل منه عذرا فأسعده ، فلما خلا به قال :

ياسيدى : لك حديث عجيب . وأخبره بما رأى وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له فى المنام ما قال :

---

(١) نشر العرف لزبارة .

فأما الأغا التركى فأصبح يوم ثان وقد أمر الباشا بضرب عنقه ولا أعلم من خبره غير ما سمعت منى .

وأما الذى أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم فهو أنت بصورتك التى لا أنكرها وفقنى الله بك . ومرادى أن تشملنى بصالح دعاك .

قال السيد محمد حجاف :

فلما وعيت ما أخبرت به علمت عند دعوة الامام المنصور أنه المذكور .
ولما خرج الى اليمن من مكة ونقل الى المهدى صاحب المواهب اجتماعه بنصوح باشا وما تكلم به أراد طلابه من شهارة واستمال بعض مشايخ الأهنوم وأمرهم بالقبض على « المنصور حسين » (٢) .

أرأيت الى القصة كيف ألفت فأحكمت أطرافها ، فلو صدقت الرؤيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لامتد الأمر بالمنصور حتى يرفع الظلم ويزيل المنكرات .

ولكن هاهو الرجل لم يكد تتم له البيعة حتى يخلع فان لم يكن قد شارك فى الفتنة التى اعتصرت الشعب اليمنى اعتصارا فى هذا الوقت فلا أقل من أن يقال انه عجز عن أن يزيل الظلم ويرفع الجور .

(٦)

وكان الأئمة يتابعون أداة الحكم بالفتاوى والأحكام الشرعية التى يساندون بها عمالهم والتى تقضى على معارضيهم أو تسلأ خزائنهم بالمال .

فاذا أرادوا أن يستولوا على أموال الأوقاف وأعيانها أصدروا حكما شرعيا مؤداه « ألا قربة لكافر » .

فاذا علمنا أن الكافر عندهم نوعان كافر صريح وكافر تأويل ، علمنا أن كفر التأويل باب واسع يمكن أن يتسرب منه كل من رأى الامام فيه رأيا أو خالفه بوجه من الوجوه .

لهذا استطاعت أسرة القاسم أن تلغى وقف الغيل الأسود والغيل البرمكى .

وأن تتحايل على اخراج الأوقاف الى الملكية الخاصة بأن تبيع العين تمويها ثم يعودون من طريق آخر فيشترون ماباعوه . وتصبح هذه الأوقاف من أملاك الأسرة . وتنتقل بصفة نهائية من القربة الى الملكية .

والأمثلة على ذلك كثيرة . ولما كان هذا البحث لا يتسع لتتبع هذه الأمثلة بالتفنيد والتحليل والاستقصاء فاننا نكتفى بحكم واحد أصدره المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ — ١٠٨٧ هـ) .

وكان اليمن قد تخلص من الاستعمار التركى وامتدت أطماع المتوكل الى يافع وعدن ولحج وابين وحضرموت فوجه اليها جيوشا طاغية لاترحم ولا تبقى ولا تذر بقيادة ابنى أخيه محمد وأحمد ولدى الحسن بن القاسم .

وكانت هذه الجيوش تحتاج الى اعداد وميزانيات ضخمة والسبيل اذن هو العدوان على أموال الشعب .

ولكن ما دام هذا الملك يتستر وراء الامامة فلا بأس من أن يصدر حكما شرعيا :

ا) تتحول فيه أرض اليمن من أرض عشرية تعطى الزكاة الى أرض كفرية تقدم الخراج . بحجة أن اليمن انتزع من الأتراك وأنهم كانوا يملكون هذا الوطن .

والأتراك كفار فما أخذ منهم غلبة ينطبق عليه ما ينطبق على خيبر .

ب) أن الجيوش التى تغير على أرض المسلمين الآمنين جيوش مجاهدة فى سبيل الله .

جـ) كل مايفرضه الامام على الناس عامة أو على بعضهم خاصة حق مستحق ودين لازم يقدم طوعا أو يؤخذ كرها .

د) أن يتحكم الامام فى أموال الناس وما يملكون من أرض وتجارة وحيوان تحكم السيد فى عبده أو ضربه السيد على عبده كنص الحكم الذى أصدره المتوكل .

هـ) الجهاد لا يقتصر على جهاد الكفار والبغاة ولكنه يمتـد الى جهـاد المنافقين وهم فى نظر الامام الذين لا يمتثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام بجنده أو ببعض جنده .

الى آخر هذا الحكم الغريب الذى يجدر بنا أن نسـوقه اليك وأن نتبعه برد أحد العلماء الأحرار عليه ومعارضته له مفندا الحكم بندا بندا :

يقول المتوكل اسماعيل :

(قال محققو العلماء :

ما أمر الامام على الناس أو على بعضهم من نفقة الجهـاد مال حقـا مستحقا ودينا لازما كالخراج . وضربه السيد على عبده .

ودليل ذلك أمر الله تعالى بالانفاق فى الجهاد ترغيبـا وترهيبا . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به .

وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب ولكنه اعداد ما استطيع من القوة التى فى زماننا هذا الجند .

ثم ان الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة ولكنه ذلك مع جهـاد المنافقين الذين لايمتثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام بجنده أو بعضهم .

وقد يكون ذلك من كثير من أهل الشوكة الذين يحتاجون الى فئة من المسلمين من الجند تردهم عن ذلك .

وقد يكون ذلك من أفراد من الضعفاء لكنهم كثير بالنظر الى جملة البلاد فلا يقوم بأمرهم الا الجند) .

(فعلى كلّ حال اعداد الجند والنفقة عليهم من أعظم الجهـاد وهم مجاهدون الا من فسدت نيته .

فاذا تقرر ذلك فالمطالب التى وضعها الامام كالحق والدين اللازم .

فتداعى الناس فيما يلزم كل واحد منهم حيث وقع تقدير ذلك على قدر الأرض أو الملك أو المواشى مما يعين حكمه الشرع . ولا ريب فى ذلك .

فكيف ينبغى أن يقال هذا مرجعه الى غير الشرع كما رأيناه من بعض الفقهاء .

فلنتيقظ لذلك والله ولينا وكفى) .

وقد تتبع الجلال هذا الحكم بضمير العالم المحقق الشجاع وبفهم المدقق وبثورية الأحرار .

يتساءل أولا عما يقصده المتوكل بالحكم الذى قال به محققو العلماء . هل المقصود به قياس الأرض العشرية على الأرض الخراجية وقياس الحر على العبد ؟

لايعقل هذا فهو كقياس الأعمى على البصير والظلمات على النور .

أم يقصد المتوكل أن الامام يملك رقاب الناس وأموالهم ، أم هل يقصد أن أرض اليمن خراجية أصلا لا قياسا . فالمراد بقولكم كالخراج التماثل والقياس .

وعليه فان من الجائز فرض الضرائب على من لايملك أرضا و لابيتا ولا مالا ولا متجرا اذ هو ضربه السيد على عبده .

وهذا الحق الذى يدعيه المتوكل لم يقل به أحد من علماء الزيدية وانما نسب الى الامامية وهم الشيعة الاثنى عشرية .

وهم لا يجيزون هذا الحق الا لاثنى عشر اماما وليس المتوكل واحدا من هؤلاء الأئمة .

واذا ادعى المتوكل بأن أرض اليمن خراجية أصلا لا قياسا فان الجلال يعترض عليه فى ذلك بأنها كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرية اذ أن أهلها أسلموا طوعا وذلك خبر لاينكره انسان .

فما الذى جعلها خراجية . ما الذى أخرجها عن أصلها ؟ اذا كنت تزعم أن السبب فى تغيير وضع هذه الأرض استيلاء الأتراك فترة من الزمن على اليمن . فالاتراك فساق وليسوا كفارا ولا سبيل الى تكفيرهم مع اقامة الأركان الخمسة .

ولو كانوا كفارا لما جازت ذبائحهم ، وأنتم تجيزونها ، ولا نكاح نسائهم وأنتم تبيحون ذلك ، ولا دخول المساجد ولا البيت الحرام . وقد صليتم معهم وأديتم فريضة الحج بجوارهم وهناك فرق كبير بين الكفار وبين الفساق .

(ولا أحصر ما بين أحكام الكفار والفساق من الفروق الظاهرة) .

وهكذا يتمشى هذا العالم الجليل مع أدلة بطلان هذا الحكم مادة مادة.

وينتهى الى تحريم الاعتداء على أملاك الناس واخراجهم عنها الا بوجه من وجوه التمليك المعروفة لقوله عليه الصلاة والسلام « لا آكل مال امرىء مسلم الا بطيبة من نفسه » .

ويسوق الأدلة على أن ملكية الأفراد المسلمين لا تتغير باعتداء الكفار عليها . ويتساءل مستنكرا :

(وكيف يملكون علينا ؟!)

(عن ابن عمر أن غلاما أبق له الى العدو فظهر عليهم المسلمون فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مولاه) .

وقصة أخذ المشركين ابل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها الجدعاء وكانت امرأة أبى ذر ترعاها . وساقوها حتى أتوا دارهم وكان الى الليل وركبت امرأة أبى ذر الجدعاء وتسللت بها وفى غمرة الخوف والحرص على النجاة نذرت أن نجاها الله بها أن تنحرها .

ونجاها الله فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بنذرها فقال «بئس ما جزيتها » وأخذها ..

وما ذلك الا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن الكفار لم يملكوا الناقة بأخذهم اياها ومن ثم لم تملكها امرأة أبى ذر فهى اذن قد نذرت مالا تملك .

ثم ان تحريم مال الغير معلوم قطعا فلا يعارضه الا صريح آية أو خبر متواتر أو اجماع .

وأين كل ذلك مما ساقه المتوكل من الأدلة .

فلا بد عند الاستدلال على جواز أخذ هذه الأموال والاستيلاء على هذه الأملاك من أحد هذه الأدلة القطعية فكل ما ساقه المتوكل ظنى ولا يعارض الظنى ما هو قطعى .

ألم تر أيها الملك أن الأحزاب عندما أحاطت بالمدينة استولت على جميع أموال المسلمين ولم نسمع أن النبى صلى الله عليه وسلم قسمها بين المسلمين بعد ذلك بل (أقر كل أحد على ما كان له) .

ان العلامة الجلال كان شديد الخوف من أن يعدو هؤلاء الطامعون على أموال الشعب وأملاكه تسترا وراء هذا الحكم .

وقد صدقت ظنونه . فقد عدا الأئمة المتعاقبون على أرض اليمن انتزعوها من مالكيها بغيا وملكوها لأتباعهم . وتحول اليمن الى اقطاع كبير. وصار ما فى أيدى الناس عرضة لسطو الأئمة وأطماع عمالهم ووزرائهم .

وأصبحت الجنود التى يوجهها الامام لتسطو وتنهب وتروع عباد الله الآمنين أصبحوا مجاهدين فى سبيل الله .

وأخيرا يوجه الجلال الى المتوكل اعتراضا مدمرا . ويقول انك تزعم أنك امام والامام عالم مجتهد والمجتهد يقول برأيه هو لا برأى غيره اذ فرق بين المجتهد والمقلد .

(ثم قوله « قال محققو العلماء » لا ينبغى أن يكون معتمدا لمجتهد لأنه ان وجد الدليل اعتمد عليه وان لم يجده طلبه ولم يرجع الى اجتهاد غيره

ولا لمقلد أيضا . لأنه مأخوذ عليه الوقوف عند أهل مذهبه . وهذه المسألة مخالفة لقواعد المذهب . فأى فائدة فى « قال محققو العلماء » ؟)

واليكم بعض فقرات من كلام الهادى الجلال :

(ثم قال « وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب .. الخ »
فنقول : اطلاق الجهاد على الأعداد ليس حقيقة الجهاد اللغوية ولا الشرعية . يعرف هذا كل أحد وان أطلق اسم الجهاد على الأعداد فمجاز لا يصلح دليلا) .

(وأما قوله « ان القوة في زماننا الجند » . فلا شك فى فساد الزمان ولكننا لا نفسر الأحكام الشرعية تبعا لفساد الزمان ونفسر القرآن بخلاف ما بينه فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

والامام انما قام ليبين الأحكام الشرعية لا ليعمل على ما يقتضيه الزمان فيما قد حكم شرعا .)

(ثم قال « ان الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين » وفسرهم بأنهم :

« الذين لا يمتثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام .. الخ »

فالمعروف فى تفسير المنافق أنه من يظهر الاسلام ويبطن الكفر . فيا لله من الحكم بالكفر والنفاق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمجرد المعاصى.

وهل هذا الا رأى الخوارج ؟!) .

(ثم قال « وقد يكون ذلك من فرد من الضعفاء » . فنقول مهما لم يتحزبوا فلا يجب جهادهم واذا فعلوا جاهدهم المسلمون) .

وفى النهاية يخشى الرجل على حياته من نصيحة أوجبها عليه دينه فيقول :

(والله انى لم أرد بمقالتى العناد ولم أقصد الا الاسترشاد وما جرأنى على هذا المقال الا أنى قد رأيت المولى قد تعرض برسالته هذه للمباحثة فى ميدان الاستدلال) .

ولعل هذا الحكم الذى أصدره المتوكل والرد عليه من الهادى الجلال يوضح حقيقة هامة وهى أن الشعب اليمنى لم يفقد أحراره فى أحلك العصور وأقساها . وأن مقاومته للطغاة ظلت على مدى السنين حتى توجت بالثورة الأخيرة المجيدة .

وهذا الحكم الذى عرضناه عليكلم يقتصر شرهعلى العصر الذى صدر فيه فحسب وانما أخذ شره يزداد مع الأيام ويتفاقم مع تبدل الحكام ويمتد أثره المستطير حتى نال الرعية منه كل بلاء .

وتوالت الأيام وتناسى العلماء رأى الهادى الجلال وتذكر الملوك والحكام فتوى المتوكل واستندوا اليها واختفوا وراءها فى كل مال سلبوه وكل حق ضيعوه وكل جناية ارتكبوها .

وسنرى بعد هذا بنصف قرن أن ما توقعه الجلال قد حدث وأن اليمن قد عانت من هذا الحكم الكثير وكان كل امام تمتد يده الى أملاك الناس يقول فتوى المتوكل اسماعيل .

قالوا (١) امامهم اسماعيل عالمهم ... أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول ان جنود الترك كافرة ... دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا ... صارت الينا حلالا بعدما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا ... على الذى بيديه أينما كانوا
ابليس سول هذا والنفوس دعت ... اليه رغبتها فيها لها شان

ويقول ابن الأمير :

خراجية صيرتم الأرض كلها ... وضمنتم العمال شر المعاشر

(١) من شعر الحسين بن عبد القادر الكوكبانى فى عهد المنصور حسين وسيأتى الحديث عنه

وأصبحت أرض اليمن فى رأى بيت القاسم مثــل أرض خيبر التى انتزعت من أيدى اليهود عنوة .

فالترك كانوا قد حكموا هذه البلاد وسيطروا عليها ثم انتزعت منهم بعد حرب . فمن حق الامام أن يتصرف فيها كيف شاء وكل يمنى فى ملــكه أجير أو عامل ومن حق صاحب السلطان أن يستبدل به غيره أو يتصرف فى هذه الأرض كيف شاء .

وهكذا أصبح الأئمة يقطعون أتباعهم وذويهم البلاد اليمنية يتصرفون فيها كيفما يحلوا لهم وكثيرا ما كان الأئمة يتاجرون بهذه الأرض ويساومون بها منافسيهم حتى يسكتوا عنهم ويخلوا بينهم وبين الأمامة. وكان من جراء هذا أن تمزق اليمن شر ممزق وعمقت أسباب الفرقة بين المدن والقــرى والنواحى ، بين القبائل بعضها البعض وانعزل الشعب لا يرى للدولة سلطانا ولا حقا عليه لأن مرجعه فى كل أموره الى ذلك الاقطاعى المتســلط الذى يتحكم فيه وفى مصادر رزقه . فهو الذى يملك الأرض والدور والمواشى والدواجن وتورث الاقطاعية عنه اللهم الا اذا كان فى ورثته ضعف ورأى الامام أن يساوم بها من هو أقوى منهم .

وسنرى بعد قليل أن الاقطاعيات الكبرى كانت مستندا لأبناء القاسم يرتكزون عليها فى طلب الملك فان لم يصلوا اليه فلا أقل من أن يوسع الامام الجديد دائرة اقطاعهم أو أن يترك لهــم ما فى أيديهم ويخلوا بينــه وبين الامامة .

ولنتتبع بعد أن مات المهدى أحمد بن الحسن ١٠٩٢ هـ أن ملك اليمن كان يتنازعه الاقطاعيون من أسرة القاسم وأن المشكلة بينهم كانت استبقاء ما بأيديهم أساسا وحبذا بعد ذلك الوصول الى الحكم .

وما أن يأتى عصر المنصور حسين عام ١١٣٩ هـ حتى نرى الشــعب يتلوى من حكم السادة ، من حكم الاقطاع .

الفصل الثالث

من القاسم الى المهدى صاحب المواهب

(١)

مات القاسم فى عام ١٠٢٩ هـ عن عدة أولاد منهم محمد والحسن والحسين واسماعيل وعبد الله .

وقد فارق الدنيا بعد أن مهد الطريق لدعوته ولأبنائه بالطرق التى أشرنا الى بعضها والتى جعلت اليمن تفتح أبوابها لنظرياته ولأسرته وليجتمع الى هذه الأسرة السلطة الزمنية والدينية .

فما أن سوى قبره فى شهارة الا اعتلى ابنه محمد العرش متلقبا بالامام المؤيد بالله وتجمعت الأسرة من حول المؤيد تؤازره وتشد ملكه ولم تكن هناك معارضة الا ما كان بعد موت أخيه الحسن اذ عارضه ابنه أحمد بن الحسن ثم لم يلبث الخلاف أن انتهى بالصلح .

وقد رأت الأسرة أن التفافها حول المؤيد بما جبل عليه من انعزالية وانكباب على العبادة خير طريق لتدعيم سلطانهم وقد بقى الامام فى شهارة وشرق الأخوة وغربوا يوطدون سلطان هذا الملك .

وقد كانت للحروب التى دارت بين الشعب اليمنى وبين الأتراك فى هذه الفترة فرصة لهذه الأسرة كى يتمكن كل واحد منهم من منطقة من مناطق اليمن يبسط فيها نفوذه ويستغل خيراتها ويبيع ويشترى فى الحكم باسم القبائل المستوطنة فى تلك المنطقة .

وكان اذا قام امام من الأئمة سارع ذوو النفوذ من هؤلاء السادة الى الدعوة لأنفسهم أو للدخول فى الصراع القائم بين المتنافسين . وما ذلك الا للوصول الى أحد أمرين :

— اما أن تمكنهم قوتهم والظروف المحيطة باليمن الى الوصول الى الحكم .

— واما أن يساومهم الامام الأقوى فيقـرهم على ما تحت أيديهم من بلاد ينفردون بها وبخيراتها وبشعبها استغلالا واستعبادا .

ولنتتبع صورا من هذا الاستغلال الذى يؤكد فكرة الأسرة عن ملك اليمن وشعبه اذ كانوا يعتبـرون اليمن ملـكا خاصا بهم لا يحق لأحد أن ينازعهم فيه . وأن ما ينشأ بينهم من خلاف لا يحق للشعب أن يشـارك فى البحث عن أسبابه وانما على الشعب أن يقدم الجيوش الى سادته ليقتتلوا وليمزق اليمن بعضه بعضا .

وعلى الشعب أن يقدم القبائل لتنهب والبلاد لتخرب وماذا يضير القادة اذا « خططت » قبيلة على قبيلة أو خربت مدينة من المـدن وماذا عليهم ان استبيحت الحرمات . أليس من مهمة المؤرخين أن يتجاهلوا ذلك كله وان ذكروا شيئا منه أعقبوه بقولهم وقد حدث هذا بدون رضى الامام وعلمه .

(٢)

بعد موت المؤيد عام ١٠٥٤ هـ قام المتـوكل اسماعيل بن القاسم من ضوران فدعا لنفسه يعارضه فى دعوته عـدد من السادة وفى نفس الوقت يدعو عدد منهم لأنفسهم :

— أحمد بن القاسم من شهارة .

— محمد بن الحسن بن القاسم من اليمن « بلاد تعز وما حولها » .

— ابراهيم بن محمد بن أحمد بن عز الدين من صعدة .

أما أحمد بن القاسم فقد دارت بينه وبين أخيـه حروب لم تكن كفة الحرب فى صالحه ولعل ذلك راجع الى ضيق ذات يده وعـدم قدرته على

ارضاء أطماع الأتباع . وما زال ينتقل من شـهارة الى عمران الى ثلا حتى أحس أن الموقف بدأ يفلت من يديه .

وانقاذا لكرامته توسط بعض ذوى الرأى فاجتمع الاخوان وتناظرا حتى يتبين أغزرهما علما . ومن طبيعة الأمور أن يحكم بالغلبـة لاسماعيل صاحب النفوذ الأقوى والمال الأكثر .

وليرجع الى الحكم الذى أصدره المتوكل اسـماعيل ومناقشة الهادى الجلال له ليتعرف القارىء أن الرجل لم يكن العالم المتمكن من علمه بقدر ما كان الملك الذى يستغل السلطان لصالحه ويخضع الأحكام الشرعية لهواه.
يأتى بعد ذلك محمد بن الحسن بن القاسم وكان التفاهم قويا بينه وبين عمه فسرعان ما تنازل عن الدعوة اليه حتى يغمض المتـوكل عينيه عما كان يفعل بالبلاد التى تحت يده وحتى يبقى محمد أكبر قواد اسماعيل « يقبض حواصل أحسن البلاد » كما يقول المؤرخون .

وسنرى أن محمدا هذا قد سار سيرة عمه فى اليمن الأسـفل فكان حكمه بلاء وشقاء .

وعندما ناقش الداعى محمد بن على الغربانى مساوىء حكم المتوكل كان أبرز هذه المساوىء ما يصنعه نجل الحسن فى اليمن الأسفل .

ومثـل ما يفعـل نجـل الحسـن   فى اليمن الأسفل من أرض اليمن
من حيـل للمـال سـرا وعلـن   كثيرة تجـرى على غيـر سـنن

لا حـق ما تؤتى بلا أثمان

الى آخر هذه القصيدة التى سنتعرض لها فى القسم الثانى من هـذا الكتاب .

ويتولى من بعده أخوه أحمد بن الحسن وظل الرجلان يعيثان فى اليمن الأسفل سفكا للدماء واعتداء على الحرمات ونهبا للخيرات كل ذلك فى ظل الشعارات الدينية التى رفعها المتوكل اسماعيل . « كفـار تأويل ــ بغاة ــ

نواصب ــ منافقون لا يمتثلون لأحكام الشرع الا كرها وخوفا من صولة الامام بجنده أو بعضهم » .

(أما السيد ابراهيم فما زال أمره يضطرب فتارة يبايع وتارة يظهر بقاءه على دعوته وتكرر منه ذلك ولم يكن معه ما يعول به من جند ولا أتباع) على حد تعبير الامام الشوكانى فى كتابه البدر الطالع ولا غرابة فالرجل بعيد عن الأسرة ولا سبيل الى بقائه على ما تحت يده الا أن يذكر بنفسه كل حين حتى يترك لبعض شأنه . وساعده على أن تعاوده الأطماع تصرف المتوكل مع ابن أخيه على بن أحمد بن القاسم فقد أقطعه البلاد الشامية منذ ١٠٦٦ هـ فضبطها بالقمع والارهاب حتى اطمأن المتوكل لها فعزل «عليا» واستبدله بابنه الحسن، فما كان من على الا أن رفع راية العصيان ونازع عمه الملك ودعا لنفسه وأفسد عليه لواء الشام الى آخر أيام المتوكل . وبموت المتوكل اسماعيل عام ١٠٨٧ هـ تنازع الملك :

— القاسم بن محمد بن القاسم دعا لنفسه من شهارة وتلقب بالمنصور.

— أحمد بن الحسن بن القاسم مما يجاور صنعاء وتلقب بالمهدى .

— على بن أحمد بن القاسم الذى ظل على دعوته من أيام عمه من بلاد صعدة .

وكان القاسم من القوة والنفوذ الدينى ما أرهب الأسرة فما أن علم ابن الامام المتوفى محمد بن اسماعيل بدعوة القاسم حتى سارع بمبايعة المهدى أحمد بن الحسن . وهاهو الحسين بن الحسن بن القاسم من رداع يبايعه ويمده بالمال والمشورة .

والغريب فى الأمر أن ابن المهدى محمد بن أحمد (١) هو الشخصية البارزة التى فضلت القاسم على أبيه ولعله وجد فى امامة القاسم ما يضمن له البقاء فى اليمن الأسفل يتقاضى المال من حله وغير حله كما يقول المؤرخون .

---

(١) هو المهدى صاحب المواهب الذى سيأتى ذكره بعد

وكان كل من القاسم والمهدى يرسل كتائبه الى أنحاء اليمن لتأكيد الدعوة واجتمعت الكتائب فى ذيبين (ووجه(١)القاسم أخاه الى مدينة خمرفى جند واسع وأنفذ من رؤساء الأهنوم رجلا يقال له أبو راوية الى بلاد حجة لحفظ تلك الأطراف) ودارت رحى الحرب بين الطرفين فى حجة واستولى جند المهدى عليها وقبضوا على بعض أفراد الأسرة وقتلوا أبا راوية الذى يرمز له المؤرخون بما يشعر بازدرائه لأى فرد عادى من أبناء اليمن .

وكان المهدى من البراعة بحيث عرف كيف يستغل تلك القوى التى تجمعت من حوله ويلتهم ملك اليمن من ابن عمه فتوجه اليه واجتمع به (ووقع الاتفاق بينهما ثم بايع القاسم للمهدى وسلم الأمر له اختيارا . ونظرا فى المصالح . وبقى القاسم فى شهارة وكانت اليه هى وبلادها والشرفين) يأكل خيراتها ويتصرف فى خراجها وزكاتها .

وليحاول كل أن يفهم هذا « الاختيار » الذى تمت به البيعة وذلك « النظر فى المصالح » بعد تلك المذابح التى حدثت والقبائل التى مزق بعضها بعضا .

ولعل المصالح التى يمكن فهمها من كل هذا أن القاسم استقل بخيرات شهارة وبلادها والشرفين كما رضى على بن أحمد فى صعدة أن يبايع المهدى على شروط مماثلة وفى له بها .

(٤)

ولم يلبث المهدى أن توفى فى عام ١٠٩٢ هـ فقامت الدنيا ولم تقعد أبدا .

— من شهارة عاد القاسم بن محمد بن القاسم ليدعو لنفسه باسم المنصور .

— ومن رداع نادى الحسين بن الحسن بن القاسم لنفسه .

---

(١) نشر العرف لزبارة

— ومن المنصورة بالحجرية دعا محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم وتلقب بالناصر وسنرى بعد أنه سيغير لقبه مرتين حتى استقر على لقب المهدى المشهور بصاحب المواهب .

— ومن صعدة دعا على بن أحمد بن القاسم .

— ومن صنعاء دعا محمد بن اسماعيل بن القاسم .

يااليمن المسكين كل هؤلاء يلعبون فى أشلائه ويمزقون وحدته ويزرعون الحقد والبغضاء بين قبائله .

وليع الجيل الحاضر والأجيال القادمة — وجه اليمن المشرق ومعقد آماله — ان ما ترسب فى أعماق القبائل من فرقة وتنازع انما فرض عليها فرضا من رجال تستروا وراء الدين . يدفعون الشعب الى قتال يزعمونه « قتالا دينيا مقدسا » ويجلسون فى النهاية على موائد الصلح بنفوس طامعة وأيد متنازعه وأنياب شرهة لاتشبع من الدماء وبطون خاوية لاتقنع من الأموال والجبايات .

وما أصدق ابن الأمير عندما يصور حالة وطنه بقوله مخاطبا لأفراد هذه الأسرة :

مزقتم شمل هذا القطر بينكم	كل له قطعة قفر وعمران
وكلكم رقى فى ظلم قطعته	مراقيا مارتاها قبل خوان
نقدموا العدل والانصاف فى أمم	قد طال منكم لهم ظلم وعدوان
تشبعوا يدا فرعاياكم مفرقة	أيدى سبا ما لها فى الأرض أوطان

ولنعد الى تصفية الموقف بين الأئمة الخمسة :

أما صاحب رداع الحسين بن الحسن فقد اجتمع — بجوار ذمار — بمحمد بن اسماعيل الداعى من صنعاء وبعد مفاوضات رضى الحسين أن يفوض أمره الى القاسم صاحب شهارة وأن يرضى لنفسه بما يرضى به القاسم صاحب شهارة .

وقد علمت من قبل أنه كان ينصر على القاسم أحمد بن الحسن ويمده بالمال والمشورة ولكن سياسة الحكم وأطماعه تشرق بالناس وتغرب .

ثم التقى القاسم بالمؤيد فى السودة واتفقا على أن تكون البيعة للمؤيد على أن يبقى القاسم بشهارة (واجرائه ما كان عليه من الحال والبلاد) (١) .

ومن الطبيعى أن يبقى الحسين بن الحسن فى رداع مسيطرا عليها وعلى خيراتها .

وهكذا صفى الثلاثة الموقف بينهم وصار أمرهم الى المؤيد محمد بن اسماعيل بن القاسم .

ثم لحق بهم على بن أحمد بن القاسم لما اطمأن على أن يترك له المؤيد ما تحت يده فبايع واستمر على حاله فى بلاد صعدة آمرا ناهيا .

بقى الموقف بين المؤيد وبين الداعى من المنصورة محمد بن أحمد وقد ترك له المؤيد ما تحت يده من اليمن الأسفل ليعيث فيه فسادا وحصل بذلك على بيعته .

(٥)

وفى عام ١٠٩٧ هـ توفى المؤيد ــ مسموما أو ميتة طبيعية ــ بعد أن أوصى لأخيه يوسف بن اسماعيل ونازعه فى دعوته :

ــ محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم وهو المعروف بالمهدى صاحب المواهب ــ يوسف من ضوران ومحمد من المنصورة ــ ودخل حلبة التنافس معهما أصحاب الأطماع القديمة .

ــ على بن أحمد بن القاسم يدعو من صعدة .

ــ الحسن بن الحسين بن القاسم يدعو من رداع .

ــ الحسن بن المتوكل اسماعيل ينادى من اللحية .

ــ الحسين بن عبد القادر يصيح من كوكبان .

ــ الحسين بن محمد بن أحمد بن القاسم من خمر .

---

(١) نشر العرف

وكان كل المطالبين بالامامة يحسون بالخطر من ناحية صاحب المنصورة محمد بن أحمد وكان هذا الاحساس قويا لدرجة أنه جمعهم فى صف واحد وجمع جيوشهم الجرارة فى اتجاه المنصورة ولكن الرجل استطاع أن ينتصر عليهم جميعا بعامل المفاجأة وعامل الحظ معا .

وقد كان للنصر الذى حصل عليه محمد بن أحمد والهزيمة التى منى بها هذا الجمع الحاشد من الطامعين أثر ثقيل على اليمن وقد تناوله الشاعر بقوله :

ثم استطار شجار فى الخلافة اذ	سرى الخلاف كسرى النار فى الشجر
بصعدة ورداع واللحية بل	وكوكبان وضوران وفى خمر
وشمر الكل فى جر الجيوش فكم	هناك من أسد فيما يروم جرى

وفى عهد المهدى ولد محمد بن اسماعيل الأمير وسنرى حياة ابن الأمير وآراءه مرتبطة بهذه الفترة أيما ارتباط .

فلابد لمن يريد أن يتعرف على ابن الأمير أن يتعرف على هذه المقدمة التى طالت بالقارىء ولابد أن يلم بطرف غير يسير من حياة المهدى صاحب المواهب .

فبعد عامين من اعتلاء المهدى للعرش ولد ابن الأمير وفى هذا العهد القاسى الغريب الملىء بأنواع الاضطراب والعسف والدماء المهراقة والأموال المغتصبة والحقوق المستباحة والحريات المقيدة المشردة نشأ ابن الأمير وتعلم .

ودفعته هذه الظروف الى أن يغير اتجاهه من اتجاه الأسرة المذهبى الى اتجاه مستقل بعيد عن العصبيات مؤمن بالحرية الفكرية . مؤمن بالحريات العامة محارب للشعوذات والخرافات التى غلت الشعب فأثقلت قيوده . حريص على مصالح الشعب يتحايل على هذه المصالح أنى وجد الى ذلك سبيلا .

وما لنا نتعجل الأمور قبل أوانها فلنمض الى سيرة صاحب المواهب أولا والى سيرة ثلاثة من الأئمة — أو بمعنى أصح — ثلاثة من الملوك حتى نخلص لابن الأمير وقد تقشعت سحب التاريخ من حوله واتضح للقارىء عظمة هذا العالم الجليل فى كل خطوة خطاها وكل رأى نادى به .

قلنا من قبل ان جموع الداعين قد تجمعت من الشمال واتجهت نحو المنصورة وكان محمد بن أحمد قد تمكن من منطقة المعافر « الحجرية » وما حولها منذ عام ١٠٦٦ هـ وكانت هـذه المنطقة الى اب مصونة عن الجـور والجبايات فترة من الزمن قبل وصول المهدى فلما حل بها أخـذ يجمع المال من حله وغير حله حتى اجتمع له من الأموال مالا يخطر لعاقل ببال فصال على الرعاة ومد يده الى الأقطار وساعده ذلك مع ما جبل عليه من صولة قطاع الطرق من التغلب على جيوش جرارة ساقها منافسوه وحاصروا بها المنصورة حتى كاد الموقف يفلت من يديه . ولكنه وثب على الأمراء فى مضاربهم وعلى غرة منهم فقتل منهم من قتل وقبض على الباقين ولم ينج الا من فر .

وفى هذه الاغارة أعمل هو وأتباعه السيوف فى بنى عمه حتى أشـاع فيهم ذعرا قاتلا جعل من ولى هاربا لا يتوقف الا فى بلاد صعدة .

وبايع يوسف بعد أن لقى الهزيمة من الخديعة وامتدت يد المهدى الى اليمن يجمع المال من حله وغير حله ويتسابق سيفه الى رقاب الناس فى طيش أعمى وفتحت السجون أبوابها للأحرار وللطامعين على السواء .

تحرك الى اليمن الأعلى فلما وصل الى « المحرس » ضرب أعناق جماعة غير قليلة ثم ادعى أنهم لصوص .

ولما وصل الى ذمار ضرب عنق الفقيه زيد بن على الجملولى متهما اياه بأنه دس السم للمـؤيد وأنه سبق أن شـاطر أهل صنعاء أموالهم وأنه كان يتعاطى التنجيم .

ثم ها هو يضرب عنق ابن خليل من رؤساء القبائل وجماعة غير قليلة من أتبـاعه .

وأحس بالخطر من ناحية عمه الحسين بن الحسن بن القاسم وكان الرجل لا شك يطمع فى الامامة وله أعوان وله مكانة فتربص به واستدرجه حتى تمكن منه وغدر به وقبض عليه وعذبه أشد العذاب ونكل به وأرسله يرسف فى الأغلال بليل الى سجن كوكبان .

وعاد بيت القاسم بعد هذه الحادثة الى التجمع وكان لم يمض على حكم المهدى ثلاثة أعوام واتخذوا من مكانة الحسين مادة للدعاية ضد الملك لتجميع الأنصار وأغروا المنافس القديم يوسف بن اسماعيل أن يعيد الكرة ويدعو لنفسه مرة أخرى وأوهموه بكثرة الأنصار من الحيمة وخولان .

ولكن المهدى سرعان ما تغلب عليهم وقبض على يوسف وأكثر أنصاره .

وساقوهم فى القيود الثقال مشيا على الأقدام من قرب صنعاء الى « ملاح » مع العذاب الشديد والاهانة المزرية وهناك كان المهدى قد أعد لهم حكما ممهورا بتوقيعات العلماء بأنهم بغاة سعوا فى الأرض فسادا فيصدق عليهم حكم القرآن بأن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .

ولكن عالما واحدا وقف فى وجه المهدى ونادى ببطلان هذا الحكم فلم يستطع السفاح أن ينفذه فى الثائرين • فألقى بهم فى منزل خال من كل شىء بلا طعام ولا شراب ولا ماء ولا تراب ثم أمر ففرقوهم قلى السجون وبقى يوسف فى سجنه سبع عشرة سنة لم يطلقه الا فى عام ١١١٨ هـ .

ويتساءل الانسان ماذا فعل المهدى بالقبائل التى ناصرت منافسه على الحكم ، يجيب المؤرخون عن هذا بأنه جند عليها أكثر القبائل تعمل فيها نهبا وسلبا وتقتيلا وتشريدا ثم أمر فخربت ديار أهل الحيمة وخولان وقطعت أعنابهم وأشجارهم •

ولا نجد صورة توضح شخصية المهدى امام القارىء من تلك الصورة التى رسمها له الامام الشوكانى فى كتابة البدر الطالع :

(كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير وينفقه بلا تقدير . وكانت اليمن

من بعد خروج الاتراك منها الى أن ملكها صاحب المواهب مصونة عن الجور والجبايات وأخذ مالا يسوغه الشرع . فلما قام هذا أخذ المال من حله وغير حله فعظمت دولته وجلت هيبته وتمكنت سطوته وتكاثرت اجناده وصار بالملوك أشبه منه بالخلفاء ومع ذلك فهو يتزهد فى ملبوسه فانه كان لا يلبس الحرير ولا رفيع الثياب وكان يسمى صاحب السجدة لأنه كان اذا خرج من موكبه ورأى ما بين يديه من الأجناد المالئة للفضاء ترجل عن جواده وسجد شكرا لله وتواضع ومرغ وجهه بالأرض .

وكان سفاكا للدماء بمجرد الظنون والشكوك وقد قتل عالما بذلك السبب وشاع على الالسن أنه كان يأتيه فى الليل من يخاطبه بأنه يقتل فلانا وينهب مال فلان ويعطى فلانا ويمنع فلانا فاذا كان النهار عمل بجميع ذلك . ولعل هذا المخاطب له من مردة الجن .

وكان يميل الى أهل العلم ويجالسهم ويتشبه بهم وربما قرأوا عليه . ولم يكن عالماولكن كان يحب التظهر بالعلم فيساعده على ذلك علماء حضرته رغبا ورهبا وله تصنيف سماه « الشمس المنيرة » فى مجلد لطيف وقفت عليه وفيه نقل مسائل من مؤلفات جد أبيه الامام القاسم بن محمد ولكنها غير مرتبة ولا منقولة على أسلوب بل لايدرى المطلع على ذلك الكتاب موضوعه ولا ما غرض مؤلفه .

وسبب ذلك كون مؤلفه ليس من العلماء . ومع هذا فكان يقرأه عليه جماعة من أكابر العلماء وليس فى وسعهم نصحه وتعريفه بالحقيقة لما جبل عليه من الطيش وتعجيل العقوبة .

ومن علو (١) همته أنه اذا أراد الايقاع بوزير من وزرائه أو أمير من أمرائه أمر الجند بانتهاب ماله ولا يأخذ منه شيئا) .

وتكتمل الصورة بتلك الأبيات التى يصور فيها ابن الأمير هذا الطاغية الشرير :

---

(١) كانت هذه علو همة فى نظر الشوكانى نظرا لان الائمة كانوا يفتعلون الغضب على عمالهم ويأمرون بانتهاب أموالهم لصالحهم هم لا لغيرهم .

سفاك كل دم عاداه صاحبه	مفرق منه بين الرأس والبدن
هناك كل حمى ان لم يطاوعه	كم من معاقل أخلاها ومن مدن
وحين ادبرت الاقدار عنه أتت	له المقادير بالآفات والمحن
وعاد أعوانه عونا عليه ولم	ينفعه أهل ولا مال مع المنن

وكان صاحب المواهب كما رأينا من كلام الشوكانى جاهلا يدعى العلم ويفرض نفسه على العلماء فرضا سخيفا ممجوجا .

يروى أن زيد بن محمد بن الحسن بن القاسم كان من أكبر علماء عصره وأحد أساتذة ابن الأمير وكان المهدى لايستقبله الا اذا تزيى بزى العلماء وأمر فأفرغت خزائن كتبه وجعلت عن يمينه وشماله ثم يجلس اليه فيعرض عليه أمهات الكتب كأنه قرأها واستوعب ما فيها وفهم ما فى بطونها .

وليس أقرب من صاحب المواهب فى كل صفاته تلك الا احمد حميد الدين فقد كان الطاغية احمد سفاكا لكل دم عاداه بمجرد الظنون والشكوك وقد قتل عالما بذلك السبب كأن أتيا يأتيه بليل اقتل فلانا وانهب مال فلان .
وكان كصاحب المواهب يجمع المال من حله وغير حله .

وكان جاهلا جهل صاحب المواهب دعيا على العلم والعلماء وعلى الشعر والشعراء .

يستحضر بعض المسائل الفقهية ليفاجىء بها العلماء فى مجلسه ليظهر عليهم وليظهر له أنه أعلمهم .

ومما يذكر أنه دخل المسجد يوم جمعة والامام يخطب فصلى ركعتى التحية . ولما قضيت الصلاة واجتمع العلماء فى مجلس أبيه أثير موضوع الصلاة والامام على المنبر . واذا بالرجل قد استظهر كل ما قيل فى هذا الموضوع حتى سلم له الجميع أمام أبيه .

ولكنهم عندما خرجوا من المجلس تهامسوا « جاهل يريد أن يظهر علمه . خلا الى الكتب حتى حفظ المسألة وقدم بها . ولولاها لما حضرهذا المجلس »

ثم ها هو يستجدى الشعراء من خلصائه قصيدة فى مهاجمة الاشتراكية وهو لا يعلم عن الاشتراكية قليلا ولا كثيرا ونسى ان الاسلام أول من نادى بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية . ورحم الله شوقى وهو يمدح سيد الرسل بقوله :

الاشـــتراكيون انت امامهـــم لـولا دعاوى القـــوم والغلواء

وكان صاحب المواهب لا يرعى للقرابة حرمة ولا يعرف امام أطماعه ابا أو ابنا ولا أخا ولا صديقا . كما كان غدارا لايقيم وزنا لعهد و لايرعى حرمة لميثاق .

فقد رأيناه ينصر القاسم بن محمد على أبيه بعد موت المتوكل اسماعيل وأراد الله أن يمثل ابنه معه نفس الدور :

يوجهه الى حرب منافسيه ، وعندما يصل الى أب يخشى بادرة أبيـه فينضم الى خصومه ويبايع يوسف بن المتوكل .

ويطلب ابنه المحسن فيحبسه ويضيق عليه حتى يموت فى سجن ذمار

ويسلط ابن اخيه القاسم على البلاد ويعلم الله كم سفك القاسم من دماء وخرب من ديار وارتكب من جرائم فى سبيل عمه صاحب المواهب .

يداهم قبائل المشرق ليلا حتى اذا اصبح الصباح عاد بالرءوس محمولة والاسرى مغلولة والاسلاب مسوقة .

ويشترك فى حرب الناجم ابراهيم المحطورى فيفتك به وبالقبائل التى التفت حوله فتكا ذريعا ثم يتولى البلاد التى كانت تحت يده .

ويذهب الى قبائل وادعة فيخرب الديار ويقيد المشايخ ويفرقهم على السجون .

كل هذا حتى اذا احس المهدى خطرا من ناحية القاسم حبسه فى المواهب وشدد عليه .

وكان من قواده صالح بن هادى حبيش يرسله لخراب البلاد وقتـل العباد فينطلق فى سبيل ذلك دون وازع من دين او ضمير .

أمره بتخريب حوث فخربها .

وكان يعطيه العدد الكثير من الحوالات لا تدخـل تحت مقدور على الضعفاء والمساكين ببلاد المغرب يحملها الرجل ويتقاضاها من الشعب أضعافا مضاعفة .

ومع ذلك لما أحس أن الرجل قد كبر حتى أصبح يخشى منه على الملك أوعز الى ابن أخيه القاسم فما زال يداوره ويداهنه حتى سلط عليه عبيده فاغتالوه ووضعوا سلاسل الحديد فى رقاب اعوانه .

هل هناك من فرق بين ما فعل صاحب المواهب وما كان يفعله الطاغية احمد مع ابيه آخر ايامه .

فبعد اصدار الدستور أحس يحيى بالخطر يتهدده من حوله فأرسل الى احمد ليحضر من تعز ويشد ازره امام العواصف المتجمعة فى صنعاء .

ولكن أحمد كان يعلم مايدبر لأبيه — بل يقال انه كان طرفا فى مؤامرة اغتياله — وكان ينتظر ذلك اليوم الذى يتخلص فيه الثوار من يحيى ليثب هو الى الحكم .

ولذلك فان الطاغية لم يخطىء طريقه بعد مقتل أبيه فاتجه الى صنعاء يظن ان الثورة قامت لصالحه فلما تأكد ان ابن الوزير قد نصب نفسه حول طريقه الى حجة .

لهذا لم يكن محل غرابة الثائرين فى سجن حجة ان يعامل بعض زملائهم فى الثورة معاملة رقيقة رفيقة فى السجن ثم لم يلبث ان اطلق سراحهم . حتى لقد أثارت هـذه العلاقة بين أحمد وبين هؤلاء الثائرين بعض الوساوس فى النفوس .

ولا يتسع مجال الحديث فى هذا الكتاب أن نحقق هذه الجوانب من ثورة ٩٤٨ فلعل الظروف تسعد ببحث خاص عن اسرة حميد الدين التى هى امتداد لأسرة القاسم بن محمد .

وكان يحيى يرمى أحمد بالعقوق وكان يتخوف على بقية أبنائه منـه لأنه كان يعلم مدى اطماعه وما تجيش به نفسه لذلك فقد قسم اليمن بين الأخوة قبل مقتله . وانتقل الاقطاع من أسرة القاسم وأصبح مقصورا على أبناء يحيى فاختص الحسن بلواء أب .

وأعطى الحديدة لعبد الله .

وكان من نصيب المطهر حوث وما اليها .

أما أحمد فقد ظفر بحجة ثم اغتصب لواء تعز دون رضى أبيه . وكان بينهما بسبب ذلك ما كان .

وغالب الظن ان هذه الوحشة كانت من أسباب تقاعس أحمد عن اجابة أبيه عندما استغاث به فى آخر ايامه وذلك على أحسن الظنون اذا استبعدنا اشتراكه فى التآمر عليه .

وترى أحمد يضرب ثورة ١٩٤٨ يغرى القبائل بخيرات صنعاء فتدخلها وتستبيح حرماتها بصورة لم يعرف لها مثيل فى التاريخ .

ويقبض على أخيه ابراهيم الذى كان قد خرج على ابيه وانضم الى الثوار فيقبض عليه ويسوقه الى سجن حجة ويوكل به من يسومه عذابا نفسيا وعذابا وحشيا . وكان آخر المطاف أن أرسل اليه يخيره بين ميتتين أن يقتل بالسيف او يقتل بالسم .

وكان ابراهيم قد تحطم بعد هذا الذى لاقاه فى سجنه فاختار القتل بالسم فدسوا له السم فى الغداء ومات !

وكان أحمد يتخوف من ان يتحرك يحيى شقيق ابراهيم للأخذ بالثأر وسلاح السم هذا سلاح خفى خطير لا يعرف من أين يأتى وكيف يقدم فسارع الى أخيه الآخر يحيى فدس له السم ولحق بابراهيم .

وكان الطاغية أحمد شريرا تطربه رؤية الدماء ويهزه منظر الضـحايا يتساقطون من حوله حتى أنه كان يثور فلا تهدأ ثورته الا اذا رأى دماء

تسيل فاذا ثار وأعجزته الظروف عن رؤية أحد صرعاه دخل الى حريمه فامتدت يده الى جارية أو زوجة فلطمها ليكسر احدى أسنانها وينظر الى الدماء تسيل من فمها فى سعادة غامرة .

وكان قد تلقى عن ابيه ان سلاح السم هذا سلاح قاس لا يرحم خفى لا ينطق وانه خير سلاح للخصوم الأقوياء وعندما تغلب على صنعاء بعد الثورة كان قائده الأكبر على بن حمود شرف الدين وتوقع أحمد ان الرجل لايؤمن جانبه وان انفراده بالحكم لا يحتمل مزاحمة قواد ولا كبير قواد لذلك فقد دبر للرجل فقتله بالسم كما قتل اخويه يحيى وابراهيم من قبل .

كل هذا يمكن أن يدفع القارىء الى الشفقة والالم والثورة والاستغراب جميعا . ولكن الأمر الذى يثير التقزز ويعتصر القلوب ألما واشفاقا ويطلق الدماء فى العروق ثورة وغضبا هو ما فعله الطاغية مع الزرانيق .

وما فعله مع الذين حاربوه فى معركة الصليل .

فبعد حرب الزرانيق التى استمرت عامين انتصر عليهم واستباح لجنوده كل شىء يخطر ببالك فى ديارهم . انتهب الأموال ثم جمعها فى بيت الفقيه واستباح النساء ثم جمع من سلم من القتل أسرى يساقون فى سلاسل الحديد واختار ٨٠٠ من أعيانهم واقتادهم الى سجن حجة . وهناك أراد ان يعمل فيه السيف بساحات المدينة دفعة واحدة . ولكن مشيرا عليه خوفه من أبيه اذ كان يحيى لايحب أن يقتل خصومه جهرة أبدا بل كان يلجأ الى الاغتيال بالسم والوقيعة .

فوكل أحمد بزعماء الزرانيق من يتعهدهم بالسم فلم يمض عام حتى أجهز على ثمانمائة مقاتل لم يبق منهم الا الشيخ سالم دوريش الذى التقى بثوار ٤٨ فى سجن حجة وكان يروى لهم ما صنعه الطاغية بالرجال .

وبعد حرب الصليل من بلاد الزيدية بتهامة ساق الفا وثلاثمائة مقاتل وكان مصيرهم كمصير الزرانيق .

قسوة تقشعر منها الأبدان وجرأة على الدماء تعف عنها وحوش الغاب .

وكانت شهوة القتل والتشفى فى نفس الرجل تدفعه الى التجرد من كل مظاهر الانسانية . فاذا أراد الفتك بانسان تحت يده مد له فى الأمل حتى يتوقع العفو ثم يفاجئه بتوقيع عقابه فيه .

حتى ان أخويه عبد الله والعباسى بعد ثورة ١٩٥٥ لم يتحرج عن التصرف معهما هذا التصرف .

ارسلا اليه يراجعانه ويطلبان عفوه واطلاق سراحهما من سجن حجة . فكان جوابه :

« أنتما لا تبقيان فى الحبس غير يوم أو يومين » .

وبعد يومين جاء اليهما أمر الطاغية لا بالافراج ولكن بالسيف والنطع .

وقد يظن ظان ان الرجل الذى يلجأ الى وسائل البطش هذه فيه بعض طيش ولكن أحمد كان بعيد الغـــور واســـع الحيلة اذا أراد أن يقضى على انسان .

وهذا ما فعله مع حسين بن ناصر الأحمر وابنه حميد بعد ان عاد من رحلة الاستشفاء والترف فى روما .

أخذ يصابر الرجلين ويداورهما ويشيع انه لا يريد بهما الا الخير وفى الوقت نفسه يخذل الانصار من حولهما ويثير حزازات وثارات بين حاشـــد عفى عليها الزمن . وذلك ليدفع أصحابهما الى خذلان حسين وابنه ويستدعى ولده البدر . ويسر اليه ان السياسة تقتضى تقريب القبائل واشار عليه ان يطلب اليه حسين بن الاحمر وولده حميدا وان يعطيهما « الوجه » والعهود والمواثيق وان يستبقيهما عنده فى القصر .

وقد أحس الرجلان فى النهاية بما يدبر لهما ولكن بعد ان استحال عليهما الخروج من قصر البدر .

وفى مدينة السخنة يستدعى الطاغية أحمد صهره أحمد عباس ويطلب اليه أن يأتيه برأس حميد وتعلق الرأس فى واجهة قصر الامام . ثم يطلب حسينا ليفاجأ برأس ابنه معلقة على واجهة القصر .

أى قسوة هذه . وأى وحشية . وأى تجرد من كل معانى الانسانية .

لتكن المبررات التى استند اليها الطاغية فى قتل حميد كما شاء ان تكون .

ولكن أى حجة يقف بها أمام الله هذا المتستر وراء مسوح الامامة عندما يفاجىء والدا برأس ولده على هذه الصورة .

وكان ما توقع . لم يستطع الشيخ ان يتجلد أمام رأس الشهيد فخذلته قدماه وأخذ يصيح ولدى ولدى . والوحش المسعور يتشفى ويتلذذ بهذا المنظر حتى اذا انطفأ بعض حقده نادى لصهره وامره ان يذهب بحسين ليقتل فى المكان الذى قتل فيه ولده وان يؤتى بالرأس ليعلق مقابلا لرأس حميد .

وقد يظن ظان ان هذا العمل الذى قام به أحمد عمل شاذ لا يقره عليه انسان .

ولكن انظر الى صدى الجريمة لدى أفراد الأسرة .

اتصل عبد الله بن الحسن تليفونيا بالبدر قائلا :

بشرى . ما هى هذه البشرى واذا بعبد الله يزف اليه أخبار الجريمة .

وكان المتوقع ان يغضب البدر للعهد الذى قطعه أو للايمان التى وثقها .
أو لقواعد الضيافة التى يحترمها كل عربى . ولكنه نظر الى جلسائه وقال :
الحمد لله أعدو العدة لليلة تتقارع فيها الكئوس .

ولم يكن شيوخ القبائل من أطراف اليمن ليظنوا أن الطاغية ستصل به الدناءة الى هذه الصورة .

فذهبوا اليه يتشفعون ويتوسلون .

ولكن الطاغية فاجأهم بان الامر قد انتهى ثم يعقب . هذا مثل .

واذا كانت وحشية الأب قد أطربت الابن وهزت اعطافه .

فان من الغريب أن يقف يحيى هذا الموقف من ابنه والعهد بالآباء يوجهون ويؤدبون وينصحون ليقف الأبناء عند حدود العقل وجادة الصواب .

كان أحمد وليا للعهد وأصدر أمرا لمدير المال أن يقدم له مبلغا كبيرا ورأى مدير المال أن يرجع الى يحيى قبل التنفيذ .

ورفض يحيى بما عهد فيه من بخل شديد .

فما كان من أحمد الا ان ذهب بليل الى منزل مدير المال ومعه بعض الاتباع يحملون « صفايح البنزين » وصبها على المنزل من أطرافه واشعل النيران فى المنزل ومن فيه .

واستمع يحيى الى الخبر فى سعادة وفخر ان وهبه الله خليفة بهذاالحزم أو بمعنى أصح بهذه الوحشية .

وكانت السجون فى عهد أحمد تغص بالأحرار تماما كما كانت فى عهد المهــدى .

وكان السجناء يصبحون فى كل يوم ليودعوا الدنيا فى انتظار السياف كما كان يفعل أحرار حجة بعد ثورة ١٩٤٨ .

وكان صاحب المواهب لا يقف عند حد من شهامة أو ضمير فى سبيل اطماعه .

دعا الحسن بن على بن أحمد بن القاسم لنفسه فى عام ١١٢١ واستقر آخيرا فى صعدة بعد حروب ومآسى دامية . وأصبح خطره لا يخشى منه صاحب المواهب .

ولما قام الحسين بن القاسم داعيا بعد ذلك بقليل تنازل صاحب صعدة عن دعوته وبايع الحسين فى عام ١١٢٤ هـ واشترك فى حرب المهدى معه .

واذا بصاحب المواهب يرسل اعوانه فدسوا للحسن بن على السم عند عودته الى صعدة . فسقطت أسنانه دفعة واحدة وفاض دما ثم فارق الحياة .

كل هذا الظلم الذى وقع على الشعب قد حرك الألسنة على ما هو فيه من هوان وفساد وبدأ ت الأسر الحاكمة وقد كثر عددها وامتدت اطماعها تلجأ الى القبائل تطلب منها العون والنصرة فتفككت أواصر العصابة التى كانت

ترهب الشعب وتغل حريته وامتدت ايدى زعماء القبائل الى المشاركة فى الغنائم وأخذ نصيبها من اقطاع البلاد وبدأ كل داعية لنفسه من أسرة القاسم يعدد مساوىء الحكم وفساد الدين وانحلال الأخلاق .

عندئذ خفت حدة الضغط على الأفكار والآراء فانفسح المجال الى آراء حرة تنبثق من بين الصفوف . وهنا نرى ثمرة هذا الظلم وهذا الاضطراب ظهور العالم الحر محمد بن اسماعيل الأمير .

بدأت الثورة تشتعل على صاحب المواهب عندما ذهب اليه الحسين بن القاسم يراجعه فى جزء من اقطاعيات أبيه كانت فى بلاد الروس وكان الحسين قد أظهر الزهد والورع والتقوى واشتهر ذلك عنه . أو هو نفسه عمل على ان ينشرها والشعب المسكين سرعان ما يصدق كل ما يقال أملا فى ان يتملك أمره مصلح يخلصه مما هو فيه .

والغريب أن الحسين يتعفف ويتحرج من أن يأكل من مال أبيه بحجة انه من اتباع صاحب المواهب ويعمل له .

والأب قد اقطعه صاحب المواهب كما اقطع غيره من الموالين والاتباع .

حتى اذا احس الحسين خطرا يتهدد جزءا يسيرا من اقطاعية أبيه سارع الى المواهب يراجع من أجلها .

وفى الحق أن الدلائل تشير الى أن الرجل كان يحدث نفسه بالامامة وكان ينتقل بين البلاد مجمعا للانصار عند اظهار دعوته .

ولم يحسن المهدى استقبال الحسين فأحس الرجل بالخوف وغلب على ظنه ان المهدى عرف ما يسعى اليه وانه آخذه بالظنون فخرج من المواهب بليل على قدميه حتى ردته أسوار صنعاء . وهنا التقى بجماعة من بيت القاسم منهم.

— زيد بن محمد بن الحسن العالم أستاذ ابن الأمير الذى كان المهدى لا يلقاه الا متسترا وراء زى العلماء ومتخفيا بين الكتب .

— يوسف بن المتوكل اسماعيل الذى نافس المهدى مرتين لا يتخلى عن أطماعه فى الامامة .

— محمد بن عبد الله بن الحسين العالم الذى اشتهر بغزارة العلم حتى لقب بالمفتى .

وتحدث الحسين مع صحبه على من يقوم بالدعوة فى وجه المهدى أما يوسف فقد تعلل بكبر السن .

واما صاحباه الآخران فقد زهد الأول ورأى الثانى ان الثمرة لم يحن قطافها بعد .

ولكن الجميع شجعوا الحسين على الدعوة فتلقفها من أفواههم وذهب الى مكة ليحج وطاف بالبلاد وعاد ليبدأ دعوته فى عام ١١٢٥ هـ .

ولتكن هذه فرصة أخرى لنأخذصورة عن صاحب المواهبوحكمه وما ارتكب فى حق هذا الشعب المسكين .

والصورة التى نقدمها اليك نقلا عن الوثيقة التاريخية التى دعا بها حسين لنفسه والذى تلقب بالمنصور فهى دعوة وجهت الى الشعب كافة وما تحمله من مساوىء الحكم أمر مسلم به ولا يتنازع عليه . فهو الأساس الذى يطلب المنصور من الخاصة والعامة أن يستجيبوا اليه وعلى أمل تغييره وعلى وعد لهم بأن يسير سيرة فى الشعب غير سيرة غريمه .

يقول الحسين :

(أما بعد : يا أمة الاجابة ويا أيها المخاطبون بأركان الاسلام وبالتوبة والانابة .

فانكم تعلمون ما قد اشتهر من الضلالة والمظالم وما قد انتهك لله سبحانه مما قد نهى عنه من المحارم . حتى لقد نبذت الشريعة الغراء واتخذت ظهريا . وعد كلام الله من القول اليقين قولا فريا وتعدى على الضعفاء بهتك أعراضهم واستئصال أموالهم وتشريدهم أشتاتا فى المفاوز لا يرثى لحالهم . ولويت الصدقات عن مصارفها الثمانية القرآنية . فأخذت أضعافا مضاعفة حتى لم يبق لأرباب الأموال من الأصل بقية .

وهجرت الواجبات فلا صلاة لأكثرهم تامة .

وصارت هذه المفاسد بقرى المسلمين وأمصارهم عامة وأصبح مال الله دولا ونهبا وبين الفساق وعباده خولا قد استبعدهم أهل العتور والشقاق

والفقراء باستبداد من لانصيب له فيها فى فاقة شـديدة ، والأيتـام والأرامل فى بلايا من الاحتياج عديدة . قد حرموا جميع مايستحقونه . بل صودروا بأخذ ما يملكونه .

وعطلت الأحكام والحدود الشرعية وارتكبت جميع المآثم ويالها من مصيبة على الاسلام ورزية وتهالك فى اغتصاب الأموال وتضييع الشرائع من الراعى والرعية) الخ .

ومع كل هذا الذى قيل فان الصورة لم تكتمل بعد عن المهدى صاحب المواهب ولكننا نحرص أن نعطى جانبا هاما عن هذا الرجل . فقد كان متقلبا لا يثبت على حال ولعله كان مصابا بضعف الشخصية والشذوذ مثلما كان الطاغية أحمد تماما .

تلقب أولا بالامام الناصر لدين الله ثم الامام الهادى ثم تلقب أخيرا بالامام المهدى .

وفى عام ١١٠٣ أمر بعمارة مدينة الخضراء على نحو ميـل من رادع وأنفق على بنائها الأموال الطائلـة وما زالت آثار البحيرة التى تفنن فى تشييدها بهذه المدينة . ثم لم يلبث أن هجرها للخراب وعمر مدينة أخرى التى اشتهر بها وهى مدينة المواهب على ثلاثة أميال من ذمار فى عام ١١١١هـ

ولا نستطيع فى هذا البحث أن نتتبع الحرب بين المنصور وبين المهدى ولكننا نستطيع أن نقول بأن مئات القرى قدنهبت وأن الحرمات قد انتهكت وان مئات الآلاف من الشعب قد سقطوا صرعى شهوة الحكم بين هؤلاء الطامعين ولم يدع المتنافسـون وسيلة شريفة أو دنيئة الا لجأ اليها الجانبان .

وكان السم والاغتيال من الوسائل المشروعة . وكانت الرشاوى تحول القواد والأنصار من معسكر الى معسكر دون خجل حتى أن زيد بن على

ابن القاسم — وهو ابن أخى الحسين — قاد جيش عمه وانتصر به نصرا حاسما ولكنه وهو فى قمة انتصاره يتناول من صاحب المواهب كميـــة من الذهب تجعله ينقلب على عمه يؤلب عليه ويخذل الناس من حوله .

وهاهو القاسم بن الحسين بن أحمد — وهو ابن أخى المهدى — وكان مسجونا فى المواهب وتلفت المهدى من حوله فلم ير لهذه الثورة من قائد سوى ابن أخيه فيخرجه من السجن .

ولما كان القاسم نهازا للفرص فلم يترك هذه الفرصة تفلت من يديه ضمانا للموقف القريب وللمستقبل البعيد .

وتراه يشترط على عمه عدة شروط :

كان يحس بالخطر من أولاد المهدى فاشترط اخراجهـم من الولايات وابعادهم عن أداة الحكم .

— كان يريد لنفسه مركزا يستند عليه عند الدعوة لنفسه مستقبلا فطلب ولاية صنعاء وما اليها وبلاد عمران وكوكبان والمغارب اقطاعا ينفـرد به كما طلب حصون اليمن كلها اليه فى تصريف أمورها .

— ثم يعطى من السلاح والخيل ما يريد .

ولم يكن أمام المهدى من سبيل الا أن يسلم له بما طلب .

ثم انطلق القاسم بجموعه ليدوخ أعداء عمه . ولكنـه عـرف بعين البصير مدى الثورة التى تجمعت فى النفوس على عمه . ثم ان آثار الغدر والسجن مازالا يؤثران فى نفسه ثم ان الرجل فى المواهب قد كبر وخرف وأصبح الخير فى ركابه غير دائم وان جانبه لايطمأن اليه .

ثم هو قد استولى منه على غاية مايطمع اليه . وأخيرا فالأمل العريض عند خصومه أيسر فى تحققـه من التزام جانبه لذلك لم يلبث أن اتصـل بالحسين واجتمع به ودبرت المؤامرة وارتد القاسم يقود الجيوش على عمه ويحاصر المواهب حتى يضطر صاحبها الى التنازل عن الملك ومبايعة المنصور حسين فى عام ١١٢٧ هـ وعلى شروط اشترطها صاحب المواهب لنفسه .

ولا بد قبل أن نودع هذه الفترة القاسية من حياة الشعب اليمنى من أن نعطى صورة مبسطة يعرف منها القارىء مدى بشاعة الحرب فى هذه المحنة وما أصاب البلاد من جرائها من تخريب .

ضاق الأمر على صاحب المواهب حتى لم يبق تحت يده الا بعض تهامة والبنادر ومن ذمار الى اليمن الأسفل . فاذا به يلجأ الى النوبة ويطلب السودان من كل بندر ويلبسهم الطرابيش الحمر والجوخ الأحمر فاجتمع منهم خلق لا يحصى كثرة والزمهم بوضع السيف من باب شبام الى أطراف الشام بجهات صعدة .

وكانت الجيوش لاتمر بقرية أو مدينة الا خربتها وأتت على مافيها حتى ودع البلاد أهلوها وارتحلوا عن اليمن يطلبون النجاة .

واذا حاصروا مدينة (غلت الأسعار (١) وانقطعت الميرة وعز الحطب فيضطرون الى خراب البيوت وايقاد أخشابها وأبوابها) .

وأخيرا انتزع القاسم قائد الجيوش من المهدى تنازله عن العرش للمنصور الحسين بن القاسم فى شوال عام ١١٢٧ هـ .

وهذه بعض فقرات من وثيقة التنازل التى وقعها المهدى وكتبها بلفظه وخطه :

(فانه لما اتصل الحرب بيننا وبين محاط الولد الأغر علم الاسلام القاسم بن الحسين على ما دعا اليه الولد الأفضل شرف الاسلام والدين المنصور بالله رب العالمين الحسين بن القاسم بن المؤيد حيث أجاب دعوته آهل اليمن ..)

ويذكر الوساطة بين الجانبين فى الصلح على شروط اشترطها هو لنفسه ثم يقول :

---

(١) نشر العرف لزبارة

(فرجح عندنا وعند ذوى الدين أن نحقن دما ءالمسلمين ونسعى فى جمع كلمة المؤمنين ونخمد نيران الفتن التى كادت أن تهلك سكان اليمن بالبيعة والموالاة الصريحة للسيد العلامة المنصور ..)

أرأيت الى أن أطراف القوة جميعها كانت فى يدى القاسم وانالحسين لم يكن يملك من أمر البيعة الا اسمها .

ثم أرأيت الى أن الدين مفترى عليه فى هذه الحرب الوحشية وان اليمن المسكين الذى كاد يهلك والذى يتباكى عليه المهدى فى آخر أيامه بالدنيا وبالملك . ومن قبل كان يجند عليه النوبة والسودان ويأمرهم بأن يضعوا السيف فى الرقاب من باب شبام الى أطراف الشام وهذا الأمر يوجه من امام يتكلم باسم الدين الى (قوم لا يفهمون الكلام) (١) .

أرأيت الى أن الفتن وحقن دماء المسلمين لم يلتفت اليهما الا بعد أن أكلت الحروب الأخضر واليابس والا بعد أن غطت دماء المسلمين سفوح الجبال وسالت بها الوديان .

أرأيت الى أن المهدى والقاسم لم يلتفتيا فى عهدهما الى اليتامى والأرامل والمشردين وانما كل ما حرص عليه كل منهما أن يضمن لنفسه بعض الاقطاعيات فيشترطها المهدى على القاسم ويشترطها القاسم على المنصور ولتذهب الدماء وكل شيء الى الجحيم .

وقد اشترط صاحب المواهب لنفسه بلاد خيان وبلاد ريمة وبيت الفقيه .

كما اشترط القاسم بندر عدن والمخا ولحج وحبيس وصنعاء وبلادها واللحية والزيدية وأبى عريش وحجة وكحلان وعفار والشرفين والسودة .

وصار الى محمد بن اسحق واخوته بلاد وصاب وتعز والعدين وشرعب ومغارب ذمار .

---

(١) حرصنا على نقل بعض تعبيرات المؤرخين دون ان نحدد مواضعها بالنسبة للجيوش التى جندها المهدى من سلالات الجيش الحبشى الذى غزا اليمن قبل الاسلام من بقايا جيوش دولة بنى نجاح .

والى محمد بن الحسين بن عبد القادر بلاد كوكبان جميعها .

ثم بعد هذا كان التفويض فى جميع البلاد للقاسم أين الامام المنصور الذى تصبوه على العرش من كل ذلك ؟! كان له مجرد النظر فيها .

وأين اليمن العظيم ذو الحضارة الخالدة .

وأين الدولة .

وأين نظام الحكم ووحدة الشعب ؟

يجيب على ذلك ابن الأمير بقوله الذى نقلناه اليك قبل قليل :

مزقتم شمل هذا القطر بينكم   كل له قطعة قفر وعمران

ويلاحظ أن أبناء اسحق لم يظهروا على مسرح السياسة بصورة واضحة الا بعد تنازل عمهم صاحب المواهب . فقد اكتفوا فى عهد المهدى الى الخلود الى الراحة فى ظل المواهب وصاحب المواهب .

وسنرى بعد قليل أن تحرك الأطماع ستحرك الرجال ويظهر بنواسحق فى حياة الدولة وحياة محمد بن اسماعيل الأمير بصورة واضحة .

(٦)

هل رأيت الى هذا الشقاء الذى شمل الشعب كله فى ظل المهدى وبعد أن تقشع ظله عن البلاد .

وهل رأيت القسوة القاسية التى كانت تلجأ اليها هذه العصابة — على حد تعبير ابن الأمير -- دون أن يأخذها فى اليمن واليمنيين رحمة أو وازع من ضمير أو أن يتحرك فى أفئدتها نبض يشفق أو دم يرحم .

ومع كل هذا فقد انطلق الدعاة فى حياة هذا الطاغية يقيسون الأدلة المضللة على صحة امامته فالجن من جنوده والملائكة تكلمه وتبشر الأمة بامامته أى وحق الأمانة فى أعناقنا ننقل للقارىء صورة أمينة لما كان يفعل بآبائه .

وان كان هناك بارقة من شك فليستمع من يريد أن يعجب أو من يحب أن يضيف عجبا الى عجب الى ما يقوله القبوى صاحب منظومة عقد الجوهر الذى أكدها صاحب نفحات العنبر :

(واما المبشرات بامامة الناصر فمنها مارواه والده الامام المهدى أحمد ابن الحسن بن القاسم بن محمد — رحمه الله — انه روى فى بعض الأيام أنه اجتمع عنده فى مكان عظيم آل القاسم فلم يشعر الا وقد أشرف عليه نفران من جانب المكان فى صورة حسنة .

فقال لهما : من أنتما ؟

فلم يجيبا بشىء فكرر عليهما مرارا ، فحصل فى فكرته أنهما جبرائيل وعزرائيل وقال فى نفسه :

« قد أتى جبريل مبشرا وعزرائيل لقبض الروح » .

فالتفت اليهما وقال :

من اختاره الله تعالى للأمة بعدى .

فقالا له :

القائم الناصر الخوات من شهدت له الملائك بالعالى من الدرج .

قال وكان الى جانبه الامام المؤيد بالله محمد بن المتوكل فقال :

هذا وأشار اليه .

فأعادا له البيت المذكور .

فقال : هذا وأشار الى ولده الحسين بن المهدى .

فأعادا له البيت .

فأشار الى ولده الناصر محمد بن أحمد .

فقالا : نعم) .

فهل كان الرجلان اللذان رآهما المهدى من مردة الجن جاءا يبشران بنصير أمين لهما من بيت القاسم .

أم أن الرجل رأى فى ابنه محمد مخايل القدرة على حفظ ملكه وملك آبائه فأراد أن يضيف الى ميراثه اليه تلك القصة المفتعلة تعينه على ما هو مقبل عليه .

أم أن الرجل لم ير ولم يرو وانما هى فرية افتراها عليه صغار النفوس الذين لا يأكلون العيش الا من بين أقدام الملوك .

مهما يكن من شىء فان ملائكة السماء أجل قدرا فى نفس كل مسلم وأكـــرم على الله وأعلى من أن يزفوا الى الأمة هــذه البشرى التى انقلبت على الناس شرا مستطيرا .

الفصـــل الـــرابـــع

من القـــاسم الرهيب الى العباس الجشــــع

(١)

كان القاسم يعد العدة للوثوب على الحكم منذ فترة طويلة وقد جمع له من الأعوان فى بلاط عمه المهدى ما يستطيع به أن يتمكن من هدفه عندما تتاح له الفرصة .

وقد انضم اليه فى آخر الأمر من بـلاط المواهب الوزيران صـالح الحريبى ومحسن بن على الحبيشى .

وكانت ثقة المهدى بالحريبى قد تدعمت منذ حصاره فى المنصورة اذ بذل الحريبى له من العون فى التغلب على أعدائه الشىء الكثير فحفظها له وكانت سببا فى علو مكانته واستئثاره بأكثر بلاد اليمن الأسفل اقطاعا يتصرف فيه كيف شاء .

وقد وثق القاسم صلته بالوزيرين الخطيرين اذ كانا على شاكلته دهاء وسعة حيلة وقسوة على العباد .

وكان يعلم حق العلم أن الخطر كل الخطر فى أبناء صاحب المواهب وكان أبناء الامام يعلمون أيضا أن الخطر كل الخطـر فى القاسـم وفى الوزيرين جميعا .

وما زال السباق بين الفريقين ردحا من الزمن حتى تغلب جانب القاسم وصاحبيه فى حبس المحسن بن المهدى الى أن مات فى ذمار وتفريق بقيـة

اخوته على الولايات لابعادهم عن بلاط أبيهم وليخلو الجو لتلك العصابة تلقى فى ذهن الرجل الذى كبر وخـرف ماشـاءت لها أطماعهـا من آراء واتجاهات .

ساعدها على ذلك أن صاحب المواهب نفسه كان لا يرعى حرمة لبنوة ولا يعرف من أعوانه الا من هو على شاكلته قسوة واندفاعا الى مدن اليمن وقراه وبين قبائله تخريبا وتمزيقا .

وكان امام القاسم بعد التخلص من أبناء عمه رجل خطير له أنصـار ويقود جيشا قبليا يتعصب له ويأتمر بأمره وهو صالح بن حبيش .

وقد علمنا أن صاحب المواهب كان يؤثر صالحا هذا ايما ايثار وكان يعطيه من الحوالات على الفقراء والمساكين مالا يدخل تحت حصر . وكان الرجل ينطلق بتلك الحوالات يجمع بها ويزيد عليها ما يدخل فى قدرته نهبا وسلبا وتخريبا .

وقد انتهى الأمر بصالح أن اغتاله القاسم بواسطة خـدمه وعبيـده فاستدعاه الى خيمته وفصله عن أعوانه الذين حضروا معه فى خيمة منفصلة واحتزوا رأسه ثم انقلبوا على أعـوانه يسوقونهم فى سلاسل الحديد وقد شدت الى رقابهم .

لم يكن يظن بصالح أن ينافس القاسم فى ملك أو يزاحمه على الامامة ولكن الرجل كان بعيد النظر يحسب لغده ألف حساب فالظلم الذى وقـع على الشعب فى هذا العهد قد حرك الألسنة ، والطامعون فى الامامة قـد أججوا نيران الثورة فى نفوس الشعب وأصبح جانب القبائل خطيرا غير مأمون . فكل من يتطلع الى الامامة يحسب لهذه التيارات ألف حساب . ثم هو ان وصل الى هدفه سيجلس على فوهة بركان يوشك أن ينفجر به فلا شك أن هذه القوى لها مطامع وتنتظر بعد النصر مغانم كثيرة . والشـعب يترقب تغييرا واصلاحا والقاسم لا يؤمن باصلاح ولا يعمل هذه السنين الطوال ليشاركه فى ملكه مشارك وينازعه فى سلطته انسان مهما كان .

ثم ان هذا الداهية الكبير كان قد صرف همه منذ شبابه فى تجميع السلطة وخدمة عمه فلم يجمع من المعرفة قليلا ولا كثيرا فأحس ناحية النقص هذه بعد فوات وقت الطلب وتحصيل العلم .

فلا بد اذن من أن يتحايل على الأمر حتى :

— يتخلص من أخطر معاونيه حتى لا يدل عليه وقد قرب النصر .

— يمتص السخط الشعبى بان يدفع ضحية تصدرت واجهة للظلم فترة من الزمن ويظهر هو الحريص على مصالح الشعب المدافع عن ضعاف الناس

لهذا تخلص من ابن حبيش القوة الضاربة فى يد المهدى وعنوان البطش فترة من الوقت فى عهده .

وما أن تمت للقاسم هذه الخطوة . وما أن تخلص من أخطر أبناء المهدى وشتت بقية الأبناء فى البلاد وأفقدهم الثقة فى أبيهم وأفقد أباهم الثقة فيهم .

ما أن فعل هذا حتى أخذ ينفض عن ثيابه أوزار الحكم التى لصقت به وبأعوان عمه المهدى والتقى بالثائرين الساخطين والطامعين فى الشمال وسرعان ما استطاع أن يتلفع بقميص عثمان ويبكى مع الباكين على الظلم والمظلومين .

ولا ندرى ماذا دهى القوم حتى عرضوا عليه الامامة .

ترى هل يسارع القاسم الى قبولها .

كان أبعد نظرا من أن يترامى عليها بهذه السرعة فالخطة لم تكتمل بعد ومازال الأمر يحتاج الى كثير من التمهيد .

لذلك فقد تظاهر بالتعفف واعتذر عن قبول الأمامة (١) (لأنه لم يكن فى العلم مستوفيا للاجتهاد محيطا بما يحتاج اليه فى الاصدار والايراد بل أمرهم بسبايعة الحسين بن القاسم بن المؤيد صاحب شهارة) .

---

(١) الشوكانى فى البدر الطالع .

واجتمع بالحسين يومين وسرعان ما علم المهدى بطريق أو بآخر بهذا الاجتماع وبما كان من القاسم فلم يلبث أن أمر بحبس القاسم .

وكان هذا الحبس فرصة أخرى ليغسل عن القاسم ادران الماضى المثقل بكل أنواع الجنايات .

فلما اضطرب الأمر على المهدى وأرسل ابنه ابراهيم ليقاوم الفتنة من صنعاء اشترط لهذا أن ينتقل القاسم من صنعاء الى ذمار فقد كان القاسم خطيرا فى سجنه كما كان خطيرا وهو حر طليق .

ويعلم الله من الذى أشار على ابراهيم بهذا الرأى فقد قرب القاسم بهذه النقلة من صاحبيه الحريبى والحبيشى يتبادلون الرأى ويدبرون أمرهم ويعدون له عدته فما أن وجدوا فى ابراهيم ضعفا فى مهمتــه حتى أشــار الوزيران على الامام أن الأمر لا يصلح الا باطلاق القاسم واطلاق يده فى القبائل ومن يؤلبونهم عليه .

وكان الذى علمت من خروج القاسم بالغنائم التى اشترطها لنفسه ثم لم يلبث أن عاد مع الثائرين محاصرا لعمه حتى انتزع الملك منه للحسين بن القاسم كمرحلة مؤقتة لها ما بعدها .

وما بعدها قوى ثلاثة عليه أن يتخلص منها وبكل دهاء وحزم .

-- المنصور حسين الذى بويع بالامامة والذى صدره القاسم كمرحلة يمتص فيها سخط الساخطين وكواجهة يتستر وراءها القاسم الى حين .

وقد كان الرجل بارعا ايما براعة فى اختيار الحسين لهذا الدور فانه اختار رجلا لا يعرف مناورات السياسة ولا ألاعيب الحكام • ثم ان الموقف كان أكبر منه وأشد تعقيدا وكان أعجز من أن يسير دفة الحكم فى هــذا البحر المتلاطم بالأمواج والمتناقضات •

ـــ أبناء اسحق الذين برزوا بعد المواهب قوة تتجمع للوثوب على الحــكم وقد نالت حظها من الغنيمة وطمعت أن تضيف الى ما أصــابت تلك الاقطاعيات التى خلصت لعمهم صاحب المواهب بعد أن غلب على أمره .

- المتطلعون الى الامامة من أمثال محمد بن الحسين بن عبد القادر المتربص من كوكبان ومحمد بن عبدالله بن الحسين الملقب بالمفتى وغيرهما من الذين تحدثوا عن الظلم فأطالوا الحديث وهاجموا الفساد فاتقنوا الهجوم عليه وعلى صانعيه .

ولما كان القاسم هو الذى قاد الجيوش الظافرة فانه لم يدع السلطة تفلت من يديه ولم يخلص للحسين من الامامة الا اسمها فقط أو « النظر » كما يقول المؤرخون .

ولكن انى للشعب أن يدرك توزيع الاختصاصات بين الرجلين فقد عرف الناس الامام صاحب السلطة الدينية والدنيوية لذلك فان القاسم كان يتصرف وكان المنصور يجني الشوك ولم يترك له صاحبه من خيرات البلاد ما يسد به تلك الأفواه الطامعة الظامئة بعد فتنة طحنت البلاد وأكلت الأخضر واليابس .

فلم يلبث أن اضطر المنصور الى التحايل على توفير المال وكان مما لجأ اليه فتح دار سك النقود (دار الضرب) فى شهارة ولما لم تف بحاجته فتح أخرى فى كوكبان ومن هنا ارتفع « الصرف » (١) وارتفعت ألسنة الناس بالشكوى من حالة التضخم التى صاحبت هذا الاجراء .

وكانت دور الضرب هذه مصدرا لابتزاز أموال الناس وكان مما أخذ على صاحب المواهب تغيير العملة فى كل عام عدة مرات بل لقد سمع ابن الأمير أنه غيرها ثلاث مرات فى شهر واحد . وفى كل مرة يزيد وزن القطعة أو ينقص وفى كل نقص أو زيادة قرارات بابطال القديم والأخذ بالجديد وفى كل من هذه القرارات يخسر الشعب ما لديه من أموال ويستفيد الملك .

وبجوار هذا الذى صنعه القاسم بالمنصور التفت الى الاقطاعيات التى للمهدى ولأبناء أخيه اسحق فقد رأى ألا يتمكن أبناء المهدى وأبناء اسحق من اليمن الأسفل مرة أخرى .

---

(١) الفكة .

فهذه المنطقة هى التى جمع منها المهدى من الأموال مالا يخطر لعاقل ببال وهى التى مكنته من أن ينتزع الملك من أبناء القاسم وأبناء شرف الدين ثم ان هذه الاقطاعيات تتوسط هذه المملكة الكبيرة التى ظفر بها القاسم فلا يمكن أن يطمئن الرجل لنفوذه وهو يقلب جنبيه على جمر يشعله حقد أبناء عمه المهدى واسحق .

وبدأ القاسم أولا فى مراجعة المنصور أن يغدر بالمهدى فى بعض الاقطاعيات التى اشترطت له مثل ريمة وبيت الفقيه ، وهنا يتدخل محمد بن اسحق ويتوسط بين الامام المخلوع وبين الامام الموضوع ولكن الأخير كان مترددا ضعيفا لا يملك من أمره شيئا ، ورأى القاسم أن يعالج الأمر جملة فيتخلص من المهدى وأبناء اسحق بعد أن رأى جانبهم يميل عنه الى غيره كأن الحسرة تؤجج أفئدتهم لما انتقل الأمر الى أحد أبناء عمومتهم وهم — فى ظنهم — أحق به منه .

وراود الأمل المنصور واستجاب للقاسم لعل هذه الاقطاعيات تخلص اليه . ووافق صاحبه على ما رأى فلما وجه الأمر الى محمد بن اسحق ليرفع يده عن ريمة وبيت الفقيه اذا بعمال القاسم تستولى عليهما « وكانت الغنيمة الباردة » (1) .

وأحس المنصور بالخطر يتهدده فجمع من حوله أبناء اسحق وعاد الأمر بينهم وبين القاسم الى صراع دموى جديد .

ومن الطبيعى والأمر ما زال على هذا الاضطراب والاختلاف فان أصحاب الاقطاعيات انكبوا عليها ينهكونها حلبا وادرارا ويسابقون الزمن فيما يجمعون قبل أن يعدو عليهم ما عدا على المهدى وأبناء أخيه .

وفى الوقت نفسه يعجز المنصور أن يقدم لأتباعه الذين ساندوه أعواما طوالا ما كانوا يتطلعون اليه من خير فى ركابه .

---

(1) نفحات العنبر

ومن الطبيعى أن تنطلق ألسنة بالنقد من جديد راغبة فى الاصلاح وأن تنطلق ألسنة أقوى منها نقدا وأشد هجوما راغبة فى الملك .

وعندئذ يرى القاسم أن الثمرة قد حان قطافها وأن الوقت قد تهيأ ليلقى بتبعة الفساد الذى حل بالبلاد على المنصور وأصحابه ثم يكشف عن وجهه وأطماعه فى الملك .

فيدعو اليه :

— الحسن بن محمد بن المتوكل قاضى قضاة القاسم فيما بعد .

— أحمد بن عبد الرحمن الشامى متولى القضاء الأكبر بصنعاء للقاسم .

— محمد بن عبد الله بن الحسين بن القاسم الملقب بالمفتى .

ويرسلهم الى المنصور طالبا منه أن يرفع أيدى أبناء اسحق عن جميع الأمور حتى تستقيم الأحوال وتصلح أداة الحكم .

ولم يوافق المنصور على هذا الطلب لأنه قد تأكد أن القاسم لا يهدف الى اصلاح الحكم وانما يهدف الى اضعافه وتفريق أعوانه وهذا ما توقعه القاسم . فما كان اختياره لهؤلاء الثلاثة الا اشهادا للشعب بأنه يريد الاصلاح ولكن أصحاب الأمر لا يتركون له طريقا الى الاصلاح .

يقول صاحب نفحات العنبر (وأراد المولى العلم ــ القاسم ــ اقامة الحجة بهم عليه) .

عندئذ يجمع القاسم من حوله الطامعين والمصلحين جميعا :

(وجمع (١) الأعيان اليه وقال :

أنا سيف من أجمعتم عليه .

ووجه الخطاب الى المولى يوسف بن المتوكل على الله اسماعيل وقال :

أنت المرجع عند المشكل .

---

(١) نفحات العنبر

فقـــال :

اذا قد رأى الصنو (١) محمـــد بن عبد الله والولد محسن بن المؤيد والأعيان من العلماء بقصور المنصور الموجب لخلعه فنحن بهم مقتدون واما أنا فلا طاقة لى بهذا الأمر العظيم (٢) وقد مضى زمن الاســتحقاق لى فى العصر القديم وانما الصنو محمد بن عبد الله أهل لذلك .

فقال المولى محمد بن عبد الله :

أنا أتحمل هذا الأمر اذا كنتم له عونا وظهيرا .

فرجح المولى العلم — القاسم — تأخير الخوض الى غد ذلك اليوم .

ولما حضر الأعيان فى اليوم الآخر قال المولى محسن بن المؤيد :

لا نرضى غير العلم اماما . فهو الأنهض والأقوى على المسلمين ثم أرسل يده فبايعه واقتدى به من حضر وذلك فى ذى القعدة سنة ١١٢٨ هـ) .

(فوقع التجهيز للجيوش من الجهتين (٣) وحصلت بينهم معارك وحروب يطول شرحها ولم يبق تحت يد « المنصور » وفى حوزته من البلاد الا مخلاف شهارة وكحلان والسودة والشرفين .

ثم تنكرت عليه قلوب القبائل ومالت عنه لذهاب ما فى يده من الأموال ولم يزل كذلك حتى توفى) .

أرأيت كيف أدار القاسم دفة الاجتماع الأول حتى استطاع أن يحصل على قرار بخلع المنصور ثم لما أحس بالموقف يوشـــك أن يفلت من يديه الى محمد بن عبد الله فض الاجتماع وأجل الجلسة الى اليوم التـــالى حتى يدبر أمره مع محسن بن المؤيد فيصبح القـــوم وقد وجـــدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع .

---

(١) الأخ .

(٢) هى أساليب التمنع المعروفة والرجل سيدعو لنفسه بعد ذلك ولولا ، اطماعه لما كان أول اقتراح له هو خلع المنصور وقد توقع من الجماعة ان يلحوا عليه فى قبول الامامة .

القاسم والمنصور .

وهذه الحركة البارعة التى قام بها القاسم لم تكن سوى اعلان للأمر الواقع . فهو الذى يملك القوة الفعلية وهو الذى يسيطر على أهم سلطات الدولة وأهم الاقطاعيات وهو المتصرف فى كل شىء ولم يكن للمنصور سوى النظر كما يقول المؤرخون لهذه الحوادث .

ولكن الفائدة الكبرى التى جناها القاسم هو أنه أسكت أفواها طامعة كانت تتطلع الى الامامة فأوقع بها فى هذا الاجتماع حتى يخلص منها ومن أطماعها ولو الى حين .

وفى الوقت نفسه لم يتح لبنى اسحق الفرصة التى كانوا ينتظرونها ولم يترك لهم الزمن الكافى الذى يمكنهم من الأعداد للدعوة والحصول على ما تتطلبه الدعوة من أموال وأنصار وسلاح .

وقد بهت القوم من تلك المفاجأة فلم يكن فى تقديرهم أنهم سيواجهون القاسم فى هذا الوقت المبكر ، كل ما شغلوا به حينئذ هو اعداد العدة لمقاومة سلطته والحد من نفوذه عن طريق تقوية المنصور .

وكان جانب المنصور مأمونا والاطاحة به ميسرة فى أى وقت تتجمع لديهم أسباب الوثوب على الحكم .

فلما سارع القاسم باعلان خلع المنصور والدعوة الى نفسه حارب بنو اسحاق بجوار صاحبهم حربا عشوائية دون احكام أو خطة موحدة .

بعضهم مع المنصور فى الشمال والحسن بن اسحق فى الجنوب بتعز وأغروا صاحب المواهب أن يعدل عن تنازله السابق .

ولم يلبث القاسم بعد حروب سريعة قاسية أن يجبر صاحب المواهب على أن يعيد تنازله مرة أخرى . وهزم الحسن بن اسحق وسيق أسيرا الى صنعاء وانكمش المنصور الى عدة بلاد ينتقل بينها « شهارة وكحلان والسودة والشرفين » حتى تنكرت له قلوب القبائل ومالت عنه لذهاب ما فى يديه من الأموال) . وما زال على تلك الحال حتى مات عام ١١٣١ هـ حيث قام من

بعده أخوه الحسن يدعو لنفسه مرتين . صالحه المتوكل فى الأولى مقابل بلاد آصاب واستمر فى الثانية حتى مات فى عام ١١٥٦ هـ .

ولما رأى بنو اسحق أن الموقف أفلت من أيديهم سارع محمد بن اسحق الى المتوكل فاشترط لنفسه بعض الغنائم وأقام فى صنعاء فى ظل هذا الكسب ويعد هو وأخوته ليوم قريب أو بعيد .

(٢)

وبعد عامين من دعوة القاسم الذى تلقب بالمتوكل وبعد هذا الصراع وتلك الحروب التى دارت رحاها بينه وبين خصومه ابتداء من المهدى الى المنصور الى أسرة اسحق بدا ينظر الى ثمرات الملك ليعوض على خزانته ما أنفقه فى أيامه الخوالى .

هذا مع التجاوز عن الفكرة بأن يكون القاسم قد أنفق من خزائنه شيئا فمثل القاسم لا ينفق فى الحروب وانما يكسب ويجمع ويملأ خزائنه منها والا فلم تنهب القرى وتخرب المدن وتستصفى الأموال .

ومهما يكن من أمر فقد تذكر القاسم صديقيه القديمين صالح الحريبى ومحسن الحبيشى فى عام ١١٣٠ بعد أن استبعدهما من حياته فترة عامين فقربهما واستوزر صالحا ومن ورائه محسن .

واستغل الرجلان دهاءهما وقسوتهما وتكالبهما على استعادة نفوذهما عند المتوكل القاسم فاستجارت منهما البلاد والعباد .

وليتصور القارىء كيف يكون رد الفعل والشعور العام بعد هذه الثورات والدعوات والحروب ثم يعود الأمر باليمن الى عهد صاحب المواهب بكل ما فيه من قسوة وفساد .

غير أن صاحب المواهب كان قد كبر وخرف وضعف عن أن تمتد يده الى الحكم بالصورة التى بدا بها هذا الحكم .

أما هنا فى أيام القاسم فقد تصدى للناس رجل يعرف أين يضع يده ويحسن تصريف الأمر كله على ما يرسمه دهاؤه وتؤهله قوته .

لم يكن هاتف من الجن يأتيه بليل يقول له اقتل فلانا أو انهب مال فلان وانما كان تدبيره وخبرته وأطماعه ومعرفته بجميع المعسكرات التى تعمل من حوله هى التى تضع له الخطة وتدفعها الى هؤلاء المردة من الوزراء لينفذوها بكل قسوة واحكام .

ويضج الشعب بالشكوى من جديد ويبلغ التذمر غايته فى عام ١١٣٢هـ ويشترك فى هذه الحركة بنو اسحق فيجمعهم المتوكل فى السجن وعلى رأسهم محمد بن اسحق .

فى هذه الفترة فكر المتوكل فى موضوع شغله طويلا وأحس بخطورته على مستقبل الملك له ولأولاده .

ونعنى به تلك الاقطاعيات التى مزقت البلاد بين الخصوم والأنصار جميعا وأفقدت الملك سلطانه الا على بعض الاقطاعيات مثل بقية الاتباع . وليس له بعد ذلك الا صنعاء وما حولها والا الدعاء فى الخطبة والنذور التى تجمع اليه التماسا للبركة من شعب مطارد برهبة هؤلاء المشعوذين .

حتى الزكاة كان أصحاب الاقطاعيات يتولون جمعها بأنفسهم وأعطى لهم حق توزيعها على الفقراء من حولهم ويعلم الله أنهم كانوا يكلفون الفقراء فوق ما يطيقون وكان أصحاب الاقطاعيات الذين يعطون حق تحصيل الزكاة والتصرف فيها يسمون « الاجبار » .

ففكر المتوكل القاسم أن يصير الحق له حتى يحد من سلطان أصحاب الاقطاعيات وحتى يجمع ما يعوضه عن انفاقات الحروب التى خاضها وحتى يمد نفوذه الى تلك المناطق التى كانت مغلقة عليه وعلى وزرائه .

ولو أن القاسم عمم بهذا القانون جميع الاجبار لكان الأمر محتملا ومقبولا ولكنه أعفى خاصته وأتباعه وأبقاهم على ما هم عليه واختص هؤلاء الذين يخشى منهم ويتربصون به .

وليت الأمر اقتصر على هـذا التفريق ولكنه اختـار الى تنفيذ رغبته واحدا ممن اشتهروا بالقسوة والتجبر واحدا من عامة الشعب ليتسلط على السادة .

وكانت كارثة لا يحتمل وقعها بالنسبة لهؤلاء المتـألهين الذين ينظرون الى عامة الشعب من عليين . كان القرار وطريقة تنفيذه قاسيا ومذلا للسادة من بيت القاسم وغيرهم .

فهب أنهم سلموا باعادة الزكاة الى القاسم فكيف ترضى لهم مكانتهم أن يجمعها منهم رجل من عامة الشعب مثل الشجنى .

وانطلق الشجنى بكل ما عرف عنه من تجبر وراء هؤلاء السادة يطالبهم بالزكاة فى سطوة وتعـال وفى الوقت نفسه يمـد يده الى الشعب المرهق المسكين ينتزع له ولمن حـوله من الجنود وللقـاسم أيضـا كل ما يستطيع الحصول عليه من أموال .

وحاول بعض السادة من بيت القاسم أن يراجعوا الملك فى قراره هذا فلم يستمع اليه فعرضوا أن يقوموا هم بتسليم الزكاة الى القاسم مباشرة دون واسطة الشجنى فلم يلتفت اليهم . وكان الرجل رهيبالا يقوى انسان على الجهر بمعارضته .

فاذا علمنا أن هؤلاء الأحبار لم يتوقفوا يوما عن تتبـع فساد الحكم ومظالم الملك وتفتيح أذهان الشعب على ما هو فيه من فساد .

واذا علمنا أن جانب المعارضة كان قريبا الى الشعب بما كان يتستر وراءه من العلم والتظاهر بالورع والتقوى . وان هـذا الجانب كان يملك سلاح الشعر الذى هو أقوى سلاح للدعاية فى ذلك الوقت .

اذا عرفنا هذا وذاك اتضح لنا الأثر الكبير الذى هز البلاد أثر خروج بيت أسحق ومن معهم فى عام ١١٣٦ هـ .

وهذه الحوادث ذات صلة كبيرة بابن الأمير اشترك فيها اشتراكا ايجابيا وسنوضح عند الحديث عن هذه الحوادث دور ابن الأمير فى الحمـلة على

الظلم والاقطاع وفساد الحكم وأن أقوى لسان للدعاية وأخطره كانت تلك القصيدة الرائعة التى أطلقها ابن الأمير فملأت أسماع اليمنيين جميعا ونعنى بها تلك الرائية التى مطلعها :

سماعا عباد الله أهل البصائر لقول له ينفى منام النواظر

وقد حاول الخارجون على القاسم الرهيب أن يضموا ابن الأمير الى جانبهم وأن يخرجوه معهم وأحرجوه فى ذلك احراجا كبيرا .

ولكن الرجل كان فى طريق مختلف كل الاختلاف عن طريق هؤلاء الساسة وأطماعهم فحاول هو أن يثنيهم عن الثورة والخروج على القاسم وأن يواصلوا الكفاح عن طريق الدعوة حتى يتهيأ الشعب ويعى ما يدور حوله . ولكنه فشل فيما أراد . ونجحوا هم أن يشيعوا بين الناس ان ابن الأمير ممن خرج معهم على القاسم حتى بلغ ذلك أسماع القاسم وكادت هذه الفتنة أن تودى بحياة ابن الأمير كما سنعرف ذلك تفصيلا .

وكان ابن الأمير قد خرج من صنعاء ولكن لا مع أبناء اسحق فى شاطب ولكنه قصد الى مسقط رأسه فى كحلان حتى اذا تناهى الى سمعه أنه متهم بالخروج مع الخارجين سرعان ما عاد الى صنعاء وواجه القاسم بحقيقة موقفه.

وأتيحت له الفرصة حينئذ أن يتوسط فى الصلح بين القاسم وبين محمد ابن اسحق الذى دعا لنفسه متلقباً بالناصر .

وسكنت الفتنة فى عام ١١٣٧ واستقر ابن اسحق فى حصن ظفار حتى مات المتوكل فى عام ١١٣٩ .

ويهمنا فى هذا الموقف أن نشير الى بعض اللمحات التاريخية التى توضح الصورة عن هذا العصر وعن الرجال الذين حركوا الفتن فى أيامهم فشقوا وأشقوا وتعبوا وأتعبوا .

١ — كان من زعماء الخارجين مع محمد بن اسحق « محمد بن عبدالله ابن الحسين بن القاسم المفتى الذى ظن أن العلم هو سبيله الوحيد الى

الامامة . وقد خب فيها ووضع ولم يترك ثـورة على امام الا أمسك بزمامها وظن الناس به زهدا عن الدنيا وانصرافا عن مطامعها وكاد أمر الملك ينتهى اليه فى الاجتماع الأول الذى تم فيه خلع المنصور .

وكان خروجه مع بنى اسحق على أمل أن يبايعـوه هو (ثم بويع (١) محمد بن اسحق ولما لم يبلغ مراده اشتعلت حرارته فى جوفه فتوفاه الله تعالى فى قرية هادم) .

٢ — محمد بن الحسن بن عبد القادر صاحب كوكبان وبلادها وكان الرجل يظن نفسه فى منعة وقوة لذلك استقر فى كوكبان وبث العيـون فى البلاد يتتبعون الأخبار وكان أحد عيونه فى صـنعاء القاضى النزيلى خطيب القاسم يتسمع الأخبار من بلاط الملك ويسارع بها الى ابن عبد القادر .

والغريب فى الأمر أن صاحب كوكبان لم يكن من بيت القاسم فكان لابد للقاسم من أن يعد له فى مكر ودهاء حتى يستأصله .

يستدعى النزيلى ويتظاهر بأنه يستشيره فى بعض أمـره ويوهمه بأنه يريد الخروج من صنعاء ليستجم من عناء الملك وأنه قد فكر فأطال التفـكير فيمن ينيبه عنه بالمدينة .

وأخذ النزيلى فى بساطة الفقيه يقترح الأسـماء ويعـدد مميزات كل والقاسم كان يجد لكل واحد عيبا يباعد بينه وبين الصلاحية .

ثم يعقب القاسم (ليس (١) الا الصنو ــ الأخ — محمد بن الحسين بن عبد القادر لكنه قد داخلته الأوهام) .

وما زال بالرجل حتى اطمأن وطمأن صاحبه فى كوكبان فقدم الى صنعاء آملا أن يظفر بالامامة نائبا ما دام لم يتمتع بها أصالة وما كاد يصل حتى زج به القاسم فى السجن ثم أطلقه فى عام ١١٣٤ هـ وكان من الخارجين مع بيت اسحق وقبض عليه فكان القاسم الرهيب يوقفه مع أصحابه فى القيود الثقال فى حر الشمس من الشروق الى قبيل العصر .

---

(١) من نفحات العنبر .

(١) نشر العرف .

ثم أرسله الى سجن زيلع بعد أن طافوا به مدائن اليمن فلما عقد الصلح مع محمد بن اسحق اشترط اطلاق صاحبه ولكن القاسم لم يستجب لهـذا الشرط وكل ما فعله أن نقل السجين من زيلع الى سجن صنعاء .

٣ — نسوق الموقف الثالث لنتعرف على القسوة التى كانت تملأ قلب القاسم الرهيب وتسابقه الى دماء رعاياه وما كان يحيط نفسه به من حاشية متزلفة فقدت ضميرها وأطلقت ألسنتها من حـوله تمجد كل جناية يقترفها وتحوطها بأشعار دينية يبرأ منها الدين وتبرأ الانسانية أيضا .

خرج القاسم من صلاة الجمعة فى عام ١١٣٨ هـ ووقف بميدان القصر « للعراضة » وهو استعراض درج الأئمة على القيـام به واجتمعت القبائل . ومثل هذه الاستعراضات جدير بأن يستهويها ويجتذبها من كل فج .

وأثناء تسابق فرسان القاسم مالت الخيل فأفزعت قبائل أرحب فأطلق أحد أفرادها النيران فسقط جندى من أتباع القاسم .

الى هنا والحادثة عادية يمكن أن تعالج بحكمة وأناة وتعود الأمورالى نصابها .

ولكن القاسم لا يهدأ حتى يتقاضى قبائل أرحب بهذا الجندى مائة قتيل وستمائة أسير .

وقد كان الموقف الى هذا الحـد أيضا يمكن أن يفسر على أسـلوب الحكم وأن ملكا متجبرا طغى وظلم وتكبر وتجاوز كل حد .

ولكن أنظر الى شاعر الامام وأحد قضاة الدين فى حكومته كيف يفلسف هذه الواقعة :

شـفت كمد الاسلام والبغى راغم — عزيمـة فتـك سـاعدتها عـزائم
نثرت دنانيـر الوجوه على الثرى — كما نثرت فوق العروس الدراهم
ألا فاتبـع الرأس الذى جب عنقه — لهـم ذنبـا فالله بالقتـل حـاكم
ولسـت مليـكا هـازم لنظيـره — ولكنك الأسـلام للشرك هـازم

بربك مم يشفى كمد الأسلام .

أبقتل هؤلاء المسلمين الأبـرياء الذين جنى عليهم وعلى بلادهم هؤلاء المتكالبون على الملك الذين امتصوا خيرات البلاد وخربوا مدنها وقراها .

وأبسط ما يقال ان منظر القتلى من المسلمين يثير فى النفس ألما وحسرة حتى ولو كانوا بغاة لكان الألم أن لم يهتدوا ويصيروا الى تلك النهاية .

أما أن تكون الرءوس على الأرض مثل الدراهم نثرت على العـروس فهذا والله مالا يقول به من فى قلبه ذرة من ايمان .

ثم أرأيت الى القاضى الذى يطالب القاسم الرهيب باستئصال القبيـلة عن بكرة أبيها وأن يتبع الرأس الذنب « فأن الله بالقتل حاكم » .

أى جرأة على الله هذه . وفى أى شريعة اعطاء حق القتل للحاكم دون محاكمة ومن غير التزام بالقوانين السماوية (١) .

---

(١) منذ مائتى عام من هذا التاريخ الف القاضى محمد بن يحيى بهران رسالة سماها (بهجة الجمال ومحجه الكمال فى المذموم والممدوح من الخصال فى الأئمة والعمال)

وكان هذا العالم الجليل خشى أن يواجه الأئمة صراحة بآثامهم فأراد ان يسوق نصائحه عامة لعلها تصيب من القلوب القاسية مكانا . وكان من بين فصـول الكتاب (فصل فى ذكر بعض ماورد فى احترام دماء المسلمين واموالهم واعراضهم وما يناسب ذلك .

وساق فى هذا الفصل كثيرا من الاحاديث نذكر منها :

١ ــ عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى نفسه وماله الا بحقه وحسابه على الله)

٢ ــ عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع (ان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا من شهركم هذا فى بلدكـم هذا)

٣ ــ عن ابن عمر أنه نظر الى الكعبـة فقال (ما اعظمك واعظم حرمتك والمـؤمن اعظم حرمة منك) .

٤ ــ (لزوال الدنيا جميعها اهون على الله من سفك دم بغير حق)

٥ ــ (من اعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقى الله مكتوبا بين عينية آيس من رحمة الله)

فانظر الى هؤلاء الائمة الذين استهانوا بدماء المسلمين واموالهم واعراضهم .

كم سفكوا من دماء فى فترة اربعين سنة منذ عهد المهدى صاحب المواهب حتى وفاة القاسم .

وأين كان القاسم من ســاحات الايمان وأين كانت أرحب من حدود الكفر عندما قتل منها مائة فى رجل واحد ثم ساق منهم ستمائة أسير بجريمة لم تدبر وخطأ لم يتعمد . ضلال وتضليل وافساد للحكام والمحكومين جميعا

فبعد هذا المدح الذى حول الشر خيرا والجريمة تفضلا واحسانا وجهادا كتب القاسم الى عماله وحكامه ورعيته يبشرهم بما أصاب فى هذه الواقعة من نفوس وما أنزله بمواطنيهم من عقاب .

٤ — حدث خلاف خطير بين القاسم وبين ابنه حسين الذى كان عاملا على عمران . وكان الحسين يتطلع الى زيادة نصيبه من الاقطاع أسوة بأخيه أحمد الذى استقل بتعز وما يتبعها .

وخشى الحسين أن يتطور عطف أبيه على أخيه الى ما هو أبعد من تعز وأن يكون هذا الايثار تمهيدا لتمكينه من حكم اليمن فيما بعد .

فاستغل الحسين تحرك القبائل نحو صنعاء لتثأر لنفسها من الظلم الذى وقع عليها فقد أسخطها ما فعله القاسم فيهم .

وكان الخلاف قد استشرى بين القاسم وابنه لدرجة جعلت الألسنة فى صنعاء وما حولها تتحدث عن عقوق الولد لأبيه عقوقا عرفه الناس فى أبنــاء أسرة القاسم لم يشذ عن هذه القاعدة منهم انسان .

تحركت القبائل وعلى رأسها الحسين وفــزع الناس وهجروا القرى من حول صنعاء يلتمسون ملجأ داخل المدينة وشقت عليهم هذه الفتنة التى تنذر بما وراءها والتى لا يعلم الا الله ما تنكشف عنه .

= كم خربو من مدن ، وكم انتهك فى ظل حكمهم من حرمات ومن المؤسف ان ينبجحوا وينسبون أنفسهم الى الامامة . والامامة أشرف وأكرم على الاسلام من أن ينتسب اليها هؤلاء السفاحون .

ومن المؤسف ان يتزيى ملك يبيح القتل والنهب والظلم والرشوة وايقاد نيران العداوة والبغضاء بين المسلمين ان يتزيى بزى رجل الدين .

ويدعى انه يحكم بشرع الله . وانه مجتهد ما يصدر عنه من احــكام فهى محمولة على مذهب زيد بن على رضى الله عنه . زيد بن على الذى نادى بمقاومة الظلم ومحاربة الطغيان اللهم انا نشهدك بانا لانقصد بهذا البحث الا كلمة الصدق لا خوة لنا فى الوطن والعروبة والاسلام لانهدف الا ان نبلغ كلمة المعروف التى الزمنا بها ديننا الحنيف . ونســأله سبحانه الهداية والتوفيق .

ويتحرك ابن الأمير فيجمع العلماء من حوله ويدعوهم الى أداء واجبهم الدينى فى نصح القاسم ودفعه الى أن يقوم بواجبه كملك يحمى عاصمته وكحاكم يرد اعتداء القوى على الضعيف .

وهنا تظهر قوة ابن الأمير الروحية فقد استطاع أن يسوق العلماء أمامه الى قصر القاسم وهناك كان الرهيب لا يهتم بأقناع فرد منهم سوى ابن الأمير .

وها هو يكلف ابن الأمير للتوسط فى الصلح ويذهب ابن الأمير الى الحسين وسيطا مسموع الكلمة .

ولكن القاسم أراد أن يستغل ابن الأمير خدمة ينيم بها القبائل الزاحفة ليثب عليها ويتناول من بينها ولده، ويواجهه ابن الأمير فى شجاعة بأن أسلوب الغدر لا يجدى وأن عليه كملك لليمن أن يتخذ موقفا صريحا من هذه المحنة اما أن يصالح هؤلاء الخارجين واما أن يدفع عن رعيته .

ونشبت الحرب فعلا بين الأب وابنه فلما رأى القاسم أن كسب المعركة غير مضمون لجأ الى ابن الأمير مر ى فتوسط فى الصلح وتم على يديه.

(٣)

مرض القاسم وتوقع الشعب نهايته واذا بالحسين يصل الى صنعاء قبل موته بيوم فيدخلها ويبسط نفوذه عليها . ولا يذكر المؤرخون أنه شغل بأبيه مريضا ولا ميتا ولكنه بحث عن الحسن بن اسحق عندما سمع بوفاة أبيه فى يوم الخميس ٢٤ من رمضان ١١٣٩ هـ (وبقيا [١] عامة يومهما بالقبة فى البستان) .

ولم يتعجل الحسين الدعوة لنفسه متلقبا بالمنصور وانما الذى سارع الى ذلك — يوم الجمعة ٢٥ رمضان — هو يوسف بن المتوكل اسماعيل الذى اعتذر من قبل هذا بخمسة عشر عاما عن الدعوة بحجة كبر السن .

وتعجل بالدعوة أيضا محمد بن اسحق وفى نفس اليوم من حصن ظفار على بعد ثلاثة أيام من صنعاء . وتعجب للسرعة التى وصل بها خبر موت القاسم اليه .

---

(١) نشر العرف لزبارة .

أما المنصور حسين بن القاسم فقد تأنى حتى دعا لنفسه فى الجمعة التالية فبايعه الذين بايعوا يوسف من قبل .

ولا غرابة فان الحسين لم يلتفت الى دعوة يوسف ولم يقم لها وزنا اذ كانت فى حقيقة الأمر لا وزن لها انما كان المنافس الخطير هو محمد بن اسحق .

وعلى كل فقد سارع يوسف الى عمران لينضم الى ابن اسحق ولم يلبث أن توفى بعد سبعة أشهر « جمادى الأولى ١١٤٠ هـ » .

وصلت دعوة محمد بن اسحق الى صنعاء فلباها العلماء وأعيان المدينة وأصبح فى أعناق الناس ثلاث بيعات لثلاثة أئمة .

وما دامت البيعة قد هانت فى عيون القادة وكانت العهود من الرخص بحيث لا تساوى الورق الذى تكتب عليه فماذا على الناس أن يتسموا لكل داع وأن يمدوا أيديهم لكل طامع فقد أصبح الأمر لا يعنيهم وأصبح التمييز لا يؤثر فى أوضاعهم قليلا أو كثيرا .

أخذ بنو اسحق يتسللون من صنعاء وانتشروا فى اليمن يشدون أزر داعيهم وهرب هذا الرجل العنيد أيضا من صنعاء وانضم الى ابن اسحق فى عمران ونعنى به محمد بن الحسين بن عبد القادر .

فاذا تتبعنا خطوات أبناء اسحق فى اليمن أمكننا أن تتصور الحرب التى دارت رحاها فى هذا الوقت وشقاء الناس بها .

— كان عبدالله بن طالب فى قعطبة منذ أيام القاسم متغلبا عليها غير خاضع لحكمه فلما بدأت الحرب تحرك عبدالله الى أب وجبلة فاستولى عليها لصالح عمه .

— وكان الحسن بن اسحق قد فر ولحق بأخيه متنقلا معه من ظفار الى عمران الى شبام وكوكبان .

— ويحيى بن اسحق تغلب على بيت الفقيه واستولى عليها .

— أما أحمد بن اسحق فتوجه الى جبى من بلاد ريمة .

— واسماعيل بن محمد اسحق كان فى وصاب فوثب على ريمة وبسط نفوذه عليها .

فى هذا الوقت رأت بعض القبائل أن تدلى بدلوها وتقتنص الغنائم لحسابها فتقدمت حاشد وعلى رأسها على بن قاسم الحاشدى . وكانت بين المنصور والحاشدى صداقة من أيام أبيه فان هذه القبائل كانت تتحرك معه لحصار أبيه وقتاله .

أما فى هذا الموقف فقد رأوا أن يسلكوا طريقا مستقلا لحسابهم هم لا لحساب المتنازعين .

وقد حاول المنصور أن يستغل الصداقة القديمة بينه وبين على الحاشدى فى استمالته اليه فأرسل اليه الهدايا والضيافة الفاخرة عندما اقترب بقبيلته من صنعاء .

ولكن عليا كان الى جانب محمد بن اسحق أميل ولعله أراد أن يجمع اليه خيرات صنعاء قبل أن يسبقه اليها غيره لذلك فقد أغلظ فى اجابته على صديقه القديم وقال انما نريد بحق الصداقة أن نضمن للمنصور بعض الاقطاعيات أما الحديث فى الملك أو الامامة فلا سبيل اليه .

ولم يكن المنصور ليتقبل الأمر بهذه السهولة ولم يكن له من قبل بهذه الجموع التى تدفقت عليه فى كثرة كاثرة وفاجأته قبل أن يستعد للقائها لذلك فقد سلك سبيل الحيلة والخداع فأمر فأرسلت خيامه تنصب مقابلة لمعسكرات القبائل ايهاما لهم بأنه قد قدم للمفاوضة والمصالحة وفى الوقت نفسه دبر مع الأمير ذى الفقار وثلاثة من أتباعه أمر اغتيال على الحاشدى فلبسوا الدروع تحت الثياب ولبس المنصور مثلهم .

وخرج المنصور من صنعاء واستقر بخيمته وذهب اليه الحاشدى مع بعض زعماء القبائل وبدا حديث الصلح والخوض فيه وقبل أن يصل الطرفان الى نهاية تظاهر المنصور بالأرهاق فتلفع بردائه واستلقى وترك القوم فيماهم فيه حتى يسكن ما فى نفوسهم من ريبة وحتى يتأجل الاجتماع الى اليوم التالى فاذا قدموا اليه من غدهم كانوا قد نفضوا عنهم بعض حذرهم الذى كان واضحا عليهم فى هذا اليوم .

وفى اليوم التالى أرسل المنصور الى صديقه القديم ليلتقى به فى خيمة أعدت لتنفيذ مؤامرته فما أن دخل الرجل ومعه أحد القادة ومكثوا قليلا حتى خرج المنصور وكان فى خروجه ما يثير الشـك فى نفس الرجلين فهم الحاشدى بالخروج فانتهره ذو الفقار وقبض على وفرته وطعنه فى نحره فخر صريعا وتمكن رفيقه من الهرب سريعا .

وفى الوقت نفسه كانت جنود المنصور قد أخذت مواقعها حول الخيام لتدفع القبائل عند هجومها المتوقع .

وهذا ما حدث فعلا فكان رصـاص البنادق يصد القبائل الثـائرة فى غير نظـام .

ودخل المنصور على صديقه وهو يخور فى دمه فأمر أحد أمرائه بقطع رأسه ثم تناول الرأس ورشقها بسنان حربته ورفعها أمام القبائل صائحا :

هذا رأس صنمكم .

ولو كانت القبائل تملك قيادة رشيدة ولم تفـاجأ بالموقف لقضت على المنصور وجنوده ولانتزعت رأس صاحبها لتعود به . ولكن الأمر أفلت من يدها وعاد المنصور الى صنعاء فى موكب عظيم ورأس الحاشدى لم يفـارق رأس الحربة. وكأنه قتل غريمه فى مبارزة شريفة ولم يقتله عبيده خيانةوغدرا.

ولا علينا بعد ذلك أن حملت هذه المكيدة على الدين حملا رخيصا فقد كان شأن المرتزقة أن يساندوا جرائم الملوك دائما بأسانيد لا هى من الدين ولا هى من الأخلاق اذ يقول الشاعر :

فيـا لها فتـكة فى الدين كم شرحت صدرا وكم نهجت للحق من نهج

هذه الحادثة الشنعاء التى اصطحبت بالخيانة والغدر أثارت الحمية فى نفوس القبائل وفرضت عليها المعسكر الذى تعمل معه فاتجهت الى محمد بن اسحق بكليتها ولم تلبث أن عادت يقودها الحسن بن اسحق وعبـد الله بن اسحق نحو صنعاء ودارت الحرب بينها وبين المنصور حرب لا رحمة فيهـا ولا شهامة .

ولكن المنصور كان يحتـاج الى أن يلتقط أنفاسه حتى تهدأ هـذه الجموع المطالبة بالثأر وبالملك معا لذلك فقد أخذت رسله تتوسط الجمعين تتحدث عن الصلح حتى حصلت للمنصور على بعض الاقطاعيات التى ترضيه وتنازل عن دعواه وبايع الناصر محمد بن اسحق بيعة باللسان وفى الوقت نفسه يعد العدة ويتأهب للقضاء على خصومه قضاء مبرما .

وفى فترة الصلح هذه عاد محمد بن اسماعيل الأمير من أداء فريضـة الحج فالتقى بمحمد بن اسحق كما سنوضح ذلك عند الكلام عن ابن الأمير

وكان بنـو اسحق متأكدين من أنه صـلح على دخن لذلك فانهم لم يلتزموا بشروط الصلح .

وغالب الظن أنهم لجأوا الى ذلك حتى تتكشف نوايا الحسين ويسارع بأظهارها قبل أن تتفرق الأعوان وانتقاما لـما صـنعه القاسم بهم بعد تنازل عمهم صاحب المواهب .

فخير لهم أن يقابلوا المنصور فى عنفوان قوتهم من أن يواجهوه بعد أن يدبر لهم تدبير السياسى الماكر .

ومهما يكن من شىء فقد سارع المنصور الى نبذ الصلح واعادة الدعوى وخرج بجيشه ليهاجم به بعد أن كان مستقبلا للهجوم وقد أعد للحرب عدتها من الأموال والمكائد .

وخاض مع القوم ثلاث وقائع لم تحسم احداها الأمر بينه وبين أعدائه فعـاد الى صنعاء وبدأ يرسم خطة محكمة للأيقـاع بالقوم فى أسرع وقت استعمل فيهـا سلاح الوقيعـة والرشوة والدسائس حتى لا يعرض مستقبل ملكه لظروف الحرب ومفاجآتها .

وكانت هذه التحركات التى قام بها المنصور من مباحثات للصلحوتنازل عن الملك ثم تنازع على الشروط ثم خروج الى شبام وحرب مع أعدائه . كل هـذا قد سكن من نفوس القبائل قليلا وشغلها الحديث فى كل هـذا عن الحديث الأساسى الذى حركها للحرب وجمعها للثأر .

فاذا أضيف الى هذا عامل الرشاوى وبعث الضغائن فى نفوس القــادة أتيح لنا أن نتصور كيف استطاع الحسين أن يجمع فى يديه الموقف بهــذه السرعة .

ولا ننسى أن أخاه أحمد كان متربعــا على عرش اليمن الأســفل بتعز منذ ١١٣٠ هـ فلم يمكن أبناء اسحق من الاستقرار وشــغل أخطر قائد فيهم وهو اسماعيل بن محمد بن اسحق فى المخــا ومازال يحاربه ويخادعه حتى قبض عليه وعلى من معه فى عام ١١٤١ هـ وساقه الى تعز ثم الى أخيه الحسين فى صنعاء فأودع ومن معه فى السجن .

ولا بأس من أن نلم ببعض الأحداث التى صــنعت ملك المنصور وفى اختصار شديد :

ـــ خرج الحسن بن اسحق من ثلا الى حصن طيبة بوادى ظهر ومكث فى هذا الحصن ما يقرب من شهر ونصف وجيشه يضايق أهل طيبــة ويسىء اليهم فى أموالهم وفيما هو أخطر من أموالهم واستنجد أهل الحصن بأقاربهم فى بلاد يام فسارع اليهم ١٢٠٠ محارب من تلك البلاد وسارع المنصور أيضا ينتهز هذه الفرصة ليقضى على الحسن ولم يلتحم المعسكران ولكن تناوشا .

وعرضت للمنصور فرصة نادرة عندئذ فقد اتفق يحيى بن اسحق مع عبد الله بن طالب على أن يلتقيا حول صنعاء .

وتحرك يحيى من بيت الفقيه وكان عبــد الله ينتظر فى زراجة ولكن يحيى كان أسرع فى الوصول من ابن عمه وكان المنصور أسرع الثــلاثة اذ فاجأ جيش يحيى قبل أن يستقر فقبض على قطعة من الجيش يقودها المطهربن يحيى ثم حاصر البقية الباقية يومين حتى أدخل يحيى أسيرا فى اليوم الثالث الى صــنعاء .

ولم يستطع الحسن أن يبقى بعد ذلك فى طيبه يواجه عدوا فى الداخل وعدوا فى الخارج بجند شغلهم ما هم فيه من عتو واعتداء لذلك ســارع الحسن الى ثلا .

أما عبد الله بن طالب فلما واجهه المنصور وهم بالقتال وجد الخذلان يحوطه من أنصاره والخداع يخذله ممن حوله فبايع المنصور ودخل معه الى صنعاء في جند جرار وبعد يومين استدعاه المنصور وألقى به في السجن .

وتناول أهل الحسن بن اسحق ومن معه من القادة وتناول أهل عمران عبد الله بن اسحق ومن معه من الأعيان وسيق الجميع أسرى في زناجير الحديد حتى وصلوا صنعاء وقابلهم المنصور ووبخهم ثم (قيدوا بأثقل الحديد حتى قيل ان مبلغ وزن القيد خمسة وعشرون رطلا) .

بقي من المعسكر محمد بن اسحق ومحمد بن الحسين في حصن كوكبان استمرت الحرب بينهما وبين جنود المنصور خمسة أشهر حتى بايعا في جمادى الآخرة عام ١١٤١ هـ .

هل سكنت الفتنة وهدأ اليمن بعد هذا الشقاء الأليم ؟ لا ولكنها هدأت بين أبناء العم لتثور من جديد بين أخوين . المنصور في صنعاء وأحمد في تعز.

ولقد علمنا أن أحمد كان من أسباب العداء الذي نشب بين الحسين وبين أبيه القاسم اذ كان القاسم يؤثر أحمد على أخيه وقد اختصه باهدأ مناطق اليمن وأكثرها خيرا .

ولم يكن أحمد عندما حارب بني اسحق يدافع عن الحسين وانما كان يدافع عن نفسه لأنه يعلم أنه لا قبل له ببيت اسحق ان انتصروا .

وكان الأمل أن يقدر له الحسين هذا الصنيع فيمد له من نفوذه في البلاد التي من حول تعز .

ولكن المنصور تجاهل هذا وبدأ أحمد يفتح بابه للحاقدين على أخيه وللهاربين من تزمت أصحاب المذهب الذين أخذت قبضتهم تشتد على صنعاء وما حولها .

وسنرى أن اسحق بن يوسف بن المتوكل كان يشارك في الحملة على تشويه المذهب بالأسئلة التي يطلقها من تعز وسنرى عندما يحين ذلك صلة ابن الامير بهذا .

---

(١) نشر العرف .

وكان تشجيع هؤلاء العلماء فى تعز يكسب أحمد شعبية تغطى على مظالمه وشدته على الرعية .

وبدأ المنصور يستغل خروج صاحب لحج عبد الكريم بن فضل على أحمد بن القاسم فأخذ يقوى جانبه على أخيه فرد أحمد على ذلك بأن استولى على خراج المخا الذى مر به فى طريقه الى صنعاء . ثم بسط يده على مدينتى أب وجبله ولحقت بهما العدين فترة طويلة .

ولم يكن هناك بديل من الحرب فكانت حربا مستعرة ثقيلة على الناس حتى (حصل (١) على البلاد وأهلها ما لا مزيد عليه من المشقة والأهوال) .

وحتى تمنى الشعب على الله أن يخلصه من الاخوين جميعا بلسان بعض الشعراء :

أخوان قد سقيا بماء واحد　　والفضل خال من كلا الأخوين

جرحا صدور العالمين فمالها　　من مرهم الا دم الأخوين

وهنا يتقدم محمد بن اسماعيل الامير الى التوسط حتى يتم الصلح على يديه فى عام ١١٥٥ على أن تقسم الغنيمة بين الأخوين :

— تعز وشرعب وجبل صبر لأحمد .

— بلاد الحجرية ونحوها تعود للمنصور .

وسكنت الفتنة بين ابنى القاسم الى عام ١١٦٠ ثم بدأت من جديد ولم يخمد نيرانها الا موت المنصور فى عام ١١٦١ هـ فنادى أحمد بنفسه اماما على ما بيده من البلاد لا يطمع فى غيرها وكان يرد من يصل اليه من بلاد القبلة وتوسط ابن الامير فى الصلح مرة أخرى بين أحمد وبين ابن أخيه المهدى عباس الذى تمت له البيعة فى صنعاء .

---

(١) نشر العرف .

فتنازل أحمد للعباس بعد ستة أشهر من موت المنصور .

لا نريد أن نشغل القارىء أكثر من هذا لنعدد له فساد الحكم فى عهد المنصور والعباس فسيأتى ذلك عند الكلام عن شخصية ابن الأمير .

فقد اتصلت حياة ابن الامير كمصلح اجتماعى وكعالم مجتهد وكمواطن مخلص لوطنه منذ وفاة المهدى صاحب المواهب الى أن اختتم حياته رحمه‌الله فى عهد المهدى عباس .

لانرى حادثة من الحوادث التى أهمت واهتم بها شعب اليمن الا كان ابن الامير فى أعماقها أو يدور حولها .

ولا نرى رأيا ولا حكما يتصل بالدين عن حق أو زيف الا رأينا ابن الامير يمسك بالزمام مدافعا أو مهاجما .

وقد كشفت حياة ابن الأمير وآراؤه الغطاء عن هذا العصر بما فيه من خير وشر من خير قليل وشر كثير عميق .

وكانت للرجل شفافية عجيبة اذا سلطها على الملوك وأتباعهم نفذت الى أعماقهم حتى لتكاد ترى الشر والقسوة والأطماع والأحقاد تسعى فى صدورهم على أيدى وأرجل .

ولكننا لن نودع المنصور قبل أن نوجه الأنظار الى بعض صفاته التى قد تخفى فقد جمع الرجل بين قسوة الطامعين ودهاء الساسة وحقد المشوهين أو المنبوذين .

ولعل الصفة الأخيرة قد عمقها فى نفسه أن القاسم كان يفضل أخاه عليه منذ الصغر حتى دفعه الشعور بالظلم الى نفث حقده على أبيه . وتمنى أن يتقاضاه حياته فى آخر أيامه وحتى انطلقت ألسنة أهل صنعاء تتندر بعقوقه

فلما ضم القبر جثة القاسم وحقد المنصور عليه تخلص الحقدمن الجثة ليطارد أهل صنعاء الى آخر أيام حياته يذيقهم شر ألوان العذاب .

جاء فى نشر العرف نقلا عن أتحاف النبيه للعمرانى :

(ومما غير فى وجه سيرة المنصور حسين وأورثه سوء الاحدوثة والشين أنه كان يبلغـــه عن أهل صنعاء فى أيام خـــلافه على والده وحل ما أبرمه الله بتوثيق معاقدة رمية بالعقوق وتحدثهم فى مســـامرهم ومحاضرهم بما هو مرموق فوقع فى نفسه ما وقع وأنزل بهم ما رفع به الاسماع الخبر المستشنع. وتجاسر على ما لم يرتكبه من هو أجرأ منـــه من البدع فكان ينزل الجيوش أن استدعاهم منازلهم ويخرجون منها أهلها لا يراعون عالمهم ولا جاهلهم) .

القسم الثاني

محمد بن إسماعيل الأمير

* من كحلان الى صنعاء
* عالم السنة وداعيته
* فساد الحكم ودعوة الاصلاح
* رجل السلام
* ابن الأمير وبيت اسحاق
* مختارات
* مؤلفات

الفصل الأول

من كحلان إلى صنعاء

(١)

محمد بن اسماعيل بن صلاح بن محمد بن على بن حفظ الدين الامير وينتهى نسبه الى الأمير يحيى بن حمزه الحسنى .

فهو من الحمزات الذين كان من هدف القاسم حربهم والقضاء عليهم وقد علمنا أن هذه الأسرة كانت كبيرة ممتدة فى كثير من البلاد اليمنية .وقد استطاع القاسم وبنوه فى فترة أقل من مائة عام أن يقطعوا بين الحمزات وبين أملهم فى الملك . فاتجهوا فى أكثر البلاد وجهة أخرى غير ما كانوا يتجهون اليه من قبل القاسم بن محمد وما تبعه من أبناء .

وليس بغريب أن تنقطع السبل بين الحمزات وغيرهم عند حد لا يتعدونه فقد رأينا أن الصراع على الملك فى الفترة التى أوجزنا تاريخها كان قاصرا على أبناء القاسم بن محمد بن الرشيد . وان تسلل بينهم طامع على حين غفلة من الدهر سرعان ما يتعقبه أقوى الأبناء حتى يستأصله ويفعل به الأفاعيل .

وكان هذا ما حدث مع محمد بن الحسين بن عبد القادر صاحب كوكبان.

ومهما يكن من أمر فان التاريخ لم يسجل لأحد آباء الأمير الا دنين مشاركة فى ثورة أو تطلعا الى حكم أو مزاحمة فيه . فقد قنعت الأسرة بما قسم لها من خير قليل أو كثير فى كحلان .

تلك المدينــة الصغيرة التى استقرت على بعــد ثلاثة أيام فى الشمال الغربى من صنعاء .

وعاش أفراد الأسرة يعلمون ويتعلمون ويؤثر عنهم علم قليل وأدب جم ورضا بما قسم الله .

وغالب الظن أن الأسرة لم تكن فى فقر ينزوى بهــا عن الأنظار كما لم تكن فى ثراء يجعلها محط الأطماع .

ولكن الذى لاشك فيه أنها احتفظت بأثارة من مجــد قديم كان يفتح أبواب الحكام ويؤهلها لبعض الأعمال التى عف عنهـــا أفرادها وترفعوا فى زهادة تدعو الى الأعجاب .

ولعل قناعة الأسرة هى التى أبقتها فى كحلان حتى عام ١١١٠هـ ومن قبل كان صلاح بن محمد بن على جد الأمير يؤثر عنه شعر وعلم يؤهله لأن يزاحم به علماء الأمصار وشعراءهم ولكن الرجل لم يفكر فى أن يفارق وطنه الأدنى الى صنعاء أو غيرها من المدن الكبرى .

ومن أقوى الأسباب عنــدنا التى دعته الى هذه العزلة أنه كان يخشى من الفتن التى أخذت بتلابيب البلاد حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر .

ثم أن الحمزات كانوا يتوجسون خيفة من بيت القاسم . فهم قد علموا ما دبروه لهم وعرفوا ما صنعه القاسم بآبائهم من قبل . ثم ان كثيرا من الأسر التى كانت تخاف أو تخيف ظلت تؤثر أمثـــال هذه المدن التى يتجمع فيهـــا أنصارها لتهاجم أو لتدافع .

فمن الأفضل لهــذه الأسرة أن تعيش ببعض الخير فى كحلان من أن تقامر به فى صنعاء .

والا فمن الغرابة أن يكون جد الامير صلاح بن محمد بهذه الشاعرية الأصيلة ويرضى بالبقاء فى هذه المدينة المتواضعة .

وقد أورد له صاحب طيب السمر قصيدة يمدح بها أحد أصدقائه وقد جمعت بين حلاوة اللفظ واستواء المعنى وغزارة الشاعرية •

استمع اليه حيث يقول :

تغنت على غصن الأراك بلابله	وناحت فباحت للمعنى بلابله
لقد أفهمته من معانى نواحها	شكا من اليف طال عنها تغافله
وكل أليف نازح عن أليفه	فلا شك فى أن التباعد قاتله
وأن اجتماعا يعتريه تفرق	يمر وان أسقتك شهدا أوائله
لحى الله دهرا دأبه الجور دائما	لقد حال ما بين الألفين حائله
كفى منه جورا انه صار قاطعا	لوصل الذى أحببت أنى أواصله

وصاحب هذا الشعر الذى لا نجد فيه لفظا قلقا أو تفاوتا أو اضطرابا فى الأسلوب أو نبوا فى القافية لايحتاج الى أن تؤكد علمه بالعربية ودراسته لها على مستوى رفيع بالنسبة للعصر الذى كان يعيش فيه .

ووفاة صاحبنا هذا فى عام ١١٠٢ هـ تقريبا وكان ابنه اسماعيل يبلغ من العمر حينذاك ستة وعشرين عاما فمولد اسماعيل فى عام ١٠٧٦ هـ كما أن الجد قد رأى حفيده محمدا يدرج فى المهد اذ ولد فى عام ١٠٩٩ هـ .

ولم تلبث الأسرة بعد الجد طويلا فى كحلان حتى ارتحلت الى صنعاء فى عام ١١١٠ هـ .

وليس بين أيدينا من المراجع ما يعين على معرفة السبب فى تحول الأسرة من كحلان الى صنعاء . ولكن الدلائل تشير الى أن الوالد كان يطمع فى أن يستزيد من العلم والمعرفة وأن تتصل أسبابه بأسباب هؤلاء العلماء الأعلام الذين سارت بذكرهم الركبان فى طول البلاد وعرضها أمثال زيد بن محمد بن الحسن وصلاح الاخفش وهاشم بن يحيى الشامى .

شجعه على ذلك مخايل الذكاء التى بدت مبكرة على ابنه محمد والتى أعانته على أن يحفظ جانبا من القرآن الكريم فى حداثة صباه • وشجعه أكثر

من هذا أن صنعاء كانت عاصمة علم ولم تكن حينذاك عاصمة حكم . فقد ابتعد المهدى محمد بن أحمد بن الحسن بمركز الحكم « المواهب » التى اختطها لنفسه قريبا من ذمار فخفت بذلك سطوة الملك عن صنعاء وأطلقت للعلماء عنان البحث والتفكير الحر والصراع المذهبى العنيف .

وكانت آراء المقبلى والجلال ومحمد بن ابراهيم الوزير وغيرهم تجد طريقها الى عقول الدارسين بالتأييد لها أو الحملة عليها ومعارضتها .

وكان اسماعيل الامير مشغوفا بالعلم مكبا عليه زاهدا فى غيره من متاع الدنيا . وسنه حينذاك كانت تشجعه على ألا يفارق عهد الطلب .

ولم يطلب الوالد فى صنعاء منصبا أو جاها فقد كان الجاه والمنصب يطلبان فى المواهب وانما طلب المعرفة فحسب وهذا يرجح الاتجاه الذى ذهبنا اليه من أن الأسرة كان عندها ما يغنيها بحيث تتعلم وتعيش .

وكل المؤرخين الذين تناولوا سيرة الأب أجمعوا على زهده وورعه وتقواه وحبه للعلم كما أن الشعر الذى روى عنه يؤكد أنه ورث عن أبيه تلك الملكة بعذوبتها وسلاستها .

يترجم له ابنه محمد فيقول :

(روح جسم العلم والزهادة ونور حدقة التقوى والعبادة وكعبة مصره وقطب أهل عصره رافق العبادة منذ عرف يمناه من يسراه ، واتخذ الزهد خليله فلم يدان دنياه وصاحب الصمت فلم تحرك الا الخير شفتاه ولا تراه العيون الا ساجدا أو راكعا أو ذاكرا) الخ .

ويترجم له صاحب نفحات العنبر فيقول :

(الأجل الزاهد . الفاضل الناسك العابد .. حقق الفقه والفرائض . اشتهر بالعلم والفضل والتقشف .. ومجانبة الدول) .

والسمات البارزة التى تطالعك عند النظر فى حياة هذا الرجل هى

تواضعه للعلم ولين جانبه لم يتـأب على نفسه أن يجلس من ابنـه مجلس التلميذ من الأستاذ ولا يجد فى ذلك غضاضة ولا غرابة فالفرع قد يزكو على الأصل وهذه الثمار الحلوة اللذيذة التى نجنيها من الأشجار أليست أصولها من الخشب .

وان ذكرت العـلم فهـو	والفـارس المجـرب
جـلا عـلى أقـرانه	اذ سـابقوه وكبـو
أعجـزهم أن يلحقـوا	بمجـده فاضربـوا
مازال فى كتب العـلو	م مـن صـباه يدأب
حتى ارتقـى مرتبـة	تنحط عنهـا الـرتب
بفطنـة تبـدو فمـا	عنهـا الصواب يحجب
يمشى مـع الحـق فـلا	يقتـاده التعصـب
ما زال يهـدينى الـى	نهـج الهـدى وينـدب
حتى كـأنى ولـد	مؤدب وهـو الأب
فاعجب لهـا قضـية	لمثلهـا يسـتغرب
وان أرتنـا عجبـا	فأننـى لا أعجـب
فالفرع قـد يزكو عـلى	أصـوله وينجـب
هـذى الثمـار كلهـا	أصـولهن الخشـب

ولا تظن أن الرجل بهذا القول كان غير أهل لأن يعلم ويناظر العلمـاء فقد شهد له علماء عصره برسوخ القدم وعلو المكانة فى العلم والأدب والظرف وحلاوة المجون وحسن المحاضرة أيضا .

وهذا هو زيد بن محمـد بن الحسن وقد عرفنـاه من قبل عالما جليلا يتظاهر أمامه صاحب المواهب بالعلم ويتزيى عند لقائه بلباس العلماء . هاهو الرجل يجمع ما يؤلفه طيلة أيام الأسبوع ليعرضها على اسماعيل الأمير يوم الخميس ليرى فيها بثاقب رأيه وسعة اطلاعه ما يراه .

ولعل سائلا سأل زيدا هذا عن سر اختيار اسماعيل لهذه المراجعة عندما قال (ما أظن ذهن السيد الشريف (١) يفضل ذهن السيد اسماعيل الامير).

وكان ابنه محمد يرى فيه هـذا الرأى ويعترف له بذلك الفضل لذلك تراه يشاركه البحث والدراسة فى أمهات الكتب التى تحتاج الى صفاء الذهن ودقة المناظرة وغزارة المعرفة :

(لما تم (٢) لى أنا ووالدى العلامة التقى ضياء الدين اسماعيل بن صلاح الامير — رحمه الله — مطالعة كثير من مؤلفات العلامة الحسن بن أحمد الجلال — رضى الله عنه — عجبنا من ذهنه الوقاد وتنبهه لقواعد الاجتهاد)

ويتبادل الأب وابنه الشعر فى مكانه الجلال وسبقه وتحقيقاته التى كشفت زيف الأفكار وشعوذة المشعوذين :

قد غربل العلم فانتقاه فما	لصاحب المنتقى سوى قدمه
فرد ما كان مالحا وأتى	بالعذب فى حله وفى حرمه (٣)

ولعل أصدق ما يصور اسماعيل بن صلاح الامير تلك القصيدة الرائعة التى أرسل بها ولده اليه من كحلان والتى نجتزىء منها تلك الأبيات :

قطب ولى زاهد	اليه تسمو الرتب
وفطنة وقادة	أخاف لا تلتهب
مع وقار كامل	والله هذا العجب
وشعره فى رقة	من الطروس يشرب
والزهد فى هذى الدنا	لغيره لا ينسب
لقد تساوى عنده	ترابها والذهب
آثر خدمة الذى	اليه ينهى المطلب

---

(١) الشريف الرضى .
(٢) ديوان ابن الامير .
(٣) الامير الوالد .

علـى ملـوك مالهـم   فى الـدين الا اللقب
فلا تـراه سـائلا   هل قعـدوا أو ركبـوا
ولا تـراه شـاكيا   منهـم اذا ما احتجبـوا

وفى حياة الوالد صفحة رائعة هى ولا شك ذات أثر كبير فى اتجاه ابن الامير وفلسفته وموقفه الرائع من نظام الحكم وظلم الحكام .

تلك المبادىء التى لم تفارق ابن الامير حتى فارق الحياة .

فقد أثر عن الوالد (مجانبة (١) الدول) والابتعاد عن الحكام .

وهو عندما ألزم نفسه بهذا المبدأ لم يلتزمه عجزا عن المشاركة فى الحكم أو قصورا عن وسائل الوصول اليه ولكنه فزع عندما انتقل من كحلان الى صنعاء من سيرة الحاكمين والمحكومين جميعا .

فقد أفسد صاحب المواهب على الناس أمنهم وأفسد على الحكام والعمال والقضاة أماناتهم وأفسح لأرباب القوة سبيل الشر كل منهم يخب فيها ويضع بكل الوسائل المنكرة .

فلم يبق أمام صاحب دين هاجر ليتفقه فى دينه الا أن يطلب لنفسه النجاة من هذا الفساد المستحكم .

وقد ابتلى الرجل فى هذا أشد الابتلاء عندما ذهب الى المواهب فى عام ١١٢٤ هـ زائرا لبعض أرحامه عند القاسم بن أحمد العيانى حاكم المواهب حينذاك .

وكان الحكم فى المواهب يلفظ انفاسه . وكان الفساد فى المواهب يترع من دماء الناس وأموالهم وأخلاقهم وصادف أن كلف المهدى قاضيه العيانى بمهمة الى جهات صنعاء والتقليد على أن يختار القاضى من ينوب عنه فترة غيابه .

---

(١) نفحات العنبر .

فاختار العيانى — سامحه الله — اسماعيل الأمير .

ولم يستطع الغريب الزائر أن يواجه صـاحب المواهب بحجة كما لم يستطع أن يواجه صهره بعذر فقبل النيابة على مضض وعلى أمل أن يبقى فيها أياما ثم يردها الى صـاحبها ويعود هـو الى صنعاء والى مجالس العلم فى صـنعاء .

ولكن الظروف أخلفته ظنه . حتى أحس كأنه فى سجن وأن نكبة من نكبات الدهر قد حلت به . وأى نكبة أشد وقعا على نفسه من ان يجـرى قلمه باستدعاء المتخاصمين والخوض فى الشجار مع القبائل .

يفرض عليه لقاؤهم بالخصومات والمطالب وسماع شهودهم وما أقل شهود الحق وأكثر شهود الزور فى المواهب :

ولقـد سئمت من البقـاء	وطـول لبثى فى المواهب
أنا راغـب عنـها ولسـ	ت الى المقـام بها براغـب
فبقيـت كالمجـوس قـد	ضـاقت على بها المـذاهب
ونصـبت فيهـا نائبـا	والنصب من أردى المذاهب
من لـى بـرفع نيـابتى	وانا البـرىء من النواصـب
ان الـزمان كمـا عـرفـ	ت يجىء بالنكت العجائب
صـبرا عليـه فانـه	ما زال يـرمى بالمصـائب
ما خلت أقلامى بأن	تجـرى بإحضـار تغالب
أو أن أخـوض من الشجـ	ـار مع القبائل فى غياهـب
قـوم ألـد من البهـا	ئم من تكـلم من تخاطـب
فبليـت منهـم باللقـاء	وبالخصـومة والمطـالب
وشـهودهم ما أن يبـ	ـين الصادقون من الأكاذب
فلأصـبرن تجـلدا	والصـبر محمود العواقب

ضيق وأى ضيق . وفساد أى فساد .

وما لاسماعيل وكل هذا العناء الذى لا طاقة له به .

ويطول غياب صاحبه فى صنعاء فيكتب اليه مستجيرا :

ان المواهب ليست لى بمسعدة ... من بعدكم غير ان الدمع يسعدنى
لولا انتظارى وتأميلى لعودكم ... كان المقام قليلا ليس يمكننى
ارجو من الله تعجيل الاياب فما ... صبرى على البين الا غاية المحن
فعجلوا عجلوا بالعود عن كثب ... ففى وصولك ايصالى الى وطنى

وغالب الظن ان اسماعيل الامير لم يلق صاحب المواهب رغم المنصب الذى فرض عليه فرضا فقد كان الرجل يؤثر العافية فى دينه ودنياه بالابتعاد عن الملوك . وسنرى بعد هذا أن القاسم الرهيب حاول جهده أن يلتقى به وأن يتعرف عليه ومن بعده حاول المنصور حسين فامتنع عليهما ولم يمكنهما من ذلك وتهرب من هذا اللقاء حتى فوت عليهما ما ارادا .

وما ذاك الا أن اسماعيل كان متشددا فى دينه يؤثر جانب الله على جانب الملوك :

آثر (١) خدمة الذى ... اليه ينهى المطلب
على ملوك مالهم ... فى الدين الا اللقب
فلا تراه سائلا ... هل قعدوا أو ركبوا
ولا نراه شاكيا ... منهم اذا ما احتجبوا

ولا غرابة اذن أن أثر عنه أنه حج على قدميه أربعة عشر موسما وزار قبر النبى — صلى الله عليه وسلم — على قدميه مرارا .

وكانت أعظم محنة أصيب بها فى حياته هى فراق ابنه محمد من عام

---

(١) محمد بن اسماعيل الامير .

١١٣٩ هـ حتى اختاره الله الى جواره فى عام ١١٤٦ هـ ذلك الفراق الذى فرض على الأب كمافرض على الابن بسبب ظروف الحكم والذى سنشير اليه فى توسع عند الحديث عن صاحب هذا الكتاب .

وبرغم أن اسماعيل قد مرض خمسة أعوام طوال مرضا عضالا كاد يقعده فان أثر هذا المرض لم يظهر فى شعره كما لم يؤثر على عبادته ومسجده وانما الذى ظهر واضحا حزينا باكيا هو فراقه لولده محمد :

لقد عز صبرى بعدكم يا محمد فعودوا الى الاهلين فالعود أحمد

ويقول :

تطاول البين بين الأب والولد ما كان يخطر هذا قط فى خلدى
ذقت المرارات فى الدنيا وشدتها أمر من فرقة الاحباب لم أجد

ومن المؤكد ان الوالد كان لا يستطيع زيارة ابنه فى مهجره :

قالوا «شبام» قريب من « أزال» فما عنك الرحال ولا عنهم بمبتعد
قلنا صدقتم ولكن حال بينهما حال الزمان فهذا القرب لم يفد

ثم هو يعلم أن هذا الفرق أثر من آثار الظلم الذى عم البلاد لذلك فهو يشكو ما يلاقيه الى الله وحده فهو سبحانه مفرج الكروب :

بعدتم فصبرى يامحمد أبعد ووجدى على طول المدى يتجدد
الى الله أشكو طول بعدك انه شديد وهل شىء من البعد أنكد
تنقلت فيها بلدة بعد بلدة وللدهر فى هذا التنقل مقصد

ثم يشير للجوء ابنه الى حصن شهاره واحتمائه بذلك الحصن المنيع .

الى ان تسنمت المحل الذى علا على الشم فهو الشامخ المتفرد
الى الجبل السامى المنيع الذى به تمر طيور الجو حبوا فتقعد

وهو لاينسى الرسالة التى حملها ابنه على كاهله ولاقى فى سبيلها ما لاقى ألا وهى أحياء الكتاب والسنة .

رسالة مدعاة لكل فخر ومناط بكل زهو فى هذا العصر الذى كثرت فيه الأباطيل وضلل فيه الشعب أى تضليل :

وأنت اذن تحيى بها سـنة الهدى فترشـد فى نشر العلوم وترشـد
وقد نلت ما املت فيك من العـلا وانى لـمن أولاك ذلك أحمـد
وليس سوى التدريس فى العلم مفخر وليس سوى التقوى مع العلم سؤدد

وبعد أن طال الفراق وامتدت بالولد سنوات الهجرة بعيدا عن زوجه وولده وبعيدا عن أحب الناس اليه ، والده يكتب اليه مواسيا مصبرا :

لا تضـق بالأمـر صـدرا وأعتمـد صـبرا وشـكرا
ان فى القـرآن حـرفا فيـه للمكـروب بشـرى
ان بعـد العسر يسـرا ان بعـد العسر يسـرا
ان يسـرا مـع يسـر يطردان العسـر قسـرا

(٢)

فى رحاب هذا الوالد الزاهد التقى الورع الذكى الألمعى ذى القلب الكبير والأدب الجم والعلم الغزير والفـكر الصائب والنفس المترفعـة عن متاع الدنيا وزهوها :

نشأ محمد بن اسماعيل الامير .

طفولة تبشر بأمل عريض فى كحلان حيث ولد ليلة الجمعـة نصف جمادى الآخرة عام ١٠٩٩ هـ .

ولعل مخايل الزكاء والعبقرية التى بدت واضـحة مبـكرة هى التى شجعت الأب أن ينتقل الى صنعاء بعد أحد عشر عاما من مولده وكان محمد قد بدأ حفظ القرآن فى كحلان فأتمه عن ظهر قلب فى صنعاء .

وتتلمذ على أبيه فى الفقه والنحو والبيان وأصول الدين ومجمـوع الامام زيد بن على فى الحديث .

وكان الفضل للوالد اسماعيل فى توجيه ابنه الى دراسة كتب السنة عندما اختار له مجموع زيد بن على — رضى الله عنه — لدراسات الأولى التى عالجها مع ابنه .

فلم يكن هذا الكتاب النفيس من الكتب التى يقبل عليها علماء المذهب الهادوى أو يشجعون طلاب العلم على دراستها بل كان من كتب الأحرار المجتهدين من علماء الزيدية .

وكان كبار الفكر من العلماء الذين بلغوا فى العلم شأوا رفيعا وأفقا وسيعا يعتصمون بهذا الكتاب منجاة لهم من ألسنة المتعصبين من الخاصة وايذاء الجاهلين عن العامة .

وكان القلة من أمثال المقبلى والجلال والأخفش وابن الوزير ينسبون بذلك الى الزيدية لا الهادوية .

اذ وجد هؤلاء العلماء أن الأئمة الحاكمين والائمة الطامعين فى الحكم ومن حولهم من علماء الدولة يضيفون فى كل يوم الى المذهب الهادوى ما يباعد بينه وبين مذهب زيد بن على .

وقد بلغت هذه الاضافات حدا يخشى منه على سلامة العقيدة وصحة التطبيق فى الفروع . ثم هى قد فعلت فعلها فى عقول العامة من الناس حتى حرمتها من البصر والبصيرة .

وكان الرجل من أسرة القاسم الذى تتكشف له حقيقة ما هم فيه وتعلق هذه الحقيقة بقلب يقظان وضمير حى يسارع الى مجموع زيد يعصم به دينه وفكره .

حتى ان يحيى بن الحسن بن المؤيد جمع القرآن الكريم ومجموع زيد ابن على — رضى عنه — فى مجلد واحد . كأنه يذكر نفسه ويلح فى تذكيرها بأنه قرآن وسنة لن يضل بعدهما ابدا .

وكان صلاح الأخفش يقول وكأنه يصيح فى وجه الناس أو بمعنى

أدق كأنه يصيح فى آذان النوام الذين طالت بهم الغفلة وغشيتهم غيبوبة التضـــليل :

انما الزيدى من تابع زيد بن على
فى أصول وفـــروع وخفى وجلى
الأمام الطاهر الأعظم والفخر الجلى
ان تـــرد دين النبى المصــــطفى
فهـــو فى مجمـــوع زيد بن على

وسنعود بالقارىء الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الحـــديث عن صراع ابن الأمير مع انحرافات المنحرفين . وبتوسع يجلو للقـــارىء وجه الحقيقــــة .

وانطلق ابن الأمير بعـــد هذه الدراسة المبدئية على أبيـــه وعلى كبار العلماء فى كحلان .

انطلق يلاحق فطاحل العلماء فى عصره فتتلمذ على زيد بن محمـــد بن الحسن وعلى بن محمد العنسى وصلاح بن الحسين الأخفش وعبـــد الله بن عـــلى الوزير .

ولم يكن من ضيق الأفق وعمياء العصبية أن يقتصر على دراسة كتب المذهب وأن يلزم جانب المتشددين فيه .

فحبه للبحث وتطلعه الى المعرفة وسعة أفقه ورثها عن أبيه كل ذلك كان يدفعه الى أن يطلب العلم ويستهين فى سبيل الطلب بكل المشاق .

روى انه كان يكتب كتاب « زاد المعاد » لابن القيم وكتاب « بهجة المحافل » على ضوء القمر لعدم توفر السراج .

وما ان يصل الى صنعاء عالم زبيد الشـــيخ عبـــد الخالق بن الزين المزجاجى حتى يكب على يديه يدرس صحيح مسلم والبخـــارى وسنن أبى داود .

وكاد العهد بالبيت الحرام أن يقصده المسلمون لأداء فريضة الحج فاتخذ ابن الأمير هذه الرحلة ليؤدى فريضتين :

فريضة الحج وفريضة العلم معا .

حج فى عام ١١٢٢ هـ فدرس على خطيب المسجد النبوى الشيخ عبد الرحمن بن الخطيب بن ابى الغيث أوائل الصحيحين وغيرهما . وفى الوقت نفسه يأخذ عن الشيخ طاهر بن ابراهيم بن حسن الكردى ما عنده من علم السنة وكانت رحلته الأولى الى الحجاز أفقا واسعا تفتح عليه فكره الخصيب . لذلك لم يلبث أ نعاد الى الحج والدراسة فى عام ١١٣٢هـ

وكانت فرصة للدراسة والمناظرة فى الوقت نفسه فلم يعد ابن الأمير ذلك الطالب الذى يقنع ببسائط العلوم بل امتدت أطماعه الفكرية الى أمهات الكتب الاسلامية يقرأ ويناظر ويناقش ويختار منها ما يقبله عقله ويرفض ما لا يقتنع به .

فى الحجة الثانية التقى بالشيخ الحافظ أبى الحسن بن عبد الهادى السندى وتشير كل الدلائل الى أن شخصية هذا العالم كانت ذات تأثير كبير على ابن الأمير وان المناظرات والمراسلات العلمية التى جرت بينهما حونت ابن الامير تحولا كبيرا فعاد من صحبة الشيخ ليعكف على نشر السنة النبوية وعلى التدريس والفتيا والتأليف والارشاد . وليواجه برأيه انحرافات المذهب وانحرافات الحكام .

وكان ابن الأمير فى هذا الوقت قد بلغ شأوا بعيدا من سعة الاطلاع ودقة البصر فى شتى مجالات العلوم العربية والدينية .

ومع ذلك فقد شاقته الحركة العلمية فى الحجاز وجذبته اليها جذبا شديدا لم يملك منها فكاكا .

فما ان عاد الى صنعاء فى عام ١١٣٣ هـ حتى رجع الى الحجاز فى موسم عام ١١٣٤ هـ ليحج وليلتقى بالشيخ العلامة الأشبولى والسيد العلامة عبد الرحمن بن أسلم .

وغيرهم من كبار العلماء .

ويسجل لنا التاريخ ان ثلاثة من هؤلاء العلماء كان لهم تأثير كبير فى حياة ابن الأمير العلمية .

ولم يكن ابن الامير حينذاك يعجز عن الاستقلال بالبحث ولكن تشوفه الى العلم وفهمه ورغبته فى أن يستنزف ما عند العلماء الكبار جعلته يلصق بهؤلاء الشيوخ حتى يصل الى أغوار معارفهم .

فلازم الشيخ العلامة محمد بن أحمد الأسدى حتى قرأ عليه شرح العمدة لابن دقيق العيد واستثارته مباحث الكتاب وشاقته موضوعاتهفشرع لتوه يضع حاشيته عليه والتى سماها « العدة على شرح العمدة » .

والتقى بالشيخ الحسن بن حسين شاجور فبهرته أصالته فى علم القراءات فتتلمذ عليه فيها .

أما الشيخ سالم بن عبد الله بن سالم البصرى فقد آخذ عنه مسند الامام أحمد بن حنبل وصحيح مسلم واحياء علوم الدين للغزالى .

أما الحجة الرابعة التى تمت فى عام ١١٣٩ هـ فسنرى أنها كانت فرصة اهتبلها ابن الأمير لينجو بنفسه من الفتن التى أخذت بتلابيب البلاد ولكنه لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يفيد ويستفيد ويعلم ويتعلم .

وبذلك نرى ان حياة الطلب التى عاشها ابن الأمير قد استمرت حتى بلغ الاربعين .

فهل كان ابن الأمير فى هذه الحياة الطويلة لم يبلغ الشأو الذى بلغه غير همن العلماء حتى يواصل هذه الدراسات الشاقة المضنية التى كانت تكلفه الغربة عن الأوطان وفراق الأهل والخلان ؟

الحق يقال ان ابن الأمير قد سبق وأعجب وهو لم يزل بعد صبيا . حتى اذا تخطى الخامسة عشرة من عمره عامله شيوخه معاملة الأخ والصديق .

وهنالك أكثر من شاهد يؤكد مكانته فى هذه الفترة المبكرة من حياته كان زيد بن محمد يقول :

انه لم ير السيد صلاح الأخفش يمدح أحدا كمـدح ابن الأمير وربما كان يزوره فى الخان بسوق البز بصنعاء .

وهاهو القاضى على بن محمد العنسى الذى كان يدرس له النحـو والمنطق والفقه يمر بالمنزل الذى كان يسكنه تلميذه ابن الأمير فينشد :

واذا مررت « بسوح داود » (١) وقد تليت عليك رسـائل ومسائل
عرج عـلى تلك المنـازل منشـدا لك يا منازل فى القلوب منـازل
قد حلك « البدر » الرفيع فلم اقل اقفرت انت وهن منـك اواهـل

كان سن الأمير عندما قيلت هذه الأبيات سبعة عشر عاما وكان القاضى العنسى عملاقا بين علماء عصره حينذاك .

ولا غرابة اذا كان الشـيخ يكرم تلميـذه هذا التـكريم فقـد كان التلميذ حقيقا بهذه المكانة لما تحلى به من أدب جم ومعرفة لقـدر العـلم وحرص عليه وعلى أصحابه .

كان يتردد على مسجد « الأبهر » ليدرس على هذا القاضى كتـاب الخبيصى فى النحـو مـع بعض التلاميـذ . ولعل بادرة من زميل اسمه « محسن » قد بدرت تجاه القاضى فتخلف من غده عن الدرس . فجزع لذلك ابن الأمير أيما جزع مما أطلق لسـانه بأول شـعر قاله وهـو فى السادسة عشرة فكتب بهذا الشعر وأرسله لأستاذه يسترضيه ويعتذر اليه (وهى (٢) من أول شىء نظمناه فى سن ستة عشرة سنة) .

جمال (٣)الهدى أوحشتلازلتمؤنسا فهـل منع المـولى عن الرق عارض
وشرح « الخبيصى »قدحلالىبقربكم وها هو لما غبت صـاب وحـامض
فلا تظلم المملوك ان كان «محسن» اساء فانى للمـودة حافـظ (٤)

---

(١) الحى الذى كان يسكنه ابن الامير
(٢) من كلام ابن الأمير مقـدما لهذه الأبيات .
(٣) أهل اليمن يلقبون كل من اسمه «على» جمال الدين .
(٤) كتبت فى الاصـل حافض وابدال الظاء ضادا شائع فى اليمن .

والمشاهد بين الشعراء من طلبة العلم اليمنيين أن تظهر مخايل الشاعرية عندهم قبل هذا السن ، كما أن البيت الذى نشأ فيه ابن الأمير أكبر مشجع على أن يبدأ الناشىء قول الشعر فى سن مبكرة عن هذا فقد علمنا أباه شاعرا مجيدا وجده شاعرا رقيقا وأساتذته جميعا يقولون الشعر .

فمن العجب أن يبدأ ابن الأمير شاعريته الغزيرة المتدفقة فى سن السادسة عشرة .

ولعل انكبابه على كتب العلم والجد الصارم الذى أخذ به نفسه فى عهد الطلب هما اللذان أخرا هذه الملكة الى هذا الوقت والتى انطلق بعدها العالم الشاعر يحدد لهذه الموهبة مجراها فى خدمة العلم وحركة الاصلاح .

فلا غرابة اذن اذا وجدناه بعد سبع سنوات يلتقى بالشيخ محمد ابن سالم الحسائى الذى وصل من الحجاز الى صنعاء فى عام ١١٢٢ هـ ويكتشف الرجل شخصية ابن الأمير العالم فيجلس اليه ويتتلمذ عليه ويشرح له « العمر يطية » فى النحو وقواعد الاعراب الكبرى لابن هشام .

ويبهر علم ابن الامير هذا الرجل الوافد ثم تبهره شاعريته فيكشف عن ناحية كانت من أبرز مميزات ابن الأمير بعد ذلك الا وهى استخدام النظم فى صوغ العلوم فيطلب من استاذه الشاب نظم قواعد الاعراب لابن هشام فيستجيب الشاب لرغبة تلميذه وينظمها (نظما (١) بديعا حلوا ضابطا لقواعدها) .

ويكشف الحسائى لأهل اليمن ابن الأمير .

اكتشف عالما يتصدر لمجالس العلم فتزخر به وبأفكاره ومعارفه .

واكتشفه شاعرا يسلم النظم له قياده حتى يتناول به غوامض العلوم ومستعصياتها فترق على يديه وتزهو وتضىء بين قوافيه .

---

(١) نشر العرف لزبارة .

وما كاد الحسائى يظفر بأول مؤلف لابن الأمير — واعجب ان شئت أن يكون هذا المؤلف منظوما ـ حتى انطلق به الى الحجاز ثم الى العراق فيقدمه الى العلماء بهذين القطرين مبشرا بظهور عالم من علماء العرب والمسلمين .

وتعجب المنظومة علماء العراق فيتقدم أحدهم لشرحها ويعد الحسائى فى رسائله ـ التى تبادلها مع أستاذه والتى لم تنقطع فترة من الوقت ـ أن يهدى اليه نسخة من هذا الشرح ولكن قضاء الله قد حسم فمات الرجل غريقا شهيدا وتوارى معه أخبار هذا الكتاب .

ونرجو أن نكتفى بهذا القدر الذى يكشف شخصية ابن الأمير فى بدايتها فقد اتضحت لنا صورة الأسرة مع طفولة عادية وعلماء أجلاء يعلمونه ويحبونه ويقدرونه فى الوقت نفسه . وعقلية متفتحة للمعرفة متطلعة اليها وشاب جاد بعيد عن اللهو كل البعد همه الدرس والتحصيل واستهانة بالمشاق فى سبيل بغيته . وشخصية مستوية لا ازدواج فيها ولا تعقيد ما ان يرى الرأى ويؤمن به حتى يعلنه ويجاهر به ويدافع عنه ، وايمان بالله عميق احاطه هذا الايمان بكل مقومات القوة والصلابة بحيث ظل ستين عاما منذ بدأ رسالته لم تلن له قناة ولم ينحرف عن الطريق الذى اختطه لنفسه .

وقد استبعدنا من الفترة الأولى التى احاطت بابن الامير تلك الرؤى التى رؤيت له والتى أولها أصحابها أو ذووه بأنه العلم الذى اشتهر به بعد وطبق بسمعته الآفاق .

فمن حق ابن الأمير علينا وللأمانة التاريخية التى ألزمنا أنفسنا بها أن نقول ان محمد بن اسماعيل الأمير مرتبط بفترة من تاريخ اليمن تفاعل معها وتأثرت به وارتبط بها وارتبطت به وأصبح هو جزء من هذه الفترة .

فكل حادثة وقعت زمن ابن الأمير تلقى ضوءا على شخصيته وكل رأى نادى به فهو نابع من واقع مجتمعه بما فيه من خير وشر .

والفترة التى نشير اليها طويلة ومعقدة ثم هى بعيـدة عن متنـاول القارىء العادى لأنها فى بطون مخطوطات مختلفة خطا وأسلوبا وترتيبا .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الحقائق التى يمكن للباحث ان يصل اليها سترهقه تنقيبا ومقارنة بين المخطوطات حتى يستخرج وجه الحق من بين مؤلفات كتبت تقربا لملوك اليمن اما تاريخا لهم أو تاريخا لآبائهم .

لذلك فقد كان خير طريق نسلط به الأضواء على شخصية صـاحبنا الذى نعنى بدراسته ان نسلط الاضواء على الاحداث التى عاشها وعاشها الشعب اليمنى العظيم معه .

ومن خلال هـذه الأحداث ستحدد أبعـاد الشخصية وتبرز للعـالم العربى والاسلامى عظمة هذا العالم الجليل .

ولعلنا نكون بذلك قد كشفنا الغطاء عن جوهر الرجل ثم نحن على يقين بأن العلماء والباحثين فى العـالم العربى والاسلامى سيتسابقون لتوفية ابن الأمير حقه من الدراسة الادبية والعلمية وطبع مؤلفاته العظيمة ونشرها على الشعب ليتم به النفع فى عصر من الحرية طالما تاقت نفس الرجل أن يتنسم عبقها بين ربوع اليمن وقد أجملنـا الأحداث والمبـاحث التى سـتقدم اليك فى الفصـول الآتية :

الفصل الثانى : عالم السنة وداعيتها

ويرتبط بهذا الفصل الخلاف بين فرق الزيدية ومحاولة قتل ابن الأمير وتأليب العامة عليه والدس له عنـد الائمة والصراع الفكـرى بينه وبين الوهابيين .

الفصل الثالث : فساد الحكم ودعوة الاصلاح

وسيعرض هذا الفصل صورا من الفساد الذى كانت ترعاه الأسر الحاكمة وتحميه .

وابن الأمير قد حدد ألوان هذا الفساد فى كتاب له حـرره فى عـام ١١٤٦ هـ ووجهه الى المنصور حسين وقد تناول :

خطر المكوس ــ خطر الاقطاع ــ فساد العمال ــ الخطاط ــ الوقف ــ العملة أو الدراهم ــ اليهود .

وتكتمل الصورة اذا اضفنا الى ذلك موضوعين من الموضوعات التى عالجها ابن الامير وهما السجن وافساد الائمة للقبائل .

الفصل الرابع : رجل السلام

وهذا الفصل مرتبط بسابقه وكان من الممكن أن يدرج ضمن موضوعاته ولكن آراء ابن الأمير وبعض العلماء المعاصرين له فى الصراع الشديد بين افراد بيت القاسم على الحكم وما جره على البلاد من ويلات هو الذى شجعنا على أن نفرد له فصلا مستقلا .

الفصل الخامس : ابن الأمير وبيت اسحق

وكان من الممكن أن تجر هذه العلاقة ابن الأمير الى غير ما رسم لنفسه من طريق ولكن الرجل استطاع فى براعة أن يمضى فى طريقه بعيدا عن تكالب المتكالبين وصراع الطامعين .

الفصل السادس : مختارات

وسيكون هذا الفصل لمختارات من شعر ابن الامير تمكن الباحث من استكمال فكرته عن شخصية الشاعر كما أننا سنتحرى فى الاختيار بعض الجوانب التى لم تتناولها فى الفصول السابقة .

الفصل السابع : مؤلفاته

ولعل فى تعداد هذه المؤلفات ما يشجع الباحثين والمؤسسات العلمية على ان تعطيها بعض العناية التى يتيح لها النشر بعد التحقيق .

الفَصْلُ الثّانِي

عالم السُّنة وداعِيتها

كان الحديث بأَرْضِكم
مُسْتَغْرَباً والله جِدا
حتى نشرتُ فُنَونه
وَجَلَوْت منه ما تَصَدّى
وَلِدَرْسه ولأَخْذه
من بعدنا كُلٌّ تصَدَّى
وَتَنَافَس العلماءُ فى
كُتْبِ الحديث هَوًى وَوَجْدا
هذا بِتَنْسِيخ وذا
بشرائها بالمال نَقْدا
ما قلتُ ذَا فَخْرًا ولا
أَرجو بِنَشْرِ العِلْم جَدّا
بل قلته مُتَحَدِّثًا
بِنَعِيم مَنْ أَعطى وَأَجْدَى
بالله قُلْ لِي يَا عَذُو
لُ علامَ تعْذِلني مُجِدا ؟

(١)

لا يستطيع مسلم صادق الايمان أن ينكر على زيد بن على رضى الله عنه فضله ومكانته بين الأئمة المجتهدين ولا أثر المدرسة التى كونها فى خدمة الفقه الاسلامى . هذه المدرسة التى خرجت أبا حنيفة النعمان وصحبه والتى كان من تلامذتها الأمام الشافعى .

ومن الثابت أن الامام زيد لم يترك وراءه الا كتابا واحدا جمع فيه ما ثبت لديه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا الكتاب العظيم الذى يسمى « مجموع زيد بن على » .

وقد أراد بذلك - رضى الله عنه - أن يكون ما بين دفتى الكتاب من أحاديث مرجعا للعلماء والباحثين بعد كتاب الله سبحانه .

واتخذ العلماء من المجموع أساسا لتفقية مذهب زيد وظهر القاسم الرسى وانتقل المذهب الى بعض مناطق اليمن ثم من بعده وفد الى اليمن حفيده يحيى بن الحسين الملقب بالهادى الى الحق والذى نشر المذهب فى شمال اليمن .

وقد ارتبطت دعوة الهادى بالدعوة الى الامامة ولم يكن فى العالم الاسلامى مكان تخصب فيه الدعوة العلوية مثل بلاد اليمن لما طبع عليه هذا الشعب من ايمان عميق وسلامة طبع عربية جعلتهم يتعلقون بكل ما يربطهم بالاسلام ويوثق الصلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكل المذاهب الاسلامية التى نشأت فى ظل القرآن حقيقة بأن تكون محل اجلال المسلمين واحترامهم .

وقد يتفق الأئمة المجتهدون فى الفروع ويختلفون ونحن أمام هذا الاتفاق وهذا الاختلاف لا نكن لهم الا كل اعجاب وتقدير .

فما كان عمل هؤلاء المفكرين الا لخدمة الاسلام والمسلمين والا محاولة منهم لتقريب الاسلام وأحكامه من العقول وجلاء ما غمض منه وتبصير الناس بعظمة هذا الدين الحنيف .

والأمر كذلك فيما يتصل بمذهب زيد بن على رضى الله عنه . ولكن بعد أن قدم الى اليمن الهادى الى الحق يحيى الرسى وارتبطت دعوته بالحكم ارتبط المذهب بالحكم أيضا . وبدأت تتكون خلافات بين فقه زيد فى مجموعه وبين المذهب الهادوى .

واتسعت هذه الخلافات وتفرقت الفرق من الزيدية وكانت أقسى الخلافات بينها هو ما يتصل بحق الامامة وشروطها .

وقد ظل الصراع الفكرى قائما بين أهل اليمن أحد عشر قرنا حول هذا الموضوع .

ولو أن الأمر اقتصر على الخلافات النظرية لهان الأمر بل لجنى الفكر الاسلامى من وراء هذه الخلافات آراء تنفع وفقها يفيد .

ولكن ارتباط الخلافات بأساليب الحكم حولت هذه الخلافات الى صراع دموى عنيف وجعلت الفرق تشتط فى آرائها شططا كاد يبعدها عن جادة الصواب أو أبعدها بالفعل .

وكان المذهب الهادوى عندما تتاح له فرصة التسلط على الحكم يدعم الصلة بين المذهب وبين سلطان الأسر الحاكمة . وفى الوقت نفسه يوجه سلطان الحكم للقضاء على كل مخالف فى الرأى وبكل وسائل السلطان . حتى ضاق الناس بتلك الأسرة التى احتكرت الحكم وضاق العلماء بهذه الآراء التى حملت على زيد بن على حملا لا سند له ولا دليل عليه .

وأصبح بعض الثائرين يرددون فى اصرار قول نشوان الحميرى :

آل النبى هو أتباع ملته　　من الأعاجم والسودان والعرب

لو لم يكن آله الا قرابته　　صلى المصلى على الطاغى أبى لهب

وفى الوقت نفسه كان الحاكمون والطامعون فى الحكم على السواء يواجهون كل من ينكر عليهم الامامة بقول عبد الله بن حمزة .

أمـا الذى عنـد جـدودى فيـه فيقطعـون لسـنه من فيـه
ويؤتمـون جهـرة بنيـه لأن حـق الغيـر يدعيـه

ولما نشأت فى ظل المذهب فرقة المطرفية التى لاتختلف عن بقية الفرق الا فيما نادت به من رأى — بالنسبة للامامة وعدم حصرها فى أبناء فاطمة الزهراء رضى الله عنها . ظلت هذه الفرقة تواجه حربا شعواء لا هوادة فيها وسلطت السيوف على رقاب أتباعها حتى أرهقتهم واستأصلت جـذورهم وأفنتهم عن آخرهم .

وما زالت ديارهم بلواء حجة ووديانهم الشخصية « وهجرهم » فى بنى شهاب مخربة الى اليوم .

وقد رأينا شدة الحقد على المطرفية والكيد لهم أيام عبد الله بن حمزة الذى كان يحرم عليهم دخول المساجد ويسجل على واجهة مسجده :

أقسمت قسـمة حالف بروفى لايدخلنك ما حييت مطرفى

ثم رأينا ان اعطاء حق التشريع والاجتهاد للامام كيف استغل أشنع استغلال وضربنا لذلك مثلا . واضحا بالحـكم الذى أصـدره المتـوكل اسماعيل والذى أدرك خطورته الهادى الجلال فعارضه مدعما رأيه بالأدلة الواضحة من الكتاب والسنة .

وسنرى فيما بعد أن هذا الحكم قد ساق الأئمة الى ألوان من الجور والفساد كان لهما أسوأ الأثر على الشعب . وعلى أسلوب الحكم حتى اذا جاء عهد المهدى صاحب المواهب ومن بعده القاسم الرهيب والمنصور حسين تحول اليمن الى مجموعة من الاقطاعيات يسام الناس فيها سوء العذاب .

واضطر العلماء الى مهاجمة المتوكل اسـماعيل والحكم — حتى بعد مماته — الذى نادى به وما جره على البلاد من ويل وفساد .

ولنستمع الى الحسين بن عبد القادر الروضى حيث يقـول فى زمن

المنصور حسين وسنرى أن هذا الشعر يقطر سخرية وسخطا وألما للحالة التى وصلت اليها البلاد :

قالوا أمامهم اسماعيل عالمهم	أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول ان جنود الترك كافرة	دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا	صارت الينا حلالا بعدما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا	على الذى بيديه أينما كانوا
أصولنا تقتضى هذا فلا حرج	بما أخذنا ولا والقول بهتان
أبليس سول هذا والنفوس دعت	اليه رغبتها فيها لها شان
هذى الخيالات لا تجدى ليوم غد	اذا قضى بين أهل الأرض ديان

وصورة أخرى عرفناها مما سبق وهى تلك الكرامات التى كانت تقترن بكل امام عن استخدامه للجن ومؤازرة الملائكة له والرؤى التى تدعم أصالته فى الامامة وتضفى عليه صفات يقبل بعضها العقل فى تحفظ وينكر أكثرها فى غير تحفظ .

وكانت تعاليم المذهب تلزم الناس بالطاعة العمياء وتطالبهم بالانقياد الأعمى لكل داع من هؤلاء الدعاة . حتى أصبح كل مواطن يجد حرجا فى دينه ألا يلبى دعوة الامام . واضطرب على الناس الأمر اضطرابا شديدا فكانت تصلهم دعوات متعددة من عدد من الأئمة المطالبين بالحكم فيسارعون بالبيعة لهم جميعا خوفا من آن تفوتهم احدى البيعات فيتهمون فى عقيدتهم فى أبسط الاحتمالات أو يتهمون فى ولائهم ان قدر لهذا الداعى الوصول الى الحكم وينتقم لنفسه شر انتقام من فرد تأخر عن الاستجابة له ولدعوته .

ولبث الأمر امتد بنا بعد هذه الفترة التى نؤرخ لها حتى نريك أن عشرات من الأئمة قاموا فى وقت واحد وحتى اتخذت كل قبيلة اماما لها . وبلغ الهوا نبعض الأئمة أن كان الواحد منهم لا يجد قوت يومه الا فى

يوم الجمعة يساق الى المسـجد فى موكبه وقد ألبسـوه العمامة وقدموا له لذيذ الطعام . فاذا قضيت الصلاة أهملوه اهمالا شديدا .

وها قد رأينا أنه بعد موت المتوكل ودعوة المنصور ويوسف بن المتوكل ومحمد بن أسحق أن الناس قد طوقوا أعناقهم بثلاث بيعات .

وللناس كل العذر فى هذا الذى صنعوه . فان الهجر تنشط منـذ عشرات السنين تلقن طلبة العلم وأن علماء الدولة يلحون على الناس فى كل مناسبة بما جاء فى متن الأزهار عن الامام :

(تجب طاعته ونصيحته أو بيعته ان طلبها . وتسقط عدالة من أباها ونصيبه من الفىء) .

(ويؤدب من يثبط عنه أو ينفى) .

(ومن عاداة فبقلبه مخطىء وبلسانه فاسق وبيده محارب) .

وفى مواجهة هذا العداء من أى كائن من كان سلطت الآية الكريمة الآتية على رقاب الناس وحصدوا فى ظلها مالا يحصى عددا من الأرواح :

بسم الله الرحمن الرحيم :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبواأو تقطع أيديهموأرجلهم من خلافأو ينفوا من الأرض»

وكان أحرار الفكر من العلماء ترتجف أوصالهم فزعا قبل كل رأى يصدر عنهم مخافة أن يرمى أحدهم بعداء الأمام .

وكان أباة الضيم من عامة الشعب يتلقون ظلم العمال والقضاة والوزراء فى صبر يقتل الأرواح مخافة أن يرمى الواحد منهم بعداء الأمام .

وكان الأقوياء من بيت القاسم يستغلون ضعف الناس ومسارعتهم لتلبية كل داع . فما أن يسوت امام حتى يلقوا بدعواتهم فى أنحاء اليمن ثم يتجهون الى سوق المنافسة أو سوق الحرب حتى يظفر كل منهم باقطاعية ترضيه ثم يلقون بباقى أشلاء اليمن الى الامام الجديد .

والأمر الخطير من كل ذلك هو مطاردة الناس بتقديس المذهب حتى سدوا على العلماء أبواب التفكير . وكنت اذا جادلت واحد منهم واستندت فى حديثك الى القرآن الكريم أو الى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم — رد عليك محتجا هو برأى المذهب كأن المذهب وحى منزل من السماء نسخ ما عداه .

وقد واجه العلماء الأحرار هذه الظاهرة من قديم . ولكن الأمور تعقدت الى درجة لا يقبلها عقل . وكان الذى وصل بها الى هذا التعقيد الهجر التى أنشأها القاسم والمؤلفات التى فرضت على الناس فرضا لا يعرفون بابا من أبواب العلم سواها .

وليس من المعقول أن يلقى على كاهل القاسم وبنيه كل أوزار التعصب الأعمى الذى وصل الناس اليه . ولكن الذى نقصده أنهم رأوا خطأ فصوبوه ثم بالغوا فى تدعيمه حتى أصبح هو الصواب المطلق وغيره جهل وخروج على الدين ومن يقول به « ناصبى » يستحل ماله وعرضه ودمه .

لقد واجه نشوان الحميرى الشاعر العالم اليمنى الأصيل هذه الموجات من التعصب فناقشها بكتاباته وبشعره ولقى فى سبيل مقاومتها بلاء كبيرا وكان يتعجب من خصومه ومن حججهم التى يعارضون بها آراءه فيقول :

اذا جادلت بالقرآن خصمى   أجاب مجادلا بكلام يحيى
فقلت كلام ربك عنه وحيى   أتجعل قول يحيى عنه وحيا

ثم أنظر الى هذه السخرية التى يتناول بها هؤلاء الذين يواجهون الناس بوجه كله التقوى والورع والزهد حتى اذا خلوا الى أنفسهم امتد

شيطان اللهو بهم الى مدى بعيد ينكره الدين كل الانكار وتأباه الأخلاق الفاضلة كل الأباء .

ولا تختلف الصورة يومئذ عن تلك التى كشفتها الثورة المباركة عندما وجدت قصور أسرة حميد الدين تزخر بصناديق الخمور وقد كتب عليها من الخارج « قرآن كريم لا يمسه الا المطهرون » والاستهانة بالقيم الدينية فى داخل القصور ليس بغريب على الأسر الحاكمة . وكانت الحوادث تأتى ببعض الشواهد التى تؤكد هذا المعنى .

كان للامام يحيى مؤذن يتقاضى فى اليوم ٢ بقشة وللمؤذن أربعة أولاد . وذهب الى يحيى يستجديه زيادة فى مقرره فصاح فى وجهه « رحلك شدى بدلك ديك يؤذن » أو بمعنى آخر « اذهب فمن الممكن أن أستبدلك بديك يصيح » والأذا نعبادة ولا يليق بمن يدعى أنه امام أن يستهين بمقام العبادة الى هذه الدرجة .

ولنرجع الى نشوان فى سخريته الساخرة ومناقشته الهادئة لأمثال هؤلاء اذ يقول :

أيها السائل عنى أننى	مظهر من مذهبى ما أبطن
مذهبى التوحيد والعدل الذى	هو فى الأرض الطريق البين
ان أولى الناس بالأمر الذى	هو أتقى الناس والمؤتمن
كائنا من كان لا يجهل ما	ورد الفرض به والسنن
أبيض الجلدة أو أسودها	أنفه مخرومة والأذن

الى أن يوجه الى هؤلاء المتعصبين الخطاب بقوله :

ودعوا العين لمن خالفكم   لعنة الله على من يلعن

وقد بلغ هذاالتعصب مداه فى عهد أسرة القاسم حتى لاقى المفكرون منها كل عناء .

ولعل الظروف تتيح لنا فرصة الكتـابة عن المقبلى فى بحث خاص به لنرى ما صنعه به الأئمة والعلماء جميعا حتى أخـرجوه من وطنـه فارا برأيه ناجيا بحياته هاربا بحريته .

(٢)

وكان ابن الأمير على علم بالمستقبل الذى يواجهه عندما عاد من حجته الثانية والتى استغرقت قرابة ستة أشهر فى عام ١١٣٣ هـ ليبدأ رسـالته فى احياء السنة .

وكان قد ارتبط برجال المعارضة منذ نهاية العهـد بصاحب المواهب وكانت المعارضة تجد فى دعوة ابن الأمير سندا قويا وحجـة واضحة على الفساد الذى عم البلاد .

وكان القاسم الرهيب يطارد خصومه مطاردة دموية لا رحمة فيها ولا هوادة وقد جمع حوله كل شياطين الحكم الذين عرف قدرتهم على تنفيذ سياسته من أيام عمه صاحب المواهب .

وابن الأمير ينظر الى الأمر نظرة عامة شاملة لا سبيل الى حل مشكلة اليمن الا عن طريقها .

فأبناء المذهب من الزيـدية مختلفون تتنازعهم الفرق والاتجـاهات ، وزعماء المذهب متنازعون يتقاتلون على امتلاك المذهب وقيادته الذى هو فى الوقت نفسه امتلاك لليمن وذخائره .

ثم هم جميعا فى عداء طاحن مع أصحاب المذاهب الأخرى فى جبال حراز واليمن الأسفل .

ولا منجاة لليمن من هذا التمزق الا العودة الى الكتاب والسنة . ففى اقناع الناس بالـكتاب والسنة تحـرير لعقولهم وأرواحهم من الشـعوذات والأفكار المضللة التى أغرقتهم فى دوامات طاحنة لا يملكون معها هدأة فكر ولا رجعة ضمير .

وفى اقناع الشـعب بالكتاب والسـنة تخليص لهم من عبودية الامامة

وسيطرتها وكشف للمظالم التى ترتكب باسم الدين والدين منها براء . وفى اقناع العلماء بالكتاب والسنة الزام لهم بواجبهم المقدس من الجهر بكلمة المعروف والنهى عن المنكر وابعادهم عن جانب السلطان وتقريبهم من جانب الشعب .

وفى تعريف الأئمة بالكتاب والسنة توضيح لأساليب الحكم الحقة السليمة العادلة التى جاء بها الاسلام واشعار لهم بأنهم يحكمون شعبا واعيا يفرق بين الحق والباطل .

وهذا فى حد ذاته يفرض على الحاكمين تقدير جانب المحكومين وعدم الاستهانة بهم وبحقوقهم .

اذن فقد كانت دعوة الكتاب والسنة ثورة جذرية فى أسلوب الحكم فضلا عن كونها ثورة فى الأصول والفروع .

ثورة على احتكار الحكم والمتاجرة بولاء الرعايا ، وبعث للشعب أن يرى طريقه الى الحضارة العريقة التى صنعها منذ فجر التاريخ .

وابن الأمير فى ثورته تلك يعلم أن تناول الأمر فى هوادة وأناة سيصل به وبالبلاد الى مايريد وأن أى تهور أو اندفاع كفيل بأن يورده مورد التهلكة ويعود بالانتكاسة على دعوته وسيكون ذلك من الشعب المسكين المغرر به قبل أن يكون من الحكام .

وفى ضوء هذا يمكن أن نفهم السر فى « السؤال عن المذهب » تلك القصيدة التى انتشرت فى أرجاء البلاد حتى لم يبق مسجد من المساجد لم تنفذ اليه ولم يبق عالم من العلماء لم يتعرض لها بالرد أو بالهجوم السافر العنيف .

والسؤال عن المذهب سؤال قديم متوارث أثاره عدد من الباحثين عندما رأوا كثيرا من الأحكام وكثيرا من الفروع الفقهية قد التزم بها الأئمة وألزموا بها الشعب . حتى صارالعامة لايخطرببالهم أن فى الدين الاسلامى خلاف لهذه الآراء .

والغريب أن بعض هذه الآراء قد ورد فى مجموع زيد ما يجيز مخالفتها أو ما يرجح غيرها عليها . كرفع اليدين عند تكبيرة الاحرام وضم اليدين

عند القراءة والتوجه (١) بعد تكبيرة الاحرام والتورك فى جلسة التشهد والاشارة بالمسبحة فيه وقراءة الفاتحة خلف الامام والدعاء فى الصلاة والتأمين عقب قراءة الامام للفاتحة .

ومذهب زيد فى هذا سهل سمح ميسر روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أقواله وأفعاله التى أجازت الرفع وتركه وضم اليدين وارسالهما والدعاء فى الصلاة والتأمين :

لا عذر للزيدى فى تركه للرفع والضم واحرامه
مكبرا قبل الدعا أنه مذهب زيد عنه أعلامه
وقول آمين له مذهب قال بذا عارف أحكامه
فاعمل بذا ان كنت من حزبه واطرح اللوم للوامه

ولكن هل كان يجرؤ انسان على أن يجهر « بآمين » خلف الامام أو أن يرفع يديه عند تكبيرة الاحرام .

واذا سألت الخاصة قالوا مذهب زيد فاذا أطلعتهم على المجموع قالوا مذهب يحيى الهادى .

اذن لماذا تنسبون لزيد ما ليس لزيد .

واذا كنتم تلتزمون بما قال زيد فلماذا تحاربون ما رواه زيد .

والطامة الكبرى هى تلك الحجج التى كا نيجادل بها علماء السنة من القرآن الكريم والسنة المطهرة وهى لاتختلف عما أثر عن زيد بن على فى قليل أو كثير فاذا ببعض المتعصبين يقولون لانلتزم بها بل نلتزم بالمذهب .

واتصل هذا الموضوع الخطير بالحكم الذى أصدره المتوكل اسماعيل وحول به أرض اليمن كلها من أرض عشرية تعطى الزكاة الى أرض خراجية كأنها فتحت عنوة مثل أرض خيبر وأصبح رأى المتوكل أصلا من أصول المذهب .

وأعرض الأئمة ومن يدور فى فلكهم عن الأسانيد الفقهية التى دعمها

---

(١) بأن يقول المصلى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ٠٠ الخ

العلماء بالقرآن والسنة والأحكام التى تواردت عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم .

وفى بداية الأمر كان ابن الأمير يلتقى بكبار العلماء ويثير المسائل الخلافية ثم يسألهم : مذهب من هذا ؟

ويدور مع المسألة الى أصولها التى توضح أن الرأى الراجح الأقوى خلاف ما عليه المذهب .

ثم يعود الى المذهب ويتساءل :

— مذهب من هذا الذى يقول بهذا الرأى ؟

— مذهب زيد .

— قد عرفتم أن زيدا لم يقل به .

— مذهب يحيى الهادى .

— اذن لماذا تنسبونه : الى زيد ؟

طريقة سلكها فلاسفة اليونان من قبل . اثارة الشك للوصول الى الحقيقة .

ثم انتقل ابن الأمير الى مرحلة أخرى . دفع تلميذه أسحق بن يوسف ابن المتوكل الى صياغة السؤال شعرا :

أيها الاعلام من ساداتنا ... ومصابيح دياجى المشكل

أخبرونا ما الذى تدعونه ... مذهبا فى القول أو فى العمل

من هو المتبوع سموه لنا ... علنا نقفوه نهج السبل

فاذا قلنا ليحيى قيل لا ... ها هنا الحق لزيد بن على

واذا قلنا لزيد قلتم ... بل عن الهادى هنا لم نعدل

واذا قلنا لهذا ولذا ... فهما خير جميع الملل

قرروا المذهب قولا خارجا ... عن نصوص الآل وابحث وسل

أن يكن قرره مجتهد ... كان تقليدا له كالأول

أو يكن قرره من دونه فقد انسدت طريق الجدل
ثم من ناظر أو جادل أو رام كشفا للذى لم ينجل
قدحوا فى دينه واتخذوا عرضه مرمى سهام الموصل

واتنشر السؤال اتتشار النار فى الهشيم وتدافع العلماء يتسابقون للرد عليه (١) (وكثرت الجوابات عن السؤال وبعضها ممن لم يفهم السؤال وطارت كل مطار وملأت الأقطار) .

والعجب العاجب أن ناظم السؤال لم يتحمل تبعة نظمه بل رجع الخاصة والعامة على ابن الأمير لأنهم يعلمون أنه وراء تلميذه .

وبدأ ريح السؤال يهدد سلطان الحكم ويهزه هزا عنيفا وسارع به المتزلفون الى القاسم الرهيب يقرأونه عليه ويضعون أيديهم على مكامن الخطر فيه (وكثرت الأذية « على ابن الأمير » من الجهال) وغالب الظن أن بعض أساتذة ابن الأمير خاف على نفسه من انتساب الأمير اليه . فها هو صلاح الأخفش يسارع الى تلميذه(٢) يعاتبه على القاء السؤال على التلاميذ) (فأجاب عليه : ان هذا مشكل على فتنفضل أفدنى فانه يقول المهدى -- رحمه الله — فى المقدمة انما يقلد مجتهد عدل) . (فلم يزد على السكوت) وهو يعنى أستاذه صلاح الأخفش — أرأيت الى هذا الرد الهادىء الرزين العميق :

— أفدنى

أنتم تقلدون ولا بأس من التقليد . ولكن صاحب المذهب الذى تلتزمون به يشترط فيمن تقلدونه أن يكون مجتهدا لا جاهلا وعدلا لا ظالما عسوفا .

وتكثر الاجابات وتجمع وكل يدعى أنه أجاب على السؤال ثم يذهبون بالسؤال وباجابات المجيبين الى ابن الأمير فيأسف اليهم فى أدب جم أن الاجابة الصحيحة لم ترد على لسان واحد منهم .

(١) ديوان ابن الأمير

ويحتكمون الى والده اسماعيل فيؤيد ابنه فيما ذهب اليه والى هنا ويكون الأمر قد وصل الى غايته وأعطت البذور أكلها وحان قطافه الثمرة فينبرى ابن الأمير للرد على السؤال وله فى الاجابة على السؤال قصيدتان :

قد أتيتم بسؤال مشكل ... لا أرى اشكاله بالمنجل
كم سألنا عنه قوما غيركم ... من أولى العلم وأهل الجدل
وأجابوا بجوابات لهم ... كلها فى حله غير جلى
ويقولون هم زيدية ... وهم عن نهجه فى معزل
هذه كتبهم ناطقة ... بالخلافات لزيد بن على
ان تبعت النص فى مسألة ... قيل هذا شافعى حنبلى
واذا قلت حديث المصطفى ... قلتم المذهب أهدى السبل
قصروا الحق على مذهبهم ... ثم ذا المذهب لم يظهر لى
ومع تصويبهم كلا (١) بلا ... مرية فالقصر عين المشكل
فاجعلو الكل فيه سواء أو ... فامنعوا تقليد غير الأفضل

ويشير فى هذه القصيدة الى اجابة تلميذه الحسن بن اسحق والذى يطلب من المقلد أن يقلد آل البيت على الاطلاق :

ويرد عليه ابن الأمير بقوله :

. . . . لم يقل ذا أحد يا أملى
آترانى لو رفعت الكف فى ... حال تكبير وذا رأى الولى (٢)
هل ترى أشياخكم تتركنى ... آم يقولون آتى بالمعضل
خالف المذهب بالبدعة فى ... رفعه الكفين فليعتزل

وجواب آخر لأحد العلماء الذين تصدوا للأجابة على السؤال والذى يؤكد فى اجابته أن كل مايقوله يحيى الرسى هو نفسه قول زيد بن على وكل حكم يصدر من الهادى يجب أن يعتبر صادرا من زيد . كيف هذا .

---

(١) يسير الى قاعدة « كل مجتهد مصيب » وهى من أصول المذهب ثم ينتهى الأمر بالجماعة الى قصر الصواب على مجتهد دون مجتهد .

(٢) زيد بن على

والخلافات لنــــا شــــاهدة كــم رواهـــا عنهــم من رجــل
فــاذا قلتــم كفى فى المــدعى اتفـــاق منهــم فى الجمـــل
قلت هــذا حاصـــل فى كل من خالف الآل ففتش وســـل
ما جعلوا الأقــوال قــولا واحدا لا تقـــولوا حنفى حنبـــلى

وفى القصيدة الثانية يتعرض لخطر هذا التضليل على الحـكم وعلى العلم والمتعلمين وأخيرا على الشعب فيقول فى تلك القصيدة :

وقفت على السـؤال ومـا حواه وقوف محـاول فهــم الخطـاب
ودونك أيهـا الحيران فاســمع جــوابا لم يـكن لك فى حســاب
فمذهبنـــا اذا ما أطلقـــوه وقـــرره النجـوم من الصحاب
وأطلقــه المحقق فى الفتـــاوى وعنــونه بعنــوان الصـــواب
وأضـــحى فى يد الحكام سـيفا تشــق به القضـايا كالرقــــاب
وقيـــده الرءوس لدى دروس بلفظـــة مذهب طى الكتـــاب

كان هذا السؤال بمثابة اعلان لثورة وقد أعلنهـا الأمير من أول يوم فقد شغل الناس بهــذا الموضوع الخطير فى عام ١١٣٤ هـ وها نحن نراه لم يضيع وقتا كثيرا ليبدأ مرحلة الجهاد .

وسنرى فى الفصل القادم أن الرجل قد شغل نفسه بمعركتين وحارب فى ميدانين عندما هاجم فساد الحـكم فى نفس العـام بقصيدة كتبها هو وحملها رجال المعارضة وطوفوا بها فى كل مكان ، وسنرى هذه القصيدة قد شغلت القاسم الرهيب وأهمتــه وانطلق رجاله يبحثون عن قائلهـا وكانت لا تحوم شبهة حول شــاعر يظن منه أنه قائل هذه القصـيدة حتى يلقى به القاسم فى السجن ونعنى بها القصيدة التى مطلعها :

ســماعا عبـاد الله أهل البصـائر لقــول لــه ينفى منـام النــواظر

وهى التى سنتناولها ونتنـاول الظروف التى أحاطت بهـا فى كثير من التفصيل .

واستمر ابن الأمير فى خطته تلك يثير الاعتراضات حول المشاكل وتنطلق الأسئلة من تلامذته ويترك هذه الأسئلة تفعل فعلها فى عقول الناس وتجعل قلوب المتزمتين تغلى حقدا وثورة على ابن الأمير ومدرسته .

فتارة ينظم هذا السؤال ويدفع به الى أحد تلاميذه ليتصدى له العلماء بالرد عليه وتتعاظم المشكلة وتشغل الناس ثم يتصدى هو للرد عليها وجلاء ما غمض منها كما فعل مع اسحق بن يوسف فى السؤال السابق .

وتارة أخرى يتلقى هو الأسئلة من تلامذته ويتخذها سبيلا الى توضيح بعض الحقائق التى خفيت على الأفهام .

كالسؤال الذي تلقاه من محمد بن هاشم بن يحيى الشامى عن بعض المسائل المتعلقة بالصلاة والتى أوردنا بعضا منها فيما سبق فيجيب الأمير على هذا السؤال بكتاب سماه

« المسائل المرضية فى اتفاق أهل السنة على سنن الصلاة والزيدية »

ويتحرى ابن الأمير فى دروسه التى تصدر لها أن يلتمس المعونة من علماء اليمن الأجلاء الذين عنوا بدراسة السنة حتى لا يفاجأ الناس بدعوته وحتى لا يشعروا بأنه جاء بجديد وهو يشيد بهؤلاء العلماء وبمؤلفاتهم فى شعره حتى يلفت النظر اليهم والى آرائهم التى نادوا بها . كما فعل مع محمد ابن ابراهيم الوزير والحسن بن أحمد الجلال .

ويسجل لنا ديوان شعره أنه درس كتب الجلال مع والده (لما تم لى أنا ووالدى العلامة التقى ضياء الدين اسماعيل بن صلاح الأمير — رحمه الله — مطالعة كثير من مؤلفات السيد العلامة الحسن بن أحمد الجلال — رضى الله عنه — عجبنا من ذهنه الوقاد وتنبهه لقواعد الاجتهاد ، فقال والدى — رحمه الله تعالى — لعله فى سنة ١١٣٢ هـ .

لله در الجلال من علم   يجرى صواب العلوم عن قلمه

ويقول الوالد فى قصيدته :

قد غربل العلم فانتقاه فما   لصاحب المنتقى سوى قدمه

ويعقب عليه ولده محمد فيقول :

صـدقت فيما نظمـت من كلـم ما الدر عنـدى يعـد من قيمـة
ان جهـل القـاصرون رتبتـه فـذاك ممـا يز يد فى عظمـه
ينقـد قـول الرجـال عن نظـر نـراه مسـتخرجا لمنكتمـه

ويحيى كتب الجلال بتدريسها واشاعتها بين تلاميذه وكان كتاب « ضوء النهار » مثار جدل عنيف وحملة شديدة على ابن الأمير لاهتمامه به وعنايته بتدريسه ، فيشرع فى تأليف حاشيته عليه التى سـماها « منحة الغفار على ضوء النهار » فى مجلدين ضخمين .

وكانت هذه الأضواء الفكرية التى يسلطها ابن الأمير على الشعوذات الفكرية أقوى من أن يواجهها أقزام المعرفة فيسعون به لدى القاسم الرعيب

ويرسل اليه القاسم أحد أمرائه ليقول له على لسان سـيده : « كيف تدرس فى كتاب أحرقه الامام القاسم بن محمد ؟ » . فيسخر ابن الأمير من جهل الرسول وجهل سيده ويقول له :

« أبلغ الخليفة أن هذا الكتاب لم يكن مؤلفه موجودا فى دولة الأمام القاسم » .

فالمعروف أن الجلال كان معاصرا للمتوكل اسماعيل وأنه ولد فى عام ١٠١٣ هـ وتوفى فى عام ١٠٨٤ هـ .

ولعل هذه الحادثة تؤكد جهل القاسم وانصرافه عن طلب العلم ومعرفة بسائطه والا لما وقع فى هذا الخطأ الشنيع ولما حاول أن يختطف الأمامة بتلك الطريقة التى عرفناها من قبل .

وقد كان اهتمام ابن الأمير بالحسن الجلال بالذات للدور العظيم الذى أداه فى خدمة السنة ومقاومة الطغيان .

ويكفيه فخرا ذلك الكتاب الذى أشـهره فى وجه المتوكل اسـماعيل والذى اعترض فيه على حربه القبـائل من بلاد يافع والمشرق وسماه « براءة

الذمة فى نصيحة الأئمة » . لذلك فهو عندما وقف على قبره فى عام ١١٣٣ هـ يبكيه بكاء حارا صادقا :

جادت على قبر الجلال عينى بدمع ذى انهمال
ووقفت فيه مدلها أبكى على فقد المعالى

ثم يعدد أفضاله ومؤلفاته وكيف واجه العسف والاضطهاد من مواطنيه :

وجفاه قوم ما دروا كيف السمين من الهزال
وكذاك فاضل كل عصر عرضة لذوى الضلال

ولم يكتف ابن الأمير بدراسة الكتب التى تخدم مذهبه ولكنه كان لا يقع على كتاب ينحرف فيه صاحبه عن القصد حتى يلفت النظر الى انحرافه ويدعو مدرسته الى الاحتراس منه ، قرأ كتاب الانسان الكامل للجبلى فأرسل وراءه قصيدة يقول فيها :

هذا كتاب كله جهل وخلاف ما جاءت به الرسل
قد ضل أقوام برؤيته فغدوا وليس لدينهم ظل

ولم يكن مثل ابن الأمير ممن يسكت عنه من القاسم الرهيب فأراد أن يوقع به فى فتنة بيت اسحق التى حدثت فى عام ١١٣٦ هـ ولكن ابن الأمير استطاع فى براعة وحذق أن يفوت عليه تدبيره وينفض عنه تهمة التآمر مع بيت اسحق ويقف أمامه عالما مسالما صاحب رأى عملاقا لا يقوى القاسم أن يواجه بدمه الشعب اليمنى الحر .

فيجرب معه أسلوبا آخر ويحاول أن يغريه بالمناصب :

— عرض عليه القضاء فى بندر المخا فرفض .

— عرض عليه الوزارة فامتنع .

— عرض عليه القضاء العام والتصدر على الأعلام فلم يقبل .

وواصل رسالة أصحاب المبادىء يعلم ويؤلف ويناقش ويناضل فى صنعاء وفى البلاد التى لجأ اليها هربا من ظلم الحكم فى صنعاء .

وتخرج مدرسة ابن الأمير علماء أجلاء يؤمنون بالرأى وينافحون عنه

ولا ينسى ابن الأمير عندما يجيز الواحد منهم أن يحمله رسالته وأن يطالبه بالمضى فيها فى ايمان واصرار :

— يجيز أحمد بن يحيى الشامى فيوصيه :

فاروعنى يا صـــفى الـدين مـا ... أنـا أرويه على الوجه الصـحيح
من عـلوم المصطفى خيـر الورى ... خاتم الرسل وذى القـول الرجيح
من أتانا بالهـدى من ربنـا ... وأرانـا الحـق بالنص الصـريح
دع متـونا وشـروحا جلهـا ... عند ذى التحقيق أمثـال القـروح
واصـطبر للحـق فالأعـدا لـه ... أمـم تدعـو الى غيـر الصـحيح

— ويجيز عبدالله بن أحمد بن أسحق فيقول :

أجـزتك يا ابن ودى مـا تـريد ... بمـا فيـه تفيـد وتسـتفيد
أجـزت الأمهـات وهـن سـت ... اليهـا كـل ذى عـلم يعـود
لأن بنـاء أحـكام البـرايا ... بهـا دارت وهن لهـا عمـود
ولازم سـنة المختـار درسـا ... وتدريسـا وان رغم الحسـود

وهو لا ينقطع عن ارسال القصائد التى تشـيد بعلم السنة وتفضيلها وديوانه ملىء بهذه القصائد وفيه المزيد لمستزيد .

ولنأخذ لذلك مثلين من حرص صاحبنا على ذلك :

أولهما تلك القصيدة التى يزيل بها رسالته فى مناسـك الحج والتى يقول فيها :

هـذى مناسـك أحمد وصـفاته ... فى حجـه ورجـوعه ورحيـله
فالـزم طريقـته وكـن متمسـكا ... بفعـاله وبهـديه وبقيـله
وحذار ثم حـذار من قول امرىء ... يأتى بضـد النص أو تأويـله
ما أرسـل الرحمن غيـر محمـد ... فينـا فيرضـه أتباع رسـوله
لا يسأل الملـكان من حل الثـرى ... الا عن المختـار بعـد حـلوله
لا عن مقـال سواه من كل الورى ... وعن اجتهـاد المـرء فى تحصـيله

ثانيهما القصيدة التى آجاز بها الفقيه سعيد بن حسن العنسى والتى يقول فيها :

وارو علوم المصطفى أحمد	من حاز فى الناس شريف الخلال
الأمهات الست يا حبذا	ما قد حوت من نافع فى المقال
أئمة قد ألفوها لقد	فازوا بما حازوا على كل حال
أئمة فى العلم تقواهم	كالشمس لا مثل بزوغ الهلال
قد حفظوا للخلق علم الهدى	جازاهم الله جزيل النوال

وهو يتتبع تلاميذه وأخبارهم فلا يجد واحدا انحرف عن الطريق حتى يسارع اليه يحذره ويشد أذنه .

(الشيخ العلامة نصر بن الحسين المحبشى رحمه الله قرأ علينا فى شهارة سبع سنين فى عدة فنون وأدرك مع تقوى وورع وحسن حال ثم دخل صنعاء لطلبه فى رجب سنة ١١٦٩ هـ وتولى بها القضاء فكرهت له ذلك لما علمنا من أحوال قضاة عصرنا . وكان حاله قبل ذلك حال المعرضين عن الولايات والاتصال بالملوك فكتبت اليه وقد بلغ الستين) .

قبحت نفسك لكن لا بسكين	كما رويناه عن طه ويس
قبحت نفسك والستون قد وردت	عليك ماذا ترجى بعد ستين
قبحت نفسك يا لهفى عليك لقد	كنا نعدك للتقوى وللدين
قد شد خير الورى فى بطنه حجرا	ولو أراد أتاه كل مخزون
ما مات والله جوعا عالم أبدا	سل التواريخ عنه والدواوين
اياك اياك كتابا تخالهم	انساوهم مثل اخوان الشياطين
واحذر حجابا وحجابا مع خدم	فهمهم أكل أموال المساكين
وجانب الرشوة الملعون قابضها	نصا فسحقا لأخوان الملاعين
ان عشت سوف ترى منها عجائبها	ان كان قلبك حيا غير مفتون

ولا يكتفى ابن الأمير بكل هذا بل يتحايل على كبار المعاندين بالمعاملة الحسنة والكلمة الطيبة والمجاملات البريئة حتى يقنعهم برأيه فاذا اقتنعوا به واعتنقوا مذهبه فرح بذلك وبشر الدنيا بهذا النصر .

يكسب الى جانبه محسن بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن القاسم ويكتب المحسن اليه معلنا ما انتهى اليه فيجيبه مسارعا :

مدحت به طريقة خير هاد ... أتى يدعو الى دار السلام
محمد الرسول أجل داع ... ختام المرسلين الى الأنام
وسنته هى النور الذى لا ... سواه به النجاة من الظلام
فسبحان الذى أعطاك نورا ... علوت به على البدر التمام

(٣)

وفى غمرة هذا الجهاد العنيف وبعد احدى وثلاثين سنة من العمل الشاق المتواصل والمجالدة لذوى السلطان وذوى الأهواء على السواء : تناهت الى ابن الأمير الأخبار بظهور عالم فى نجد يقال له محمد بن الوهاب . ووصل بعض تلامذة ابن عبد الوهاب ينقلون عنه أنه يدعو الى الكتاب والسنة ويحارب المنكرات وتقديس الأولياء وزيارة القبور وتقديم القرابين اليها .

وكان ابن الأمير حينذاك فى عشر السبعين ولم يبق من العمر مثل ما مضى وكانت آماله قد امتدت به أن الحركة التى تزعمها ستؤتى ثمارها فى حياته حتى يستمتع برؤية اليمن ترفرف عليه أعلام التسامح وتملأ أرجاءه اشعاعات العدالة وتنقشع عن سمائه عمياء العصبية ويعود شعبا موحدا كما كان .

ولكن الأيام تمضى والأئمة سادرون فى غيهم والشعب مغلوب على أمره يجمع قوى فردية فى انتفاضات عشوائية لا تلبث أن تنتكس وتعود الأمور الى أسوأ مما كانت ، وعلماء الشرع ينسلخون عن مدرسة ابن الأمير يتهافتون على فتات موائد السلطان ، فلعل هذه الحركة التى ظهرت فى نجد تمسك الراية من ابن الأمير لتمضى بها الى غايتها .

يا لفرحة الشيخ المسكين بهذه الدعوة .

ويا للسعادة التى غمرت قلبه فدفعته الى أن يسارع بتلك القصيدة التى تشيع قوة الايمان من بين ثناياها . وتمنى فيها أن يسابق القصيد الى نجد ليقوم هو بأزجاء التحية الى ابن عبد الوهاب .

أليس الوهابى يدعو لسنة أحمد صلى الله عليه وسلم ؟ ألم تواجهه كل الطوائف بالانكار بلا تبصر كما أنكرت على ابن الأمير من قبل .

ألم تؤكد الأخبار أن داعى نجد يهدف الى أن يعيد للاسلام جدته .

ألم يذكر الراوون أنه يحارب البدع ويقاومها . ألم يقل تلاميذ الوهابى أنه يحارب مظاهر الوثنية التى تسللت الى عقائد الناس عن طريق الأولياء ونذورهم والقبور واستلام مقاصيرها وتقديسها الى مدى يصل بالناس الى عهد الجاهلية عهد سواع ويغوث وود .

وما الفرق بين ما يفعله الناس اليوم وما كان يفعله أصحاب هذه المسميات من عقر العقائر وذبح الذبائح تقربا اليها .

ألم يطوفوا بالقبور ويستلموا أركانها فعل الحجيج بالكعبة والحجر الأسود .

يا اله السموات انهم يقدسون هناك قبورا بليت وأولياء ودعوا الدنيا وانقطعت بموتهم أطماعهم فيها وحاجاتهم منها .

ولكن بعض الناس هنا فى اليمن يقدسون عصابة من الناس يتربعون على دست الحكم :

تروى سيوفهم من دماء الرعية بلا رحمة .

وتمتلىء خزائنهم من أقوات الأمة بلا شفقة .

وتغص سجونهم بأحرار المسلمين فى نهم .

ويقدم الشعب لهم فى كل يوم قرابين بشرية تتساقط على مذابح أطماعهم .

والسيوف لا تجف .

والخزائن لا تشبع .

والسجون تصيح فى كل يوم هل من مزيد .

ومذابح الطامعين شرهة جشعة لا تشفق ولا ترحم . أليس من حق الدعوة التى آمن بها ابن الأمير أن يمد يده من ربوع الخضراء الى ربى نجد ليشد من أزر ابن عبد الوهاب .

وحقيق بابن عبد الوهاب أن يشد من أزر شيخ كبير أفنى شبابه وهو بسبيل افناء شيخوخته فى مثل الدعوة التى نادى بها من نجد .

بل ان ابن الأمير يطلب من ابن عبد الوهاب فى رجاء أن يشد أزره بالرد على قصيدته بقصيدة يعلم منها أصحابه فى اليمن أنه ليس وحده الذى رأى منكرا فأنكره وأدرك حقا فدعا اليه ودعمه .

وما لنا لا نترك ابن الأمير يتحدث بما أراد الحديث عنه فلا شك أن حرارة القصد وعمق الايمان سينفذ الى قلبك ويملك عليك شعورك عندما تتلقى عنه :

سلام على نجد ومن حل فى نجد ... وان كان تسليمى على البعد لا يجدى

لقد صدرت من سفح صنعا سقا الحيا ... رباها وحياها بقهقهة الرعد

سرت من أسير ينشد الريح ان سرت ... ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

يذكرنى مسراك نجدا وأهله ... لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

قفى واسألى عن عالم حل سوحها ... به يهتدى من ضل عن منهج الرشد

محمد الهادى لسنة أحمد ... فيا حبذا الهادى ويا حبذا المهدى

لقد أنكرت كل الطوائف قوله ... بلا صدر فى الحق منهم ولا ورد

وما كل قول بالقبول مقابل ... ولا كل قول واجب الرد والطرد

سوى ما أتى عن ربنا ورسوله ... فذلك قول جل قدرا عن الرد

وأما أقاويل الرجال فانها ... تدور على قدر الأدلة فى النقد

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه ... يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدى

وينشر جهرا ما طوى كل جاهل ... ومبتدع منه موافق ما عندى

ويعمر أركان الشريعة هادما ... مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى « سواع » ومثله ... «يغوث» و «ود» بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة ... أهلت لغير الله جهلا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل ... ويلتمس الأركان منهن بالأيدى

« فصل فى تحريق دلائل الخيرات »

وحرق عمدا للدلائل دفترا ... أصاب ففيها ما يجل عن العد
غلو نهى عنه الرسول وفرية ... بلا مرية فاتركه ان كنت تستهدى
أحاديث لا تعزى الى عالم ولا ... تساوى فلسا ان رجعت الى النقد
وصيرها الجهال للذكر ضرة ... يرى درسها أذكى لديهم من الحمد
لقد سرنى ما جاءنى من طريقه ... وكنت أرى هذه الطريقة لى وحدى

« فصل فى بدعة المذاهب »

وأقبح من كل ابتداع سمعته ... وأنكاه للقلب الموفق للرشد
مذاهب من رام الخلاف لبعضها ... يعض بأنياب الأساود والأسد
فيرميه أهل الرفض بالنصب فرية ... ويرميه أهل النصب بالرفض والجحد
وليس له ذنب سوى أنه غدا ... يتابع قول الله فى الحل والعقد
ويتبع أقوال النبى محمد ... وهل غيره بالله فى الشرع من يهدى
لئن عده الجهال ذنبا فحبذا ... به حبذا يوم انفرادى فى لحدى
علام جعلتم أيها الناس ديننا ... لأربعة لا شك فى فضلهم عندي
هم علماء الدين شرقا ومغربا ... ونور عيون الفضل والحق والزهد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم ... دليلا ولا تقليدهم فى غد يجدى
ولا زعموا حاشاهم ان قولهم ... دليل فيستهدى به كل مستهدى
بلى صرحوا أنا نقابل قولهم ... اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

« فصل الثناء على من تمسك بالأحاديث من السلف »

سلام على أهل الحديث فانني ... نشأت على حب الأحاديث من مهدى

هم بذلوا فى حفظ سنة أحمد ... وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد

وأعنى بهم أسلاف أمة أحمد ... أولئك فى بيت القصيد هم قصدى

أولئك أمثال البخارى ومسلم ... وأحمد أهل الجد فى العلم والجد

بحور وحاشاهم عن الجزر انما ... لهم مدد يأتى من الله بالمد

رووا وارتووا من بحر علم محمد ... وليست لهم تلك المذاهب من ورد

كفاهم كتاب الله والسنة التى ... كفته قبلهم صحب الرسول ذوى المجد

أأنتم أهدى أم صحابة أحمد ... وأهل الكسا هيهات ماالشوك كالورد

أولئك أهدى فى الطريقة منكم ... فهم قدوتى حتى أوسد فى لحدى

وشتان ما بين المقلد فى الهدى ... ومن يقتدى والضد يعرف بالضد

« فصل فى بدعة التصوف وطريقة ابن عربى »

وأكفر أهل الأرض من قال انه ... اله وأن الله جل عن الند

مسماه كل الكائنات جميعها ... من الكلب والخنزير والقرد والفهد

وان عذاب النار عذب لأهله ... سواء عذاب النار أو جنة الخلد

وعباد عجل السامرى على هدى ... ولائمهم فى اللوم ليس على رشد

وينشدنا عنه نصوص فصوصه ... تنادى خذوا فى النظم مضمون ماعندى

وكنت أمرأ من جند ابليس فارتمى ... بى الدهر حتى صار ابليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أدركت بعده ... دقائق كفر ليس يدركها بعدى

وكم من ضلال فى الفتوحات صدقت ... به فرقه صاروا ألد من اللد

يلوذون عند العجز بالذوق ليتهم ... يذوقون طعم الحق فالحق كالشهد

« فصل فى اغتراب الدين »

وهذا اغتراب الدين فاصبر فانني ... غريب وأصحابى كثير بلا عد

اذا ما رأونى عظمونى وان أغب ... فكم أكلوا لحمى وكم مزقوا جلدى

اليك طوت عرض الفيافى وطولها ... فكم جاوزت غورا ونجدا الى نجد

فأحسن قراها بالقراءة ناظما ... جوابا فقد أضحت لديك من الوفد

والقصيدة تحوى آراء ابن الأمير أكثر مما تحوى مدح ابن عبد الوهاب . وهى تناقش مشاكل العصر الدينية فى يسر وبساطة مما يغنيها عن التعليق .

ولكن يا لخيبة الآمال ما كادت القصيدة تطوف فى الآفاق وتملأ أسماع الدنيا — وأبرأ بالقارىء أن يستهين برأى ابن الأمير حينذاك فقد كان الشيخ عملاقا بين علماء المسلمين يعرفونه فى شتى الأقطار وسنرى أنه قد بلغ من علو المكانة ورفعة الدرجة أن قصده علماء من تركيا ومن الهند فما بالك بعلماء اليمن وعلماء الحجاز (وذكر (١) لنا أنه عظم شأنه بوصول الأبيات التى وجهناها اليه وأنه يتعين علينا نقض ما قدمناه وحل ما أبرمناه .

وكانت أبياتنا قد طارت كل مطار وبلغت غالب الأقطار وأتتنا فيها جوابات من مكة المشرفة ومن البصرة وغيرها) .

وما كادت القصيدة تحمل اسم ابن الأمير حتى جاءته الأخبار تترى والوفود تتوالى والرسائل يعقب بعضها بعضا .

ينيرون له الطريق ويكشفون أمامه الحقائق ويبصرونه بحقيقة الأمر فى نجد وما يصنع بنجد على يدى داعية نجد .

وابن الأمير يسمع ويتشكك ثم يستطلع ويبحث ويتحقق حتى تكشفت له الحقيقة سافرة واضحة .

ويا لخيبة آماله ويا لسوء الطالع ويا للنكسة التى أصابت الشيخ وقد تمنى على الله ألا تكون :

(لما بلغت هذه الأبيات نجدا وصل الينا بعد أعوام من بلوغها الى أهل نجد رجل عالم يسمى « مربد بن أحمد التميمى » وكان وصوله فى شهر صفر سنة ١١٧٠ هـ وأقام لدينا ثمانية أشهر وحصل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه .

وفارقنا فى عشرين شوال سنة ١١٧٠ هـ راجعا الى وطنه ، ووصل من

---

(١) من ديوان ابن الامير يتحدث عما نقله اليه الشيخ مريد بن احمد التميمى أحد تلامذة ابن عبد الوهاب

(٢) مقدمة ابن الأمير لقصيدته التى رجع فيها عن مدح ابن عبد الوهاب.

طريق الحجاز مع الحجاج ، وكان من تلامذة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ والذى وجهنا اليه الأبيات ـ فأخبرنا ببلوغها ولم يأت بجواب عنها :

وكان قد تقدمه فى الوصول الينـا بعد بلوغهـا الشيخ عبد الرحمن النجدى ووصف من حال محمد بن عبد الوهاب أشياء أنكرناها :

من سفكه الدماء ، ونهبه الأموال ، وتجاريه على قتل النفوس ـ ولو بالاغتيال ، وتكفيره الأمة المحمدية فى جميع الأقطار .

فبقينا نتردد فيما نقله الشيخ عبد الرحمن حتى وصل الشيخ مربد وله نباهة ، وأوصل بعض رسائل ابن عبد الوهاب التى جمعها فى وجه تكفيره أهل الايمان وقتلهم ونهبهم ، وحقق لنا أحواله وأقواله وأفعاله .

فرأينا أحواله أحوال رجل عرف من الشريعة شطرا ولم يمعن النظر ولا قرأ على من يهديه نهج الهداية ، ويدله على العلوم النافعة ويفقهه فيها .

بل طالع بعضا من مؤلفات أبى العبـاس « ابن عمه » (1) ومؤلفات تلميذه ابن القيم الجوزية وقلدها من غير اتقان مع أنهما يحرمان التقليد .

ولما حقق لنا أحواله ورأينا فى الرسائل أقواله وذكر لنا أنه عظم شأنه بوصول الأبيات التى وجهناها اليه . وأنه يتعين علينا نقض ما قدمنـاه وحل ما أبرمناه ، وكانت أبياتنا قد طارت كل مطـار وبلغت الأقطار وأتتنا فيهـا جوابات من مكة المشرفة ومن البصرة وغيرهما الا أنهـا جوابات خالية عن الانصاف .

ولما أخذ علينا الشيخ مربد ذلك تعين علينا لئلا نكون سببا فى شىء من هذه الأمور التى ارتكبها ابن عبد الوهاب المذكور . كتبت أبياتا وشرحها . وأكثرت من النقل عن ابن القيم وشيخه ابن تيمية لأنهما عمدة الحنابلة) .

ونحب قبل أن نورد اليك مختارات من القصيدة التى نقض بها ابن الأمير مدحه لابن عبد الوهاب أن نشير الى بعض أمور تجدر الاشارة اليها :

---

(1) الصواب « ابن تيمية » وهى كذلك فى النسخه الخطية التى كتبهـا ابن الشاعر . ولكن الذى أشرف على طبع الديوان اشتبه عليه التقارب فى الرسم بين اللفظين وبنى عليه رأيه فى نفى نسب القصيدة التالية لابن الأمير

أولا : أن ابن الأمير لم يهاجم الوهابى الا بعد سبع سنوات من الدراسة والتحقيق والتمحيص . استمع فيها الى تلامذة ابن عبد الوهاب ومن نقلوا عنه وناقش فيها بعض الشيوخ الأجلاء الذين يثق فيهم وفى صدق قولهم وأمانة النقل عنهم . وقرأ فيها عددا من رسائل ابن عبد الوهاب التى تحدد مذهبه « فبقينا نتردد فيما نقله الشيخ عبد الرحمن حتى وصل الشيخ مربد وله نباهة .

وأوصل بعض رسائل ابن عبد الوهاب التى جمعها فى وجه تكفير أهل الايمان وقتلهم ونهبهم وحقق لنا أحواله وأقواله وأفعاله) .

ثانيا : أن الذى أزعج ابن الأمير ودفعه الى كتابة القصيدة التى سنعقب بها هذا الحديث . هى الجرائم التى تناهت اليه أخبارها . والرسائل التى ترد اليه من الأقطار تشركه تبعة تصرفات الوهابى وتلقى عليه اللوم فى تأييده وتحمله شطرا كبيرا من مسئولية ما يرتكب فى نجد .

فلم يكن أمام ابن الأمير الا أن يعلن رأيه صريحا واضحا فى هذه القضية الخطيرة .

ثالثا : جاء فى التعليق الذى أورده السيد على صبح المدنى الذى أشرف على طبع ديوان ابن الأمير فى القاهرة :

أنه يرجح أن القصيدة مدسوسة على ابن الأمير وأنها من نظم أحد أبنائه وأدخلها على أبيه وأكد هذه الحقيقة السيد محمد بن مانع فى صدر الديوان .

واستند السيد المدنى فى ذلك لسببين :

أ ــ أنه ورد على لسان ابن الأمير فى كلامه الذى نقلناه اليك آنفا ــ والذى قدم به ابن الأمير للقصيدة موضوع الحديث ــ تلك العبارة (بل طالع بعضا من مؤلفات أبى العباس « ابن عمه » ومؤلفات تلميذه ابن القيم) .

واستنكر أن يقع ابن الامير فى هذا الخطأ الذى يثبت القرابة بين ابن عبد الوهاب وبين ابن تيمية . والحق ألا صلة بين الرجلين .

ب ـ أن آراء ابن الأمير تلتقى مع آراء ابن عبد الوهاب وساق لذلك دليلا يرجع اليه من مؤلفات ابن الأمير هو « تطهير الاعتقاد من درن الألحاد ».

والذى نحب أن نؤكده لصاحب التعليق أن القصيدة لابن الامير وقد كتبها ابنه بخطه فى ديوانه وكتب تعقيب والده عليها وأن كثيرا من المؤلفين المعاصرين لابن الامير والتابعين له قد تناولوا فى سيرة ابن الامير القصيدتين معا:

سلام على نجد ومن حل فى نجد .

ورجعت عن القول الذى قلت فى النجدى .

وليس الخطأ الذى وقع فيه السيد مدعاة لنفى نسب القصيدة فان كلمة « ابن عمه » قرئت أو كتبت خطأ والصواب أن تستبدل بكلمة « ابن تيمية » وتقارب الكلمتين فى الرسم هو الذى دعا الى هذا الالتباس أما من ناحية التقاء آراء الشيخين ـ الأمير والوهابى ـ وتعارض القصيدة مع مذهب ابن الأمير . فلم يقل به ابن الأمير نفسه فسابقته لم تتعارض مع لاحقته ولم ينقض رأيا من آرائه فى كلتا القصيدتين :

وانما القضية هى :

هل كان ابن عبد الوهاب داعية للكتاب والسنة وعلى منهجهما فى رأى ابن الامير ؟

لقد تأكد من هذا فى أول الأمر فأيده وكتب اليه قصيدته الأولى .

ثم تأكد اليه أنه على خلاف ما اعتقد فرجع عن التأييد .

واستمع اليه يعبر عن هذا الرأى بوضوح :

رجعت عن القول الذى قلت فى النجدى .

لماذا ؟

فقد صح لى عنه خلاف الذى عندى .

ولا تحسبوا أنى رجعت عن الذى ـ تضمنه نظمى القديم الى نجد

بلى كل ما فيه هو الحق انما ـ تجاريك فى سفك الدما ليس من قصدى

أبن لى ابن لى لم سفكت دماءهم ـ ولم ذا نهبت المال قصدا على عمد

رابعا : فى رأينا أن ابن الأمير عندما كتب القصيدة التالية انما كان يواصل رسالته بالنسبة لليمن أولا وللعالم الاسلامى ثانيا . وأن القضية كانت مرتبطة بقضية الامامة فى اليمن وأن العيوب التى يهاجمها فى نجد هى ذات العيوب التى ظل يهاجمها فى اليمن منذ عشرات السنين .

ولعله أراد أن يستدرج الطغاة من حكام اليمن الى قضية خارجية كالمرآة يرون فيها أنفسهم وما يصنعون بشعوبهم والأمل يراوده أن يستمعوا وأن ينتصحوا .

هذا بالاضافة الى الهدف الأول وهو التبرأ من أن يكون نصيرا لابن عبد الوهاب .

لقد كان ابن الامير — واليمن معه — يعيش فى نفس المحنة التى كان يساق اليها أهل نجد والتى ينذر مبتداها بما انتهى اليه الحال فى اليمن .

لقد وجد عالما يعتقد أنه هو وحده المسلم الصحيح الايمان وما عداه من المسلمين كفار . لقد وجد عالما يهدف الى الوصول الى الحكم بمذهبه . ويسيطر المذهب . ويحكم . وتنشأ أسر تحتكر المذهب وتحتكر الحكم ويوجه المذهب لتدعيم الحكم . ويستغل الحكم لتقديس المذهب .

ويتساقط علماء فى خدمة المذهب والحكم معا . ويفلسفون القداسة للحكم والارهاب للمذهب .

ويساق العامة فى دوامة الارهاب والقداسة والتضليل ونصل الى ما وصلنا اليه فى اليمن من تكفير أهل الأرض ما عدا أصحاب المذهب .

وتستباح الحرمات . وتنتهب الأموال .

وتهدر الحقوق . ويصبح الاغتيال أسلوبا من أساليب الحكم .والسجن مجمعا للاحرار لا للعصاة .

وتتكون حاشية السوء تشى وتسول للملوك أسباب القسوة والفساد

ويباعدون بينهم وبين الشعب صاحب الحق ومالك خيرات البلاد . حتى لايجد الحق نصيرا ولا يصل الخير الى أربابه الحقيقيين .

هذه هى الحقــائق التى تكشفت لابن الامير ولذلك ســارع بهذه القصيدة ، حتى لايظن الناس بعد جهاد عمر طويل أنه :

يكفر أهل الأرض فيها على عمد

أو أنه لفق فى تكفيرهم كل حجة :

أو أنه نصير لمن : تجارى على اجرا دما كل مسلم ـــ مصل مزكى .

وماذا كان يتوقع المرء من رجل أفنى حياته فى سبيل مبدئه وفارق أهله وفارق وطنه وطوفت به البلاد غريبا وحيدا . وتعرض للقتل والاغتيـــال وشظف العيش وامتحن فى ضميره بمغريات المناصب فلفظها محتقرا . أيهاجم نهب الأموال فى اليمن ويبيحه فى نجد غير معقول هذا .

. . . . فانه　　حرام فلا تغتر بالعــز والجــــد

ولا بأناس حســنوا لك ما ترى　　فما همهم الا الأثاث مع النقــد

وكل المشاكل التى تناولها الشيخ فى قصيدته هى مشاكل اليوم والأمس فى اليمن وهى مشاكل الغد المرتقب

ومن رأينـــا أن الرجل كان ينظر الى اليمن أولا فى كل ما قال قبل أن ينظر الى صاحب نجــد . وانا نحتكم الى ضمير القارىء فيما يذهب اليـــه ببيت واحد فى آخر القصيدة :

قصدت بهذا النظم نصح أحبتى ـــ وأختمه بالشكر لله والحمد .

ألا ترى معنا أن ابن الامير يعالج مشكلة أبناء عمه الذين كثر عددهم واشتدت وطأتهم على الشعب المسكين .

واليك ما قاله ابن الامير :

رجعت عن القول الذى قلت فى النجدى　　فقد صح لى عنه خلاف الذى عندى

ظننت بــه خــيرا وقلت عسى عسى　　نجد ناصحا يهدى الأنام ويستهدى

فقد خاب فيها الظن لا خاب نصحنا　　وما كل ظن للحقائق لى مهـــدى

وقد جاءنا من أرضه الشيخ مربد / فحقق من أحواله كل ما يبدى

ومن جاءنى من تأليفه برسائل / يكفر أهل الأرض فيها على عمد

ولفق فى تكفيرهم كل حجة / تراها كبيت العنكبوت لذى النقد

تجارى على أجرا دما كل مسلم / مصل مزك لا يحول عن العهد

وقد جاءنا عن ربنا فى براءة / براءتهم عن كل كفر وعن جحد

واخواننا سماهم الله فاستمع / لقول الاله الواحد الصمد الفرد

وقد قال خير المرسلين نهيت عن / فما باله لم ينته الرجل النجدى

وقال لهم لا ما أقاموا الصلاة فى / أناس أتوا كل القبائح عن قصد

أبن لى أبن لى لم سفكت دماءهم / ولم ذا نهبت المال قصدا على عمد

وقد عصموا هذا وهذا بقول : لا / اله سوى الله المهيمن ذى المجد

وقال ثلاث لا يحل بغيرها / دم المسلم المعصوم فى الحل والعقد

كدعواك فى أن الصحابة أجمعوا / على قتلهم والسبى والنهب والطرد

لمن لزكاة المال قد كان مانعا / وذلك من جهل بصاحبه يردى

فقد كان أصناف العصاة ثلاثة / كما قد رواه المسندون ذوو النقد

وقد جاهد الصديق أصنافهم ولم / يكفر منهم غير من ضل عن رشد

وهذا لعمرى غير ما أنت فيه من / تجاريك فى قتل لمن كان فى نجد

فانهم قد بايعوك على الهدى / ولم يجعلوا لله فى الدين من ند

وقد هجروا ماكان من بدع ومن / عبادة من حل المقابر فى اللحد

فما لك فى سفك الدما قط حجة / خف الله واحذر ما تسر وما تبدى

وعامل عباد الله باللطف وادعهم / الى فعل ما يهدى الى جنة الخلد

ورد عليهم ما سلبت فانه / حرام ولا تغتر بالعز والجد

ولا بأناس حسنوا لك ما ترى / فما همهم الا الأثاث مع النقد

يريدون نهب المسلمين وأخذ ما / بأيديهم من غير خوف ولا حد

فراقب اله العرش من قبل أن ترى / صريعا فلا شىء يفيد ولا يجدى

نعم واعلموا انى أرى كل بدعة / ضلالا على ما قلت فى ذلك القصد

ولا تحسـبوا أنى رجعت عن الذى   تضمنه نظمى القـديم الى نجـد
بلى كل ما فيه هو الحـق انمـا   تجاريك فى سفك الدما ليس من قصدى
وتكفير أهل الأرض لست أقـوله   كما قلتـه لا عن دليل به تهـدى
وها أنا أبرا من فعـالك فى الورى   فلا أنت فى هذا مصيب ولا مهدى
ودونكهـا منى نصيحـة مشـفق   عليك عسى تهدى بهـذا وتستهدى
وتغلق أبواب الغـلو جميعـه   وتأتى الأمور الصالحات على قصد
وهـذا نظامى جاء والله حجـة   عليك فقابل بالقبول الذى أهـدى

نعم ثم ان الـكفر قسمان فاعلموا   وكل من القسـمين أحكامه أبدى

الأول :

فكفر اعتقاد حكمه السـفك للدما   وسبى الذرارى وانتهاب ذوى الجحد
الى أن يقـروا بالشـهادة للذى   له الخلق والأمر الاله الذى يهـدى
وأن يشـهدوا أن الرسول محمدا   نبى أتى بالحق والنور والرشـد
وأن يشـهدوا أن المعـاد حقيقـة   يعيدهم رب العباد الذى يبـدى
خلا من له منهم كتـاب فانه الـ   معـاهد والابقاء حتم لذى العهـد

الثـانى :

وكفر كمن يأتى الـكبائر لا سوى   وليس ككفر بالمعيد وبالمبـدى
كتـارك فرض للصـلاة تعمـدا   وتارك حكم الله فى الحل والعقـد

ثم يعدد من ألوان هذا القسم ويستطرد قائلا :

وهـذا الذى فصلتـه الحق فاتبع   طريق الهدى ان كنت للحق تستجدى
فان قلت قـد كفرت مـن قال انه   اله وأن الله جـل عـن النـد
مسماه كل الكائنـات جميعهـا   من الكلب والخنزير والقرد والفهد
مع أنه صلى وصام وجانب التوسـع فى الدنيـا ومال الى الزهـد

فقلت استمع منى الجواب ولا تكن غبيـا جهولا للحقـائق كاللد
فان الذى عنـه سـألت مجاهر بنفى الاله الواحد الصمد الفـرد
ونفى نبـوءات النبيين كلهـم فما أحمد الهادى لدى ذاك بالمهدى

وتصويب أهل الشرك فى شركهم فما أبو لهب الا كحمزة فى الجـد
ألا ليت شـعرى أى دار أزورها فقد طال فكرى فى الوعيد وفى الوعد
اذا ما ذكرت الذنب خفت جهنما فقال: الرجا بل غير هذا ترى عندى
أليس رحيما بالعبـاد وغافـرا لما ليس شركا قاله الرب ذو المجد
فقلت نعم لـكن أتانا مقيـدا بما شاءه فافهم وعض هنـا الأيدى
فهل أنا ممن شـاء غفـران ذنبـه فيا حبذا أم لست من ذلك الورد
هنا قطع الخوف القلوب وأسبل الـ دموع من الأبرار فى ساحة الخلد

قصدت بهـذا النظم نصح أحبتى وأختمـه بالشـكر لله والحمـد

(٤)

فى هذا الوقت الذى اشتبك فيه ابن الامير مع الحركة الوهابية مؤيدا ثم معارضا كان قد عاد من منفاه الذى لجأ اليه من عام ١١٣٩ هـ — الى عام ١١٤٨ هـ هربا من الفتنة الثـانية التى حدثت بين بيت اسحق وبين المنصور حسين بن المتوكل . وبعد أن عاد بثلاثة أعوام ١١٥١ هـ استطاع آن يخطب الجمعة فى جامع صنعاء وأن يتصدر للتدريس والوعظ والتذكير .

وما أن يصل ابن الامير الى هـذه المـكانة حتى هب ريح الخطر على العصابة التى عبر عنها فى تلك الأبيات الرائعة التى صدرنا بها هذا الكتاب .

فيقدم جماعة منهم ويحررون رسالتين الى المنصور حسين للأيقاع بابن الامير واتهامه بتهم تسوقه الى نطع السياف ، ولكن ابن الامير يسارع الى المنصور فيناقش الرسالتين فى أناة وسعة عقل حتى يسفه ما جاء فيهما تسفيها لا يملك المنصور أمام قوة حجته الا الاقتناع .

ويعود ابن الامير الى مسجده ومدرسته . واستطاع أن يحدث ثورة أخرى فى أسلوب الخطبة وموضوعاتها :

بدأ بالأسلوب فارتجل الخطبة فى عام ١١٥٤ هـ دون الرجوع الى قرطاس وكانت ضجة أعقبها امتحان لقدرة الأمير على الارتجال ومفاجآت له لسبر غوره خرج منها ابن الامير منتصرا عملاقا .

وخرجت الخطبة على يديه من الشكلية والحدودية فامتدت الى الأحداث الجارية يفندها ويبين رأى الشرع فيها ويبالغ فى النصح والتذكير .

وكان له فى كل يوم مجلسا علم أحدهما بعد صلاة العصر والآخر بين المغرب والعشاء . ولم تكن دروسه أقل من خطبة ثورية وتناولا للأحداث وزجرا عن المعاصى وترغيبا فى الحسنات .

وامتدت مدرسة ابن الأمير تغزو « الهجر » تلك المدارس التى كانت عدة بيت القاسم فى تسكين العامة وتخديرهم ونشطت هذه المدارس فى صنعاء وحوث وذمار وكوكبان وشهارة وظفير حجة . وأصبح فيها علماء يحملون الراية ولهم أتباع استنارت عقولهم واستنارت بصيرتهم .

وكان الامام لايقوى على أن يمس شعرة لابن الامير بأذى وكان ذلك كفيل بأن يشعل ثورة فى البلاد وأن يشهر به خارج البلاد .

ولكن هل يسكت بيت القاسم أمام هذا الخطر الداهم وفى السكوت قطع لكل أمل لهم فيما هم فيه من استغلال البلاد واذلال العباد .

لم يسكت بيت القاسم وتزعم حركة الثورة فيه أحفاد الحسين بن المهدى أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد :

وأتيحت الفرصة الأولى للمتآمرين فى عام ١١٦٦ هـ عندما خطب الأمير خطبة الجمعة فى جامع صنعاء وكان المسجد قد ضاق بالمصلين فاحتل كثير من الناس سطح الجامع وخشى الخطيب على الناس ما يلاقون من مشقة ووجدها فرصة ليتخلص من بدعة ابتدعها بيت القاسم : ألا وهى ذكر القاسم ابن محمد فى كل خطبة .

ولم يكن ابن الامير يهتم بذكر القاسم أو عدم ذكره . فقد ذكره فى خطبه السابقة ولكنه أراد أن يمحو من أذهان العامة هذا الاعتقاد السائد أن الخطبة

لا تصح الا بذكر القاسم . ثم تناول فى خطبته بدعا أخرى وهى الجمع بين
وهنا يتحرك محمد بن على بن الحسين (١) وهو من رؤساء الدولة وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصه :

« من جمع بين الصلاتين لغير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر »

وهنا يتحرك محمد بن على بن الحسين . وهو من رؤساء الدولة وآل الامام الا أنه خال من العلم .

وشايعه على بن عبد الله بن القاسم بن المؤيد محمد بن القاسم وكان يدعى العلم وتابعهم جماعة .

والحق يقال أن بعض العقلاء من بيت القاسم حاولوا أن يثنوا الجماعة عن هدفهم كما فعل محمد بن اسحق ولكنهم لم يفلحوا . وكان العباس بن الحسين بن القاسم هو المتربع على العرش حينئذ . وأحس العباس بالخطر يتنازعه من جانبين :

— تجمع بيت القاسم الذى يهدده شخصيا .

— ودعوة ابن الامير التى تهدد بيت القاسم .

وأراد العباس أن يوازن بين خطورة أى من الفريقين عليه وعلى ملكه فناقش محمد بن على عندما ذهب اليه على رأس المتآمرين وكان مما قاله له : (ان الأمر هين وأنه سيأمر الخطيب ألا يعود الى الترك) . ولكن الرجل لم يقتنع . فلا شك أنه كان يستهدف من وراء هذه الحركة التسنم عليها الى ما هو أكبر وتأكد العباس من هذا عندما هدده بأنه سيقتل ابن الامير ان لم يحسبه .

حينئذ عرف العباس طريقه . فدعا ابن الامير اليه ليناقش خصومه . وكانت التهمة الأولى ترك ذكر القاسم فى خطبة الجمعة . وأجابهم الامير بأن ذلك لا يخل بخطبة ولا صلاة ثم واجهوه بالتهمة الثانية فى خبث :

لم ينكروا عليه انكاره للجمع بين الصلاتين لغير عذر وانما ادعو أن

---

(١) نشر العرف لزبارة

ما يأخذونه عليه استشهاده بحديث ضعيف وهو (من جمع بين الصلاتين لغير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر) فلم ينكر ابن الامير أن الحديث ضعيف وأخذ يتتبع لهم أسانيده فقد رواه حنش الصنعانى كما رواه الترمذى وذكر تضعيفه .

ولكن (العمل (١) عليه عند أهل العلم وعليه كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنه بقى ثلاثا وعشرين سنة لا يصلى الصلاة الا توقيتا ثم هو دليل أهل المذهب القائلين بجواز الجمع لعذر . والخطبة انما شرعت لحث الناس على أفضل الأعمال) .

واستمع المجلس الى كراسات الأقزام بما فيها من جهل وتضليل واستطاع العباس أن يحول الموقف كله لصالحه :

أمر أن يحبس ابن الامير فى دار النقيب الماس أحد مماليكه وقواده ففرق الجموع المتعطشة الى دم الشيخ الفانى .

ثم أوهم أتباع ابن الأمير أن الحكم ليس حبسا وانما هو توقيف فى دار الأدب . وأوعز الى النقيب الماس أن يحتفل بابن الامير ويكرمه حتى لا يثير ثائرة انسان .

وفى غمرة تفرق الجموع بعد الانتصار الذى أحرزه أبناء القاسم امتدت يد العباس فألقت القبض على زعماء الحركة .

أما على بن عبد الله فبقى فى حبسه خمسة عشر عاما .

وأما محمد بن على بن الحسين فقد زج به فى السجن ولم يشم ريح الحرية بعدها حتى مات فى عام ١١٧٣هـ واستصفى أمواله وخيله واستحوذ على الاقطاعيات التى كانت تحت يده فى ضوران وآنس وما اليها وبلاد حبيش

وكأن العباس كان يتلهف لهذه الحركة حتى يتخلص من أخطر منافسيه ويفرق شملهم قبل أن يستشرى شرهم كما حدث من بيت أسحق فى عهد أبيه.

ولنترك لابن الامير فرصة الحديث عن هذه الحادثة اذ يقول :

(من الحوادث فى سنة ١١٦٦ هـ أنه اتفق أن أول جمعة من جماد

---

(١) ديوان ابن الأمير

الأول سنة ١١٦٦ هـ خطبنا على القاعدة فى جامع صنعاء ولنا قاعدة أنه اذا اتفق تطويل فى الخطبة الأولى الوعظية أن نختصر الخطبة الثانية وندعو للخمسة أهل الكسا تفصيلا ثم ندعو للآل جملة • ومرت لنا أعوام على هذا الأسلوب ومنها تلك الجمعة) .

(فألقى الشيطان فى قلوب جماعة من الرعاع وجهال بيت الامام القاسم أن الخطيب ترك ذكر جدكم الامام القاسم والدعاء له .

فاجتمعوا وقصدوا جماعة من أعيان بيت الامام وكبرائهم مثل المولى العلامة محمد بن أسحق رحمه الله . ودخلوا عليه وهم جماعة كثيرة . وعرفوه بهذا الواقع من الخطيب .

فأجاب عليهم بجواب العلماء وأن هذا الذى تركه ليس بواجب ولايخل بخطبة ولا صلاة . وهجن عليه ما اجتمعوا له ووبخهم .

وما زالوا يمرون على الأعيان حتى انتهوا الى محمد بن على بن الحسين ابن المهدى وهو من كبار بيت الامام سنا الا أنه عار عن حلل العلم والتقوى. فوافق فى نفسه على خليفة العصر هوى (١) . فقام بهذا الأمر وتولى كبره ودخل على الخليفة . فعرفه الخليفة أن الامر سهل وأنه يعرف الخطيب ألا يعود الى ذلك .

فما أقنعه جواب الخليفة ولا أرضاه . وأصر على اتباع هواه وأنه اذا لم يحبس الخطيب فانه سيقتله . وهاجت العامة وكثر « الهدار » .

فألهم الله تعالى الخليفة أن طلب محمد بن على والجماعة الذين من رعاع بيت الامام الى القصر . فاجتمع الخطيب ومحمد بن على فى موقف الخليفة وذكر الخليفة للخطيب ما أنكره العامة .

فأجاب بأن هذه قاعدة له عند اطالة الخطبة الأولى ولم يخل ذلك بخطبة ولا صلاة . وبمثله أجيب على محمد بن على ثم ذكر الخليفة حديث الجمع بين الصلاتين وأنه قال العلماء أنه ضعيف وأنه ذكره الخطيب وأراد به حديث « من جمع بين الصلاتين لغير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر » .

---

(١) وهذا يشير الى ان ماصنعه العباس بعد ذلك لم يكن غضبا لابن الامير وانما كان تصفيه لهذه الجماعة التى خشى العباس أن تهدد ملكه .

فأجاب الخطيب بأنه كما قال العلماء حديث ضعيف من رواية حنش الصنعانى . ولكنه رواه الترمذى وذكر تضعيفه ثم قال « والعمل عليه عند أهل العلم وعليــه كان عمل رسول الله صلى الله عليــه وسلم فانه بقى ثلاثا وعشرين ســنة لا يصلى الصلوات الا توقيتا . ثم هو دليــل أهل المذهب القائلين بجواز الجمع لعــذر . ثم ان الخطبة انما شرعت لحث النــاس على أفضل الأعمال » .

فقال الخليفة للخطيب : « فقد رأيت أن تبقى فى دار الادب » فقــام الخطيب الى بيت بعض أمراء الخليفة .

ثم نهض الخليفة من مقامه وأمر بحبس محمد بن على وقبض خيله أربعة عشر عنــانا وقبض البلاد التى كانت اقطاعا له وهى ضوران وحبيش وبقى فى السجن من تاريخه الى وفاته فى يوم عرفه ١١٧٠ هـ نسأل الله رضاه وحسن الخاتمة .

وأمر بحبس بقيــة الجمــاعة الزعاع من آل الامام وهم نحــو ثلاثين نفسا (١) .

(وكان السبب الحقيقى للجماعة الذين تجمعوا وتحــزبوا اشــتغال الخطيب بعلم السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتدريس فيها والتأليف والدعاء اليها ونشرها فوق المنابر وميل أكثر الناس اليها) .

(وفى أيام البقاء فى السجن كتب الله أن النقيب الماس وجماعة ممن اتصلوا بنا مالوا الى تعلم السنة واشتغلوا بعد ذلك بها ولما خرجنا وصلوا وقرأوا علينا مؤلفنا « سبيل السلام » وصلحوا صلاحا حسنا وحافظوا على الجماعات فى أوقاتها . وانتشرت السنة انتشارا حسنا بحمد الله سبحانه) .

(وكنت قلت أبياتا الى اخوانــا من أهل مكة المشرفة أصــف لهم الواقع واستمد دعاءهم وأذكر لهم ما نقم منا أهل جهتنا وهو دعواهم أنا خالفنا أهل البيت فى مذهبهم وأنهم يرموننا بمخالفتهم منذ أربعين سنة .

---

(١) ويؤكد أمر الحبس لرعــاع بيت القاســـم أن المؤامرة كانت على الملك أصلا وانما اتخذت الحادثة الدينيه سبيلا لمهاجمه العباس وتستروا وراءهــا كما يحدث دائما من هذه الأسرة من اتخاذ الدين ستارا للوثوب على الحكم .

بسبب اشتغالنا بنشر السنة واعلائها وأوضحت فى الأبيات أن مذهبهم هو الذى اتبعناه .

وأرسلنا بعد أن من الله — وله الحمد — بالخروج من القصر ولنا فى نشر السنة النبوية من سنة ١١٣٢ ولله الحمد وقد نشرها تلاميذنا فى الجهات والحمد لله كثيرا بكرة وأصيلا ، والأبيات هى) .

والقصيدة طويلة تناول فيها ابن الأمير مؤلفاته وأشاد بتلاميذه وأساتذته وجهوده فى نشر السنة نجتزىء لك منها :

لقد صدرت الى أعلا مقام ... لا علام لأعلام كرام

وانى بالقضا راض وانى ... أعد الحبس فى المنن الجسام
ألام على محبته وهديى ... بسنته وأن بها غرامى
وقد عجنت محبته بلحمى ... وقد خلطت بسنته عظامى
فلست بتارك أبدا حماه ... ولو أنى لقيت به حمامى
وأنكر منهجى قوم حيارى ... رمونى بالسهام مع الملام
أحاط بهم سرادق كل جهل ... فما يمشون الا فى التعامى
ومن لبس الجهالة وارتداها ... رأى منها المناسم كالسنام
يقول الجاهلون هجرت علما ... لأعلام من الآل الفحام
أما علم الجهول الفدم أنى ... من الآل الجحاجحة الكرام
حرام أن تقلدهم وتضحى ... مقودا كالبهيمة بالزمام

أروم حياة سنته بجهدى ... فراموا أن يلقونى حمامى
وقد عوديت فيه فما أبالى ... بما لا قيت من كرب عظام
نشرت على المنابر ما طووه ... بلا خوف هناك ولا احتشام

ثم لنستمع الى بعض ما قاله ابن الأمير فى السجن عن السجن :

اذا كان حبى أحمدا وحديثه ... يعدونه ذنبا فلا زلت ذا ذنبى
فلى أسوة بالمصطفى ووصيه ... فقد حبسا من قبل فى ذلك الشعب
ولست أبالى أن جفتنى عشيرتى ... وربى راض فهو من دونهم حسبى

وكان أشق شيء عليه في سجنه هذا الازعاج المتواصل الذى يسببه العمال اليهود وهم يعملون فى سك النقود « دار الضرب » .

وجاورت«دارالضرب» كرهاوبئس‌ذا ... جوار يهود مالهم فى الهدى سبت
مطارقهم هن الطوارق للفتى ... فما لمنام العين فى قربهم بخت
فأنشدت بيتا قد تقادم عهده ... ولا عوج فيه لمثلى ولا أمت
ومن أعجب الأشياء أنى مسلم ... حنيف ولكن فى خير أيامى السبت

كما أتيحت الفرصة الثانية فى أوائل عام ١١٨٢ هـ عندما فر عبد الله ابن يوسف بن القاسم بن الحسين وهو حفيد آخر للحسين بن المهدى الى جبل برط يتزعم حركة للوثوب على الحكم ولكنه يتحايل على هذه الحركة فيحاول أن يستثير القبائل للدفاع عن المذهب ويعلم الله أن هذه الحجة كانت ستارا يختفون وراءه جميعا .

كان هو يطمع فى الوثوب على الحكم أو توسيع اقطاعياته وكانت القبائل قد شاقتها الخلافات بين الطامعين وشاقها أكثر من ذلك الهجوم على القرى والمدن وعلى صنعاء بالذات تسلب الآمنين أموالهم وتعتدى على حرماتهم .

ودفع عبد الله بن يوسف العلماء ليكتبوا الى زملائهم فى مختلف البلاد يستنهضونهم للقضاء على حركة ابن الأمير .

ومما زاد فى تحزب بيت القاسم وحقدهم على ابن الأمير أن عالما من تهامة يدعى حسين النعمى وفد الى صنعاء وعينه العباس اماما لمسجد القبة الذى انتهى من بنائه حديثا . فاذا بهذا الوافد يقرأ كتب السنة ويعلمها للناس وكثر الآخذون عنه من الخاصة والعامة . وأصبح الجامع الكبير ومسجد القبة يأخذان بتلابيب المتزمتين فى صنعاء .

وكانت المظهريات التى يحرص عليها دعاة المذهب — تلك التى يتمسكون بها ويستقرئون منها ولاء العامة لهم وارتباطهم بهم — قد بدأت أفكار العامة تتسع لها ولغيرها فكنت ترى المصلين يتجاورون فى تسامح أخوى :

بعضهم يرفع يديه عند تكبيرة الاحرام وآخرون يتركون ذلك .

هؤلاء يضمون الأيدى عند القراءة وأولئك يرسلون وكان هـذا فى نظر المتاجرين بالحكم كبائر ترتكب ومنكرات تستحدث لأنها تفسد البقرة الحلوب على حالبيها .

كتب علماء برط الى علماء المدن أن حسين النعمى (والسيد : البدر محمد بن اسماعيل الأمير خالفا المذهب فوصلت رسالة منهم الى المهدى والى بعض الحكام وعرضت على علماء صنعاء وعلماء مدينة ذمار ومدينة حوث فأجاب العلماء فى المدن المذكورة بجوابات مقنعة وأعظمها جواب السـيد العـلامة امام العـلوم زيد بن يحيى بن أمير الدين عالم حوث والمرجع فيها . ثم وبخهم أن يصلحوا أنفسهم عن خروجهم من بلادهم لنهب الرعايا والمحارم) .

وحرر البدر الأمير رسالة ذكر فيها من قال بالتأمين (١) من أهل البيت . وأجاب حسين النعمى عن المعترضين وأطال الكلام فقنعوا بالجواب مدة ثم بدا للمهدى أن يرضى حسن أحمد البرطى لكثرة الخوض منه بمنع التأمين .

فأمر المهدى متولى وقف صنعاء الشيخ عبد الله محيى الدين العراسى أن يأمر المؤذن بجامع صنعاء . أن يعلم الناس بذلك (٢) .

---

(١) قول المأموم آمين عقب قراءة الفاتحة

(٢) لم يكن المهدى عباس يهتم من كل ذلك الا بالحرص على المظهريات التى تؤكد ولاء العامة للمذهب الذى هو ولاء للحكم فى الوقت نفسه وقد ظل الأئمة يقيسون نفوذهم بمثل هذه المظاهر كقول آمين وقدر النذور التى تصـل اليهم من الرعايا .

وقد حدث أن زار قاضى حضرموت الطاغية يحيى وأثناء رحلة القاضى من تعز الى صنعاء مر بمدينة ذمار وكان الرجال الذين عينوا لمصاحبته من الشافعية وهو أيضا شافعى المذهب وعند الصلاة فى مسجد ذمار جهروا بقول آمين . وبعد أن انتهت الصلاة . استنكر المتزمتون ذلك من الضيف وصحبه قائلين (موسيقى فى المسجد) .

وعندما دخلوا على الطاغية كان أول سؤال لهم : زرتم ذمار ؟ نعم ؛ وقلتم آمين ؟ نعم قلنا آمين .

ومنع عامة الناس بصنعاء حتى الشافعية والحنفية . فقيل له فى ذلك فقال من كان من مذهبه قولها قالها سرا . فتحزب الناس حزبين) .

وفشلت الحركة التى كانت تنذر بشر كبير والتى كان المقصود منها فى الحقيقة اسقاط حكم العباس ونهب عدد من المدن والقرى وفى الظاهر كان الهدف اخراج ابن الأمير من صنعاء وطرد العالم الحر الذى أنكروا عليه حريته وعلمه وأصالته فى المعرفة حتى تساءلوا عن شيوخه ومعلميه .

وفى غمرة هذا الغليان الذى تقلب بالناس وخلط بين عالمهم وجاهلهم وقانعهم وطامعهم خرج علينا ابن الأمير بتلك القصيدة التى يكاد يختتم بها حياته الشعرية والتى يبلغ فيها قمة الايمان والتصميم على مذهبه الذى تقاضاه خمسين عاما من حياته الخصيبة .

نصف قرن من الزمان تنفق فيها الساعات بكل عزم وثبات فى سبيل الدعوة لأحياء السنة والرجوع الى كتاب الله وطرد هذه العصابة التى زادت على الآلاف تنهش فى أعماق الشعب العظيم .

لم تشبع يوما ولم تقنع .

ولم يستطع الشعب أن يجد من نهمها خلاصا .

وقد فعل فى ليلة السادس والعشرين من سبتمبر .

ومذهبى التوحيد والعدل لاسوى	وهذا لعمرى دين كل موحد
كذلك تفسير الكتاب حفظته	ودرست فى التفسير كل موحد
على كل كرسى وفى كل مسجد	فكل بما قلناه يهدى ويهتدى

وأصلحت ما بين الأئمة قد جرى	وأطفأت نارا شبها كل مفسد
ثلاثة أصلاح ورابعها الذى	جرى بين مولانا الامام وأحمد
ولم أرد الدنيا الدنية أو أرد	عمارة قصر فى أزال مشير

ولا قطعة اقتطعتها أو ولاية   كما هو دأب الناس فى كل مورد
ولا كيلة لى من زكاة ولم أذق   لها حبة ولا لمست يدى

فكان علينا واجب كشف جهلهم   بنظم كدر فى الطروس منضد
أما فيكم من يستحى من الهه   أما فيكم من يرهب الخزى فى غد
أما فيكم من راقب الله ساعة   وتاب فقد أفسدتم الأرض عن يد
لكم كل عام مخرج تخروجونه   لنهب الرعايا فى اعانة مفسد
وما الله عما تعملون بغافل   وربك بالمرصاد فلنترصد

وقلتم بأنا مخرجون محمدا   وأهليه من صنعا بغير تردد
كذبتم ويأبى الله والله غالب   ولن ينصر الرحمن أفعال معتد

أجاب عليكم أهل حوث وبينوا   لكم كل بحث بالدليل المؤكد
وقد نصحوا لو تقبلوه وانما   جوابكم فى غلظة وتشدد
دليل على أن العناد مرامكم   ومن عاند الحق القويم فمعتد
ومن كوكبان قد أتتكم نصائح   وفيها براهين بقول مجود
ومن سفح صنعا من امام معارف   ومن باذل نصح العباد ومرشد
كذا من ذمار قد أتتكم رسائل   وليس يرد الحق من كان يهتدى
ووالله ما يسألكم عن مذاهب   شغفتم بها جهلا على غير مقصد

وقد أبرزت هذه الثورة مكانة ابن الأمير ومدرسته وعمقها وتغلغلها فى ربوع اليمن .

واستطاعت المبادىء أن تعلو على الأطماع .

واستطاع الشيخ وهو فى عشر التسعين أن يقهر بالكلمة تكالب الأعداء وأغراض المغرضين استطاع الشيخ أن يمد يده على ييوع اليمن ليسيطر عليه :

لا بالسيف ، ولا بالمال ، ولا بالمؤامرات . ولا بتسليط الناس بعضهم على بعض يتصارعون كالذئاب الجائعة .

ولكن بالدعوة الخالصة المؤمنة البرة الرحيمة بالكتاب والسنة .

ولئن كانت الدعوة قد أصابها الضعف بعد ذلك بسيف الحجاج وذهب المعز فان قبسا من نورها لم ينطفىء على مـدى الأعـوام . وظل يهـدى السارين حتى تفجر باهر الأضواء فجر السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ م .

وكان الشيخ قد أرهقته الأيام ونالت من قواه ما تستجد به من أحداث وآن للغريب أن يعود الى مستقره .

وقد ودع الدنيا برا رحيما محمود السيرة بعـد هذه الحادثة بأشهر قليلة .

اختاره الله الى جواره فى الثالث من شعبان عام ١١٨٢ هـ .

الفصل الثالث

فساد الحكم ودعوة الاصـــلاح

فيا عُصْبةً ضلّت عن الحق والهُدَى ... ومالت إلى أَفْعَالِ طاغٍ وفاجِرِ
بـأَىِّ ملوكِ الأَرضِ كان اقْتِداؤكم ... فما لَكُمُ فى فِعْلكم من مُنَاظِر
أَنَافَسْتُم الحجّاجَ فى قُبح فعلِه ... فَفِعْلُكُمُ فى الجَوْر فعلُ مُفاخِر
يُفديكمُ إبليس حين يَرَاكُم ... يقول بِكُمْ والله قرّتْ نواظِرِى
نبذتم كتاب الله خَلْفَ ظُهُوركم ... ولم تَعْمَلُوا منه بِنَصٍّ وَظَاهِر

خَرَاجِيةً صيرتم الأَرضَ كلَّهَا ... وضَمَّنْتُمُ العمَّال شَرّ المعَاشِر
لِذاكَ الرَعايا فى البلاد تفرقَتْ ... وفَارَقتْ الأَوْطان خَوْفَ العَسَاكِر

ويا عُصْبةً من هاشم قَاسميّة ... إلى كَمْ تَرَوْنَ الجَوْر إِحْدَى المفاخر
أَتيتم بـأَصناف الضلالات كلِّها ... وجئتم بـأَنواع الأُمُورِ المنَاكِر
ففى «بُرْدُقَانٍ» أُنْفِقَتْ وحَشِيشَةٍ ... وخمْرٍ لِخَمَّارٍ ولهْوٍ لسامر
ملأْتم بلاد الله جَوْرًا وجئتم ... بما سُوّدت منه وُجُوه الدّفاتر
ووليتم أَمر العباد شراركم ... وخوّلتم أَعمالكم كل ماكر

ويا وزراءَ السّوْءِ ياشَرّ فِرْقَةٍ ... وأَخْبَثَ أَعْوانٍ لناهٍ وآمر

(١)

الفوضى التى شملت اليمن فى هذه الفترة وألوان الفساد التى سيتعرف القارىء على صور عديدة منها لم تخف ولم تتغير حتى قامت الثورة .

وقد يقف القارىء العربى أمام بعض الحوادث مستنكرا مستغربا لبشاعة ما يقرأ . ولكن القارىء اليمنى سيجد هذا الذى كان مكررا فى حياته وفى عهد أسرة حميد الدين .

وما تكاد تقرأ الحادثة حتى تسمع من الشيوخ عشرات الحوادث من أمثالها حدثت لهم أو اتفقت لأهلهم وذويهم على مدى الأعوام التى عاصروها.

ولذلك فان هذا الفصل يعطى صورة ليمن قبل الثورة وبنفس الدقة للصورة التى يقدمها عن تلك الفترة التاريخية التى عالجناها .

وسنترك للقارىء الحكم الذى يستخلصه بنفسه من استقراء ما سيعرض عليه .

وقد حاولنا جهد المستطاع أن نترك للمؤرخين الذين عاشوا فى ظل الأسرة الحاكمة أمانة النقل .

واذا كان المؤرخ الذى حاول أن يبرز المحاسن ويبالغ فيها ويستر العيوب ويبالغ فى سترها . اذا كان هذا المؤرخ قد ألزمته حتمية الحوادث بذكر بعض ألوان الفساد فان ما يختفى وراء كتاباته أضعاف مضاعفة عما سجله .

وأول مايطالعنا من صور الفساد فى هذا العهد هو فساد الأئمة أنفسهم واستهانتهم بكل المقدسات فى سبيل الوصول الى الحكم وأمام هذا الهدف كان الاغتيال وسيلة مشروعة فى سياسة الحكم . وكانت العهود مهما بولغ فى توثيقها لاتساوى الورق الذى سطر تعليه وكانت الصلات

الانسانية بين الناس معانى لايتطرق اليها الذهن حتى خان الابن أباه وأوقع الأب بأبنائه وتآمر الأخ على أخيه .

وكانت المقدسات الدينية مظاهر يحرص عليها ووراء هذا الستار ترتكب الجرائم وتقترف الكبائر فى سهولة لا يخشى معها رجعة ضمير .

وكان الأئمة فى سبيل أطماعهم المادية يسرقون وينهبون ويصدرون الأحكام الشرعية تغل عليهم وتملأ خزائنهم وتسكت خصومهم وترضى أنصارهم . حتى تحول اليمن الى اقطاع شرير وتاجر الأئمة فى العملة التى يضربونها وغيروا فيها وبدلوا لتدر عليهم كسبا غير مشروع . وأباحوا البلاد لأنصارهم يسلبون الرعايا ويعتدون على الحرمات .

وبالتالى أصبح السلب والنهب والاعتداء على المحرمات حقا مكتسبا للخصوم .

ونشأ فى ظل الفساد عمال لايرحمون وقضاة من طغام الناس وجهالهم وجنود لا يرعون لله حقا . وأصبحت الرشوة شريعة والاغتصاب قانونا والمتاجرة فى الخصومات مغنما لحاشية السوء .

ونشط نفوذ اليهود فى صنعاء يعملون على انهيار هذا المجتمع وانتشرت المغانى والمواخير وبيعت الخمور علنا .

وأصبح الانسان الصالح غريبا فى المجتمع اذا اعتزل الناس اتهم فى ولائه أولا ثم فى دينه ثانيا . واذا تولى عملا وأرضى ربه وضميره تتبعه عمال السوء بالرشاوى والوقيعة حتى يعزل فان لم يستطيعوا اغتالوه .

وأيم الحق لا تتجنى على الحقيقة ولكننا سنعرض بعض المآسى التى حدثت فى هذا العهد قبل أن نعرض لصلة ابن الأمير وجهاده لاصلاح الحكم على النهج الذى رسمناه لهذا الفصل .

الاغتيال ونقض العهود :

× فى الثورة التى حدثت ضد صاحب المواهب وبعد ثلاثة أعوام من حكمه انضم الحسين بن عبد القادر الكوكبانى الى خاله على بن أحمد بن القاسم صاحب صعدة .

وفى احدى الحملات التى جهزها صاحب المواهب كان اسماعيل ابنه قائدها فلما وصل اسماعيل الى عمران وأرسل الى الحسين بن عبد القادر فى كوكبان (مرسوما (١) من والده أنه يكون كفارة خروجه مع خاله على ابن أحمد بن القاسم الخروج عليه مع ولده اسماعيل وأن الحسنات يذهبن السيئات)

(فغره ذلك وتحمل بمن معه من العسكر والخيل) فلما وصل عمران فرق جميع أصحابه ولبث عند اسماعيل بن الناصر (٢) الى الليل ثم أبرز له مرسوما آخر يتضمن الأمر بايداعه السجن بقصر صنعاء) فسرى به ليلا وذلك فى سنة ١١٠٤ هـ ولبث فى السجن الى سنة ١١١٠ هـ) .

× قال لطف الله جحاف فى حوادث سنة ١١٢٥ هـ)

(وكان فى هذه الجهة الفقيه حسن بن صالح كعيبة من خواص أصحاب المنصور فعامل عليه ابن الأحمر حتى قتله وأرسل برأسه الى وادعة) ومن وادعة أرسل الرأس الى المواهب) .

× ويترجم ابن الأمير لأحد تلاميذه ويدعى محمد بن اسماعيل العيدى فيقول :

شاب نقى عن العيوب تقى نشأ فى طلب العلم والأدب ودرج الى رحمة الله شهيدا قتله بعض السادة الحمزات الذين بجهات صعدة جهارا نهارا فى قبة الامام الهادى يحيى بن الحسين بصعدة رحمه الله تعالى .

(١) من نفحات العنبر .
(٢)هو المهدى صاحب المواهب .

× ونرجو أن يرجع القارىء الى الطريقة التى اغتال بها المنصور حسين صديقه على الأحمر الحاشدى فى بداية حكمه .

× وأثناء وجود ابن الأمير فى منفاه بشهارة حاول المنصور حسين أن يستقدمه اليه بشتى الوسائل فى سنة ١١٤١ هـ .

أرسل اليه بكتاب يتضمن تأمينه وأشهد على كتاب الأمان حكام الشريعة وبلغ هذا الخبر تلميذ ابن الأمير الحسن بن اسحق وهو فى سجن صنعاء ، فسارع بالكتابة الى أستاذه بشهارة واستعمل التورية فى شعره .

لا تركنن الى أمانى الغيد فأمانها والله غير مفيد

وحذار ثم حذار منها انها جبلت على ألا تفى بعهود

فلكم قتيل من سيوف لحاظها ولكم أسير موثق بقيود

لايخدعنك لين منطقها ولا قسم يحف بأحرف التأكيد

وكذاك أن قبلت شفاعة شافع رأت الوفاء لذاك غير سديد

وضمانة الوجه المنير عن الرثا سفه أعيذك بعد لطم خدود

وكذاك ان كتبت أنامل كفها خط الأمان مؤكدا بشهود

لا تأمنن فكم رأيت مؤمنا غدرت به والغدر شأن الغيد

فاقبل عداك الحب نصح مجرب قتلته بيض بالعيون السود

والبعد عن سفح الغوانى نعمة عظمى بها يختص كل سعيد

وذات الدل واللحظ والغدر هذه انما يعنى بها المنصور حسين وما يفعله بخصومه .

قسوة القلوب :

× محمد بن الحسين بن عبد القادر كان ممن خرج على القاسم الرهيب ولنستمع الى قليل من أخباره وأخبار القاسم وابنه الحسين نقلا عن زبارة فى نشر العرف .

وغزا الحسين بن المتوكل شبام (فاستولى عليها وأخذ أصحابه معظم ما فى دور أهلها ونالت عائلة « محمد بن الحسين » بـذلك ما نالت من الشدائد وقبض عليه الحسين وسار به الى والده (ولما وصل الى باب المنجل بالجهة الغربية الى الشمال من ضواحى صنعاء أرسل المتوكل (القاسم) السيد الحسين بن يحيى الأخفش لغل « محمد بن الحسين » بالحديد وادخاله صنعاء واستمر وقوفه ومن معه أيام المتوكل على تلك الحال من شروق الشمس الى قريب صلاة العصر . وأمر المتوكل بقيده ثم بدا له أن يرسل به مقيدا الى حبس « زيلع » من جزائر اليمن على ساحل البحر بعد أن يطاف به مدائن اليمن ونال « محمد بن الحسين » من المحن والشدائد والأهوال مالم يخطر له ببال) .

× فى سنة ١١١١ هـ حدثت فتنة أحدالثائرين المنجمين تعرف بفتنة المحطورى . وقد أرسل صاحب المواهب ثلاثة من أولاده على رأس جيش كثيف لقتال المحطورى (١) وعند وصولهم الى قرية ريمة ابن حميد من بلاد سنحان التقاهم أهل مدينة ثلا بسبعين أسيرا من أتباع المحطورى وأجناده فأمر « محسن بن المهدى » بارجاعهم صحبته الى صنعاء ثم أمر بضرب أعناقهم بباب مسجد وهب بن منبة) .

× وبعد خمسة أعوام أمر صاحب المواهب بالقاء القبض على ابنه محسن — صاحب الواقعة السابقة — لأنه ظن أنه يسعى للملك وبعد أن مكث ستة أعوام فى سجن صنعاء طلبه (فسار (٢) اليه مضبوطا فحبسه فى ذمار وضيق عليه حتى مات فى سجن ذمار) .

وعبد الله ابن صاحب المواهب ألقى به فى السجن من بداية عهد أبيه بالملك . وظل فى سجن الطاغية حتى مات .

ولعل السبب فى ذلك أغرب وأعجب . فقد أرسله أبوه على رأس جيش لمحاربة يوسف بن المتوكل (٢) (فخاف بادرة والده وسطوته فبايع يوسف ابن المتوكل) وانضم الى أعداء أبيه .

---

(١) نشر العرف لزبارة .

(٢) لطف الله جحاف نقلا عن نشر العرف .

× وفى تاريخ لطف الله جحاف أنه فى سنة ١١١٠ هـ تعاظم الظلم من ابن مغلس عامل المهدى صاحب المواهب على بلاد ريمة وبلاد وصاب فاضطروا الى الفساد . فسلط عليهم المهدى الشيخ صالح حبيش وأصحابه فقتل الكثير من أهل البلاد وشرد البعض منهم وكان بعض أصحاب ابن حبيش يقطع أذن المرأة من الرعية طمعا فى الخرص الذى فيها .

وبيعت بعض الآذان بأخراصها فى مدينة صنعاء ولذلك خطب على منبر جامع صنعاء الفقيه محمد صالح العلفى خطبة أنكر فيها فعل ابن حبيش وأصحابه بأهل بلاد ريمة ووصاب وتحريم المثلة بهم .

فغضب صاحب المواهب لتلك الخطبة وأمر بارتفاع ابن حبيش وأصحابه من تلك البلاد ووضع الآداب من المال على أهل البلاد . وهم أن يوقع بالخطيب العلفى وعزل المغربى (١) عن الخطابة للاذن منه للعلفى بالخطبة وحبس العلفى فى حصن عولى) .

× ومن نشر العرف نقلا عن القاضى أحمد قاطن :

(كان فى أيام المتوكل قاسم بن حسين وابنه المنصور حسين ينزل القبائل من حاشد وبكيل فى بيوت يصرفون للبقاء فيها من بيوت أهل صنعاء) .

ويستمر فى روايته حتى يذكر أن العاس بن الحسين رأى (أصحاب « القبيع » يخرجون امرأة من بيتها بقرب مسجد الجديد بصنعاء والمرأة عقب ولادة ومعها صبى فى خرقة وهى تصرخ بصوتها وتبكى لاخراجها من بيتها) .

وقد رأينا من قبل أن المنصور حسين كان يحقد على أهل صنعاء رميه بالعقوق لما وقع بينه وبين أبيه . وأنه اتخذ من انزال القبائل فى ديارهم لونا من ألوان التأديب لهم . وأن القبائل كانت تحتل البيوت لا ترعى لها حرمة

(١) الخطيب الرسمى لجامع صنعاء .

وتخرج أهلها منها لا تفرق بين عالمهـم وجاهلهم وها أنت ترى أنهـا كانت لا ترحم امرأة فى ساعات وضعها الأولى .

وليست صنعاء وحدها هى التى ابتليت بهذا فكل المدن التى مرت بها جيوش الحكام أو جيوش المعارضين لهم لم تسلم من الاعتداء على حرمات أهلها وأموالهم . أرسل المهدى ابنه اسماعيل الى صـعدة فى جيوش جرارة تغلبت على القبائل هناك (وذلت قبائل الشام) وصعدة وفى سنة ١١٠٤ هـ اشتدت وطأة الجند الناصرى المهـدوى على أهل صـعدة وبلادها وتغافل الأمراء عن الانكار ... ظنا أن ذلك من التأديب والهـوان والاصغار فنفرت القبـائل وتحزبت) وتغافل الأمراء عن الانكار وتركهم للجيش يرتكب من الجرائم ما يجب انكاره رغبة منهم فى تأديب الشعب والحاق الهوان والصغار به : هذا يعطى القارىء صورة واضحة عن طبيعة ما كان يفعل بالناس .

ويلقى صاحب نفحات العنبر بعض الضوء عما كان يفعـله الأمراء فى صعدة فيقول « ثم أمر المهدى أولاده باللحوق الى صعدة وأمدهم بالجيوش وكان قدرهم اثنى عشر ألفا . فدخلوا صعدة عنوة فهرب عنها « على(١) بن أحمد بن القاسم » الى بلاد الشام (٢) بجهات صعدة وكانوا له حلفاء وعلى عهده .

ولما استولوا على صعدة عاثوا فيها وشاطروا التجـار وأساءوا السيرة حتى نفرت القلوب منهم وأجمع أهل البلاد أمرهم على حرب أولاد المهدى .

واجتمت كافة القبائل من وادعة وخولان بن عامر وسحار وعمار وجماعة وأحاطوا بصعدة من جميع الجهات .

أطماع لا تنتهى :

رأينا فى الحكم الذى أصدره المتوكل اسماعيل قوله (ما آمر به الامام

(١) أحد أفراد اسرة القاسم الخارجين على المهدى .
(٢) هى مما يلى صعدة ولواء صعدة يسمى لواء الشام .

على الناس أو على بعضهم من نفقة الجهاد مال حقا مستحقا ودينا لازما كالخراج وضربة السيد على عبده) .

وامتداد هذا الحكم وتطبيقه وتفاقمه بعد ذلك ما لا يدخل تحت حصر حتى أصبح الرعايا لا يأمنون على أقواتهم بادرة الأئمة ومن يتعاونون معهم .

وعشرات من القصص عن أولئك العمال والوزراء الذين يملى لهم الأئمة فى تصرفاتهم حتى تتسع ثرواتهم وتمتلىء خزائنهم وفجأة يقرر الامام على الواحد منهم مبلغا من المال « ادبا » يدفعه ويلقى بالرجل فى السجن حتى يحصل منه المبلغ فاذا أدى ما طلب منه عاد الى عمله موفور العافية قادرا على أن يسترد أضعاف ما قدمه فى فترة وجيزة وبأساليب أكثر درية وجرأة مما تعود عليها من قبل .

وقد يخطىء الامام فى تقدير ثروة صاحبه فلا يصرفه عن ذلك الحصول على المبلغ الذى علق بأطماعه بأى وسيلة كما حدث مع القاضى حسين بن محمد العنسى :

(وكان (١) المتوكل قد حول عليه فى أيام عمالته على بعض البلاد بثلاثة آلاف ريال بمجرد قول واش حسود وبعد أن اطلع الامام المتوكل على « حقيقة الحال » أرجع تلك الحوالة على ذلك الواشى المنكود) .

× كتب ابن الأمير عن أحد عمال المنصور واسمه محسن يوسف وكان عاملا على ريمة فقال :

« وكان هذا محسن مظلوما للرعايا تنقل فى الولايات والكتابة منأول الخلافة المنصورية فجمع الأموال من حرام ليس فيها حلال وكان وصل الينا كتاب من بعض علماء مكة أنه وصل الى مكة جماعة من رعية بلاد ريمة يشكون من جور محسن بن يوسف فأجيبت دعوتهم وانحرف عنه قلب

(١) نشر العرف لزبارة .

مخدومه المنصور وأخذ من داره ما يزيد على مائة ألف ريال من النقد ومن غيره من كل نوع ، وقبض المنصور أمواله وهى عديدة من الأطيان وأخـرج أهله من بيته .

ولما مات المنصور حسين انتقلت الخـلافة الى ولده المهـدى العباس أطلق المذكور من السجن وأرجع له أمواله وبيوته على تسليم ثمانية عشر ألف ريال فسلمها وعاد الى بيته وعادت له أمواله) .

وأنت اذا تتبعت أخبار هؤلاء العمال والوزارء والامام نفسه وجدت أنها شركة أو عصابة لسرقة الشعب ، والا فما الذى يدعو أحد الوزراء الى أن يتحمل نصف المبلغ الذى يقرره الامام على أحد العمال .

ولنتابع قصة محسن بن يوسف يرويها غير ابن الأمير نقلنـاها لك من نشر العرف لزبارة وكان قد طولب بتسليم عشرة آلاف ريال مما قبضه .

فقال لا يقدر وتحمل الوزير منها خمسة آلاف ريال معه فأصر على الامتناع وتظلم .

فأمر المنصور بتسمير داره وأنفذ الحراس عليها وحبسه ولما صح تسمير داره بذل تسليم أربعين ألف ريال ولا يكون الاطلاع على ما فى بيتـه فلم يسعد المنصور ، وبعد تفتيش داره — وجدوا فيها من الأموال ما لم يكن فى خزائن الامام ومن النفائس والجواهر ما تحار فيه الافهام مما أخذه بيد الظلم من الأنام . ومن النقد زيادة على مائة ألف ريال ، وبقى فى السـجن حتى أخرجه المهدى العباس .

× ولنترك قصص العمال واستصفاء أموالهم جانبا فانما هى عصابة تتصرف تصرف العصابات ولنأخـذ بعض أخبار من الاعتـداء على أموال الأفراد الذين لا صلة لهم بالحكم وليكن ذلك خبر أديب عالم تاجر اسـمه سعد الدين العـدينى وكان ذا حظ وافر هو وأخـوه وكان ذا مكانة بين العلماء ويكفيه أن ابن الأمير يراسله فيقول :

أحب أناسا فى دمشق وجدة ببغداد أو من حل فى الهندوالسند
اذا كان فى حب الحديث طريقه طريقى يهدى بالحديث ويستهدى
أحبك سعد الدين لا حب واحد يحبك لى والقلب يشهد بالود

جاء فى تاريخ لطف الله جحاف عن هذا الرجل ما يأتى :

(وكان هو وأخوه عبد المولى مطموعا فيهما لسعة أموالهما . أرسل أحمد بن المتوكل أمير تعز رسولا يشخصهما اليه فأشفقا من ذلك . ثم جد فى طلبهما فابتهلا الى الله تعالى بالدعاء أن يكفيهما أمره ، ثم خرجا واستصحبا ثلاثين ألف ريال « فرانصة » (١) يستدفعان بها بلاءه .

فما هو الا أن دخلا باب مدينة تعز واذا الناعية تنعى أحمد بن المتوكل . فعادا وعلما أن الله تعالى قريب مجيب .

وابتلى سعد الدين رحمه الله آخر عمره وأيامه بكف بصره وامتحن بقضية وهى أنه كان بعض قضاة المهدى العباس أشار عليه بأشخاصه من بلدة العدين الى حضرة الامام فأرسل اليه المهدى فاعتذر وشكا الضرر الحادث(٢). فلم يشك (٣) . فسأل الله تعالى وابتهل أن يكفيه ذلك الهم ثم لزم الطاعة وتوجه الى امامه (٤) ــ وكان خائفا ــ فبلغ الحضرة فى حال موت الامام المهدى رضى الله عنه) والدعاء الأخير دعاء من المؤرخ للمهدى لا لسعد الدين .

وحقا ان سعد الدين شيخ فان على خلق وعلى دين شهد له بذلك المسكين .

وحقا ان سعد الدين شيخ فان على خلق وعلى دين شهد له بذلك الجميع .

---

(١) ريالات فضية . ماريا تريزا .
(١) ما أصيب به من كف البصر مع كبر السن .
(٣) لم يقبل عذره .
(٤) برغم الظلم الواقع من الامام على الشيخ المسكين كان جحافا يحاول أن يبرز هذا الظلم ويحيط العباس بقداسة الأئمة وماحدث بعد ذلك هى كرامة من كرامات طاعة الامام وأى امام هذا الذى يسطو على رعاياه ؟!!

ولكن ما فائدة المؤرخ والتاريخ اذا لم يستر هذه المخازى بكل وسيلة.

انحـــلال :

ولا نجد صورة تمثل هذا الانحلال من سيرة هذا المملوك المسمى بسعد يحيى العلفى الذى كان مملوكا للفقيه يحيى بن أحمد العلفى وأعتقه . وكان يعمل مع سيده للمهدى عباس فلما مات الفقيه استطاع المملوك بوسائله أن يستقل بالعمل للعباس .

ولننقل اليك فقرات من حديث المؤرخين عن هذا الرجل ومرجعها الى نشر العرف لزبارة :

(الأمير الماهر البارع سعد يحيى العلفى الحبشى الأصـــل اليمنى النشأة الصنعانى الوفاة) .

« مشغوفا بعمل المركبات المفرطات من المعاجين والمشروبات وكان يتخذ المماليك الحسان لخدمته ... ومواجهة الناس بالديوان . فجمل بهم موقفه . واستمال بهم طباع من لازمه وألفه » .

فكان يوم مواجهته موسما للسرور مطوى الشغلة بكثير من الأمور . ولا يحضره مشايخ الرعايا والتجـــار وأهل الكد والعمـــلة القائمين للدولة بالدار الا وقد فتح فيه للأنس والراحة الباب المنسى بالحساب ، وأمر حسان عبيده بمشاغلة الكتاب فاذا راقت طباعهم ور ق للناظر اجتماعهم : داروا عليهم بالشرابات المخدرة والمعاجين التى تولد خيالا للفكرة ، فيصير كاتب بيت المال كالأعمى لا يفرق بين الاسم والمسمى ، فيكتب ما شاء الأمير ويفوت من الحاصل الكثير) .

× واليك أيضا خبر « الحكيم الخريت الماهر العلامة رزق بن سعد الله محمد » مملوك محمد بن على بن الحسين .

« وحدثنا بعض أصحابه أنه خرج يوما لصلاة العصر بالمسجد الجامع بصنعاء فلقى غلاما جميلا بباب الجامع فقال على البادرة :

يـا منيــة النفس والفــؤاد وسـالب العقــل والرشـــاد
يســرنى أن أرى ضـــجيعا لقـــدك العـــادل المـــاد

وتقدمه الغلام الى الجامع ولما أقيمت صلاة العصر مر من بين يديه قبل أن يكبر فقال حين رآه :

شغلونا عن الصلاة الوسطى .

فضحك أهل الصف الذى هو به .

ولما قضى الصلاة حدث الحاضرين أنه نظم بيتين داخل الصلاة وهما :

الحســن يختلــب العقـــو ل ويلبس الليـــث المـــذلة
وتــرى المصــلى وهــو أشغــ ـل مـا يـكون بريم ابـــله

وليس لنا من تعليق على هذا سوى أن نشير الى الذين يضحكون من مجون الملوك وهم وقوف بين يدى الله تعالى ثم يختمون صلاتهم بالاستماع الى هذا الشعر الرخيص وهم فى الوقت نفسه يفزعون عندما يسمعون مصليا يقول « آمين » خلف الامام وينكرون على أخوتهم فى الدين بعض الحركات التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

استغفر الله ما ذنب هؤلاء وقد ظل أئمــة وقضاة وفقهــاء يلقون على أبصارهم وفى آذانهم حتى التبس عليهم وجه الحق .

× وهذان أخوان عملا للمهدى عباس وهما أحمد وحسن ابنـا محمد الأخفش أما أحمــد فقد ولاه المهدى بلاد تعــز والحجرية وأما حسن فعينه حاكما ((١) وكان الحسن مشاركا لأخيــه فى الأموال التى اكتسباها فيقال انها بلغت تركتهما فوق مائة ألف ريال وكان الحسن محبا للملبوس متأنقا فى المعيشة راغبا فى العمائر) .

(وكان هو وأخوه أحمد من عجائب الزمان وغرائبه تروى عنهما أخبار مضحكة .

(١) نشر العرف لزبارة .

أراد أحمد أن يتصرف ببعض الأموال وهى مشتركة بينهما فأنكر عليه الحسن ، فأرسل اليه رسولا يقول :

« ان أخاك أحمد يقول لك لا تعترض فما سيتربع فى قعر جهنم الا هو لمباشرته للمظالم وهذا من خلاعته وطيشه » .

فساد العمال وافسادهم :

عين الطاغية يحيى أحد العلماء قاضيا وحدد له مرتبا لم يرض به القاضى وراجع الامام فى زيادة مرتبه لما يتحمله من أعباء عائلية لا يفى بها المرتب .

فقال له الامام : خورجها

وآخر فى نفس الوقت أجابه يحيى : اسرق لك

وليست الرشوة واستغلال الناس من الأخبار التى سنعنى بتسجيلها لأنها أكثر من أن تحصى . ولكنا سنختار لك كيف كان العامل لبيت القاسم يسير فى الرعية ثم تضفى عليه ألقاب التعظيم والمهابة ويوصف بكل صفات التقى والورع .

× أحد أبناء القاسم بن الرشيد واسمه عبدالله عين فى عهد أخيه اسماعيل عاملا على ذمار . فكان علاوة على ما يفعله بقية العمال يتتبع الأغنياء والموظفين بالعقوبات المالية .

يستدعى من يقع عليه اختياره منهم ويفرض عليه المبلغ الذى يراه ويزج به فى السجن حتى تصل الأتاوة الى يدى الأمير .

وأسرف الأمير فى ذلك حتى ضج الناس بالشكوى وتحرك من الشاكين أخلص أعوانه .

وتعجب عندما تقرأ سيرة عبدالله هذا فى بغية المريد حتى لكأن صاحب البغية يكتب لقوم لا يفقهون واستمع اليه :

(وكان سيدا نجيبا أميرا جليلا صالحا مهيبا كاملا فى المحاضرات قليل الكلام والحركات له رياسة عظيمة) .

« واستمرت عمالته فى ذمار حتى شكا أهل ذمار الى صنوه المتوكل على الله اسماعيل زيادة التأديب والعقوبة بالمال ورحل حاكم ذمار القاضى العلامة يحيى بن محمد بن على بن معوضة الشبيبى الى الامام المتوكل الى السودة شاكيا » .

وقد لاقى الناس من أبناء الأئمة هؤلاء ومن استهانتهم واستهتارهم الكثير . أليس أدل على ذلك من أن يعين المتوكل اسماعيل ابنه الحسن قائدا على جيش كثيف ويوجهه الى بلاد صعدة ثم يقطعه بلاد اللحية ومور والزيدية والضحى وما اليها من جهات تهامة حتى دعا هذا الموقف الحسن بن أحمد الجلال الى أن يقول متمثلا :

طفل يرق الماء فى وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمنطق خصره سيفا ومنطقه يؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

× وكان سخط الشعب على العامل أو الوزير مدعاة لتمسك الامام به حتى ولو ظهرت سرقاته وتأكدت جنايته .

وكان صالح الحريبى ومحسن الحبيشى وزيرين لصاحب المواهب وكثيرا ما تعالت الصيحات من مظالمهما وقسوتهما ثم أمر صاحب المواهب بالقبض على محسن الحبيشى فبادرت العامة الى نهب بيته فى ذمار ثم كان تفتيش بيوته التى فى أب فوجد فيها من نفائس الذخائر وكل ثمين من الحلى والحلل والسلاح الفاخر والمال المتكاثر والجواهر وهدايا ملك العجم التى أرسلها لصاحب المواهب وهى على صفتها مطبوعة بخاتمها ، ومن الجنابى (١)

---

(١) الى الحناجر .

الجليلة ذوات الأثمان نحو مائتين وأربعين جنبية وما لا يخطر على البال من اللؤلؤ والذهب والقماش وكل ثمين ونفيس ونقلت جميعها الى المواهب .

وكان نقل محسن الحبيشى قبل موت المهدى ففرح الناس بزواله (١) ومع ذلك فما كاد يمضى عامان من تولية القاسم حتى أعاد الوزيرين اليه (وأعاد الناس الشكوى والضجيج من أعمال الحريبى وتقريبه محسن الحبيشى) .

× وآخر يدعى شرف الدين المنجم تناول تاريخه لطف الله حجاف بقوله : (فى سنة ١١١٥ هـ) استعمل المهدى صاحب المواهب على صنعاء شرف الدين القاسم فسار فى الناس بالعسف وكان ماهرا فى الشعوذة والتنجيم فرجع الناس الى الله بالتضرع والابتهال .

وفى سنة ١١١٦ هـ أمر المهدى عامله المذكور على صنعاء بالقبض على ولده محسن بن المهدى وعلى من معه من الأعيان وتفريقهم فى الحبوس) .

ثم بدا للمهدى أن يعصف به فأمر بمصادرة أملاكه (ثم كان الاطلاع على ما فى دوره فوجدوا بها من النفائس والذخائر ما تزيد على وصف الواصف . وأرسل ابراهيم بن المهدى على الجمال الى والده مالا تضبطه الأقلام من دور شرف الدين) . ثم يتولى القاسم الرهيب فيعيد تعيين شرف الدين عاملا على بلاد وصاب وعين معه قاضيا على بن محمد العنسى فكان القاضى ينكر عليه ظلمه ويرفع الى المتوكل سوء سياسته . فعزله المتوكل — عزل القاضى العنسى لا شرف الدين — وأعرض عنه وحبسه .

والقاسم الرهيب كان يملى للعامل حتى تمتلىء خزانته ثم يتحسس قدرته على المبلغ الذى يفرضه عليه . وكان للأئمة وسائلهم الخاصة فى ذلك .

ومنذ قليل عرضنا عليك قصة القاضى العنسى وما قرره عليه ثم أحال ما قرره على الواشى الذى وشى به أو بمعنى أصح على الرجل الذى لم يحسن تقدير ما عند العامل .

---

(١) نشر العرف لزبارة .

وفى الرواية التى سننقلها اليك بعد نشير الى بعض النقاط :

— كيف كانوا يستدرجون خيار العمال ليشاركوهم وبحجج مضللة .

— كيف يغرقون فى الفساد ولا ينكرونه ولا يحاولون اصلاحه بل يدعون أنه أمر لا يقوى عليه الامام نفسه .

— كل عامل تثبت نزاهته يعزل .

والرواية منقولة عن الدمية لأحمد قاطن عندما ترجم للقاضى اسماعيل حنش الصنعانى . وكيف كان الرجل فقيرا مشهورا بالعلم والتقوى فعرض عليه الحسن بن زيد الشامى أن يتولى المخازن للمهدى عباس (فقال الفقيه معتذرا ان أكثر الزكاة تصير الى من لا تحل له (١) .

فأجابه السيد الحسن : ان المراد الأهم المقدم صيانة الرعايا وباب الصرف باب آخر وليس أمره اليك ولا يمكن للامام نفسه ازالته وما يخاطبك الله فى ذلك . والدفع عن الرعية مع الامكان واجب وقد أسعدك الامام على ذلك وأمكنك فما أنت بمعذور عند الله سبحانه .

فحسن الحال فى أعوام توليته المخازن وأتعب نفسه كثيرا واستعمل أهل الديانة وبقى أعواما عديدة على الحال الجميل ولم يظلم أحدا مع توسطه . ثم عزل من هذه الوظيفة لا لسبب غير غلبة بطانة الشر) .

أساليب السيطرة على العقول :

صورتان مختلفتان للمهدى صاحب المواهب :

احداهما توضح كيف كان يلقى رعاياه والأخرى تبين كيف كان يعيش .

أما الأولى فمرجعها للشوكانى فى البدر الطالع ننقل بعض عباراتها دون تعليق :

---

(١) لأنها تصرف للسادة وهى محرمة عليهم كما ستعرف بعد .

« كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير وينفقه بلا تقدير ، فلما قام هذا « يعنى صاحب المواهب » أخذ المال من حله وغير حله ، ومع ذلك فهو يتزهد فى ملبوسه فانه كان لا يلبس الحرير ولا رفيع الثياب . وكان يسمى صاحب السجده لأنه كان اذا خرج فى موكبه ورأى ما بين يديه من الأجناد المالئة للفضاء ترجل عن جواده وسجد شكرا وتواضعا ومرغ وجهه بالأرض وكان سفاكا للدماء بمجرد الظنون والشكوك وقد قتل عالما بذلك السبب وشاع على الألسن أنه كان يأتيه فى الليل من يخاطبه بأنه يقتل فلانا وينهب مال فلان ويعطى فلانا ويمنع فلانا فاذا كان النهار عمل بجميع ذلك » .

أما الصورة الثانية فننقلها من نفحات العنبر للحوثى وهو يترجم للسيد محمد حسن الكبسى .

(وكان صاحب المواهب يرسل اليه بكسوة فيتحرج من قبولها وأخيرا أرسل فى طلبه فامتنع وخشى أصحاب الكبسى أن يفتك الطاغية المجنون به . فتقدم أحد أصدقاء الشيخ رسولا الى صاحب المواهب يلتمس عذرا . « فلما وصل الى المواهب اتفق بالوزير صالح الحريبى وعرفه بحقيقة الحال . فقال له الوزير فبأى شىء نعتذر له ؟ قال بعجزه . قال سيرسل له بمركوب ولكنى أشير بعذر أحسن من هذا . وهو أن تقول : لما بلغنى أمركم الشريف بوصول السيد محمد الكبسى اليكم طلبت من الأمير سليمان وصولى اليكم لأعرفكم أن السيد محمد قد عرف الامام المؤيد محمد بن المتوكل وأنتم عارفون كيف كان حاله من الزهد والورع فى ملابسه ومركوبه وأحواله كلها .

وأنتم بحمد الله كذلك . غير أن هـذا الزمن حاله يقتضى خلاف الحال الأول لبستم له هذا الملبس الفاخر وفعلتم العدة العظمى للخيال واستكثرتم من حلى الذهب والفضة لأجل القاء المهابة فى الصـدور ولتشييد الأوامر والنواهى . وان السيد الكبسى قد يستنكر ذلك كثيرا ولا يعرف حقيقة ما لديكم وهو يعتقد أن حالكم كحال المؤيد وأنكم مثله من جميع الوجوه .

ولفرط محبتى لكم أردت أن أفيض هذا اليكم .

وينتهى الأمر بأن يخشى صاحب المواهب قدوم الكبسى عليه ويعدل عن استدعائه ليبقى رافلا فى حلل الذهب والفضة حتى اذا خرج أمام الناس سجد ومرغ جبهته فى التراب تضليلا للعامة .

شهادة الشهود :

ولنرجع الى بعض ما قاله الشعراء والعلماء عن حكام هذا العصر فهو خير دليل يمكن أن يوضح حقيقة الحال . فقد يتزيد المؤرخون وقد يغفلون بعض الحقائق ولكن الأدب مها بولغ فيه فهو الصورة الصادقة التى لا تكذب .

(١) الداعى محمد على الغربانى :

ولقب الداعى هذا يلقب به الواحد من أفراد الهادويين اذا رأى منكرا فأنكره ودعا الى اصلاح . فيخرج الى أحد الحصون فليجأ اليه ويرسل الى الامام بدعوته تلك لا منافسا على الامامة مكتفيا باعلان معارضته للحكم موضحا فى كل مناسبة أنواع الشرور معددا لطرق الاصلاح .

وكان هؤلاء الدعاة يزعجون الأئمة أشد ازعاج ويخيفونهم أعظم الخوف وقد واجه صاحبنا هذا حربا لا هوادة فيها من أبناء القاسم ولولا أن الأمر يطول بهذا الحديث لنقلنا اليك قصة الرجل كاملة ولكننا نكتفى ببعض مختارات يهاجم فيها جور الأئمة وعمالهم .

كانت دعوة الرجل سلمية خالصة لوجه الحق فاذا بهم يوجهون اليه جيوشا جرارة لحربه ومن تقاليد القبائل أن تحمى أمثال هؤلاء الدعاة وان كانت لا تعلن خروجها على الامام .

وعج ببنى القاسم الأكرمين . . . .

وقل لهم يا بحور الحجا أتيتم بشىء بكم يسمج

جنـودكم من جميـــع القـــرى الى رجـــل واحـــد تزعج
وليس لـــه ثـــروة لا ولا خـــلا الله أوس ولا خـــزرج
ولم يأتكم منـــه ما تكرهـــ ون سوى أنه قال ذا المـــدرج
ومـا قال انى امـام ولا الأمـا مـة عنكم لهـــا مخـــرج
ولكنـه قـــال ان كان مـــا ذكرت هـــو المنهج الأوهـــج
فحيى اليـــــه اذا شـــئتم والا فمـــا شئتم فانهجـــوا

وهذا الداعى الى الحق الزاهد فى الدنيا الذى لا يملك الا الكلمة الصادقة يوجهها الى الطغاة كتب قصيدة يصور فيها الفساد الذى عم البلاد مطلعها :

باسم الحكيم العدل ذى الاحســان منـــزل الكتاب والميـــزان

يدعو فيها العلماء الى كلمة سواء بينه وبينهم انكان ما يدعو اليه حقا فليصدقوه وان باطلا فليوضحوا ذلك من كتاب أو من سنة أو من اجمـاع وقيـاس . ثم هو بالتـالى يحملهم تبعة السكوت على المنكرات ومحاباتهم للملوك وذوى السلطان . ويعدد فى القصيدة أنواعا من الظلم لا يملك انسان أن يقرها أو يسكت عليها .

فالمكوس التى بالغ فيها العمال وفرضوها على الأغنياء والفقراء وخرجوا بها عن مقررات المشروع والمعقول .

والرجل بدأ دعوته هذه من عام ١٠٧٥ هـ معارضا للمتوكل اسماعيل وظل على هذا المنهج حتى توفى عام ١١٢٦ هـ فى عهد المهدى صاحب المواهب:

واسمع اليه يتحدث عن أحد عمال المتوكل اسماعيل :

ومثـل ما يفعـل نجل الحســـن فى اليمن الأسـفل من أرض اليمن
مـن حيـل للمـــال سرا وعلن كثيـرة تجرى على غيـــر سنن

لا حق مـا تؤتى بلا اثمـــان

كفرقة القروش والموازين والصوم والصلاة والدواوين
والخيل والقدوم والأوتاوين وغيرها مما تكل السراوين

بلا دليل ولا بيان

ونجل الحسن هذا عاث فى اليمن الأسفل فسادا وصال عماله وجالوا دون أن تأخذهم فى الناس رحمة أو وازع من ضمير .

واذا قيل لهم فى هذا قالوا ان ديارهم فتحت عنوة ــ وياللشعب المسكين من هذا الحكم الذى أصدره المتوكل اسماعيل ــ والداعى يتعجب من هذا فى سخرية قاتلة ويطلب أن يطبق الحكم على أوسع مداه :

ان قلت ان دارهم كفرية لأنهم عصابة جبرية
فهى اذن فى الحكم خيبرية لفتحها بالسطوة القهرية

والحرب والضراب والطعان

قلت فلا يخلو اذن من أحكام وأن يكونوا مثل أهل الأصنام
والكافرين محربين الأسلام فحكمهم ضرب الرقاب والهام

وحصدهم بالسيف والسنان

ونختار لك من هذه القصيدة أيضا تصويره لمراحل الشكاوى والوشايات التى تصل الى الامام أو الى عمال الامام وكيف يتصرفون فيها . وكيف تستغل هذه الشكايات لابتزاز الأموال والاعتداء على الناس :

المرحلة الأولى :

فما بطاقة عليه تعرض فيها نفاعة لذنب يفرض
جاء بها واش اليه يرفض من جنده أو غيره يحرض

بها على النائى أو المدانى

الا تلقاها بوجـــه ضـــاحك وحطهـــا معـه على الأرائك
وخصـها باسـمه المبـــارك مشرفا لهـــا على الألائك

كأنهـــا فى منـــزل الرحمن

المرحلة الثانية :

ثمت يعطيهـــا من الأجنـــاد كم من لئيـم شرس القيـــاد
ليس به عطف على العبـــاد همتـــه الفســـاد فى البـلاد

من راجلى الجند أو الفرسان

المرحلة الثالثة :

فان أنيلهـــا وحيزت بيـــده ورصـــده محســوبة من رصده
سار بهـا من يـومه أو من غـده ممتلئـــا من تيهــه وحـــرده

يميس للنخوة كالسكران

لا يـرحم البـاكى منـه أن بـكا ولا يصـــيخ لكلام من شـكا
ولو يـكون كالجنيـــد فى الزكا ما رفـــع الراس له عن متـــكا

ولا وقاه عاملى الأعوان

ولو ثـــوى فى بابـه ســـنينا ينشـــده ذا القـــوة المتينـــا
مشـــفعا بالنهـــد الأنينـــا معفـــرا خـــديه والجبينـــا

ماحط منها عنه درهمان

الهـدف :

ثم اذا ســـلم ما عليـــه لـم يزجـر عن الذنب الذى كان اجترم
ويطلب الاقـلاع عنـه والنـــدم وبوعــد ان عــاد عليـه بالنقـم

جزاء ما جاء من العصيان

بل غـــاية الســؤل هى الدراهــم ليس لهــا فى حكسها مســـــاهم
فــان تــأتت هانت الجـــرائم كمـــا يراه جاهــل وعـــالم

لا يمترى فى ذلكم شخصان

(٢) وليست هذه الأموال التى تجبى على قاعدة متبعة أو قانون يلتزم بل هى مثل كل العقوبات التى توقع على الشعب فى الشمال والجنوب بلا ضابط و لاحدود .

وهذا هو الشيخ العلامة محمد حسين المرهبى يخاطب المهدى صاحب المواهب فى ذلك :

وهل شرع الله الحدود على الورى جزافا بتصـــديق الكلام المجـــرد
أمــا ربطت أحكامه بشــــرائط بناها على الشــأن العظيم المؤكــد

(٣) وأحرار الفكر من بنى القاسم كانوا ينكرون على أبناء عمومتهم ما يفعلون أو هم فى الحقيقة يتوصلون بهذا الانكار الى اكتساب شـعبية تمهد لهم الطريق الى الحكم .

وها هو الحسين بن على بن المتوكل اسماعيل يخاطب أبناء القاسم :

بنى عمنـــا صيرتم الظلم عـــادة على غير تدبير عد منـــاكم معـــا
أسود على نهب المســاكين جــرأة ثعالب ان لاقيتم الســـر شرعـــا
جبلتــم على نهب الرعايا تجـــاريا على الله من تيه لديــكم وادعـــا
وجـــرتم على كل الأنـــام بجـــرأة فلم يجـــدوا منكم سوى الله مفزعا
فمن أجل هذا فرق الله شــملكم وبدد منكم كلمـــا قـــد تجمعـــا
فلا عالم قد رام جمـــع شــــتاتكم ولا عاقــل فى لف شملكم ســعى
وســلط أشرار الخــلائق كلهـــا عليكم بظلم منكم قـــد تنـــوعا

وأعجب منكم فى الورى علماؤكم لأطماعهم لم ينصــحوكم تشــرعا
يحابونكم دون المهيمن بالهـــا مداهنة سدت من الشرع شرعا

عدمتهم ما أبعد العلم عنهم ... فدعوا هم للعلم لا شك ادعا
فهل فيهم لله يظهر دينه ... كمثل على أنزع الرأس أصلعا
يحكم فيهم سيفه وسنانه ... وان كان سيف الله أمضى وأقطعا

(٤) وهذا ابن عم آخر فى أيام المنصور حسين وقد رأى الأمور وصلت الى ذروتها ورأى حكم المتوكل اسماعيل أصبح وبالا وشرا لا طاقة للعباد به :

يقول الحسين بن عبد القادر الروضى :

يا ناصح القوم قد أبلغتهم حججا ... فما وعتها من المنصوح آذان
لأنهم شغلوا عنها بزخرفة ... حوت أعاجيبها دور وحيطان
وأحدثوا فى الملاهى كل نادرة ... غريبة ضمها المرسوم بستان
شادواقصوراوفيهامن «مفارجهم» ... ملاعب ما رآها قبل انسان
وكم عمائر فى صنعا مزخرفة ... ووسطها من صنوف الوشى ألوان
وكم طيالات خيل انما ربطت ... للفخر ملبوسها الديباج أفنان

قد استبدوا ببيت المال أجمعه ... وأخذه من ذوى الاسلام عدوان
قالوا امامهم اسماعيل عالمهم ... أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول ان جنود الترك كافرة ... دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا ... صارت الينا حلا لا بعد ما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا ... على الذى بيديه أينما كانوا
أصولنا تقتضى هذا فلا حرج ... بما أخذنا ولا والقول بهتان
ابليس سول هذا والنفوس دعت ... اليه رغبتها فيها لها شان
هذى الخيالات لاتجدى ليوم غد ... اذا قضى بين أهل الأرض ديان

(٥) وما أصدق هذين البيتين اللذين قالهما شاعر من شعراء هذا العصر يصور حال اليمن وما فيه والخلافات التى مزقت اليمن شر ممزق :

وطنى صـــــار رافـــــلا فى ثيـــاب مـــن المحـــــن
كان للغيـــــد ملعبـــــا فاغتـــــدى ملعب الفتـــن

(٦) وهذا الشيخ الكبير وقد زار ابناه الشاعران المواهب يلتمسان عند صاحبها بعض الخير فرجع أحدهما مجنونا والآخر مريضا .

وكان بعض ما لقياه فى المواهب كفيلا بأن يسوقهما الى هذه النهاية المحزنة ..

ويا لسخرية الشيخ وحزنه :

ابنـــاى قد زرا امام الهـــدى امامنـــا ذا الرتب العـــالية
لم يظفـــرا منـــه بما أمـــلا الا ذهـــاب العقـــل والعافيـــة

(٧) تزويج مسجد « المذهب »

بقى أن نسوق اليك مختارات من هذه القصة الرمزية الرائعة الشيقة للقاضى على بن صالح أبى الرجال . فهى فى حد ذاتها تفى بما يجب أن يقال ولا تحتاج الى تعليق .

ونرجو أن تحسن الظن ولا تطلق للخيال العنان « فمسجد المذهب » هذا مسجد حقيقى وليس اسما لرجل أو قائدا من قـواد المتوكل على الله اسماعيل ثالث ملك فى الأسرة القاسمية .

وقد عجلنا اليك بهذا الاحتراس حتى لا تفاجأ بنهاية لم تتوقعها ولم تخطر لك ببال ونحن فى هذا البحث نحرص على حقائق التاريخ نقدمها اليك وأنت وشأنك بعد هذا فيما يسوقك اليه الخيال .

ولكنا نرجو ألا يبعد بك الظن فتتصور أميرا من الأمراء يدعى مسجدا وأن المتوكل أو غيره من الملوك أراد تزويجه وأنه اختار له العروس ذات الحسب والنسب وأقام له الأفراح والزينات ورغب فى أن يزف الى عروسه فى قصر جديد فأطلق أتباعه يجمعون الأموال من الناس كيف شاءوا فالبلاد

ملكه وما فى أيدى الناس حق من حقوقه . ولا بأس عليه وعليهم ان اختاروا قصرا من قصور الأغنياء فأفرغوه من أصحابه وقدموه الى الأمير مسـجد ليعيش حياة الهناء والسعادة .

ويرحم الله القاضى على بن صالح أبى الرجال رأى المساجد فى صنعاء قد أهملت اهمالا شديدا حتى كادت تتداعى وحرمت من الفرش والانارة والمياه وتهدمت وخربت مرافق المياه فيها مع كثرة أوقافها .

ولكن الأوقاف عدا عليها السادة من بيت القاسم يأكلون خيرها ولا يجدون راعيا ولا داعيا يقول لهم :

قد قسوتم على الناس فرفقا بالمساجد

وسرقتم الأحيـاء فعفوا عن الأموات

ومتى يحدث هذا الخراب الذى شمل المساجد جميعها ؟ فى المـدن والبوادى ؟ فى عهد المتوكل اسماعيل . فى أول عهد الأسرة بالحكم وفى ظل ملك اعتبر اليمن ملكا خاصا له يتصرف فيه كيف شاء وأعطى لنفسـه الحق فى استصفاء أموال من يقع عليه اختياره من الأغنياء ، ويصبح ذلك حقا مستحقا وضربة السيد على عبده .

رأى « أبو الرجال هـذا فأطلقها صرخة مدوية فى قصة رمزية رائعة لا تصور حال المساجد فى صنعاء وخارج صنعاء وما يفعله آكلوا أوقافها بها فحسب ولكن القصة تناولت :

ا) نظار الأوقاف وكيف كانوا يعتدون على أوقاف المساجد .

ب) تهدم أكثر المساجد وعدم العناية بفرشها وانارتها ومياهها .

جـ) تحول كثير من المساجد الى بساتين ومرافق للشعب .

د) كيف يشارك أرباب السلطان فى سرقات اللصوص .

هـ) أسلوب الأئمة فى حل مشاكل الشعب وتعاليهم والرهبة التى أدخلوها فى نفوس العامة .

و) سرقة أحجار المساجد وأبوابها ونوافذها لعمارة قصور الأئمة والسادة .

ولولا أن القاضي يرحمه الله قد لجأ الى بعض الصور التى وعدنا القارىء بأن نبعد أقلامنا عنها لسقنا القصة اليك كاملة فهى تحفة نادرة ووثيقة يحكم بها على أدب العصر وعلى أسلوب الحكم فى هذا العصر .

ومع هذا فنرجو أن نقدم لك أكبر قدر منها ونحن على يقين بأنها ستمتعك أيما امتاع بعد أن تنفذ الى أعماق النفوس ألما وضيقا بما كانت عليه بيوت الله :

يقول أبو الرجال :

« لما كان شهر محرم الحرام سنة ١٠٨٥ من هجرته عليه الصلاة والسلام ترجع لمسجد المذهب لما لم يجد من الفقر مذهب ، وصار الناظر عن النظر اليه واقف مخالفا لما أراده الواقف وهو خال عن الفراش والسراج محتاج الى اصلاح صرحه غاية الاحتياج أن يشاور بعض اخوانه ليشير عليه بما يعنيه على زمانه » .

« فقصد مسجد جناح وأوضح له الشكاية غاية الايضاح وطلب منه أن يواسيه أو يشير عليه بالنصيحة أو يؤسيه فأطرق جناح أطراق الأفعوان ثم رفع اليه رأسه بعد زمان وقال : قد عرفت ضعف حالك وركة مسعاك وخيبة آمالك » .

« الا أنى أرى لك من باب النصيحة لما بينى وبينك من المودة الصحيحة أن تتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك التى تراك كفؤا لها ولا تأباك » (كانت مدارس ومساجد فى الوقت نفسه) فعلها أن تفرج عنك الغمة وتؤنسك عند الظلمة والنساء مصابيح البيوت ولست تحتاج لها الى شراب ولا قوت » .

وطلب منه أن يختار احدى مدرستين البكيرية أو المرادية .

« فقال قد اخترت البكيرية ذات العمارة الباهرة والقناديل الزاهرة والمفارش الفاخرة وما أظنها ترضى بى لفقرى وشدة عسرى » .

وذهبا اليها يعرضان الأمر عليها « فأعرضت عنهم أعراض العلية عن الأرذلين وقالت مسكين المذهب أى مسكين لقد ذبحه أشعب بغير سكين والله لا أرتضيه سيفا لقرابى ولا اماما لمحرابى ولا بوابا لبابى .

فاخرج باجناح أنت والمذهب قبل أن تصفع وتضرب فخرج المذهب الى طرف الميدان وتمثل بأبيات غيلان :

على وجه مى مسحة من ملاحة وتحت الثياب الخزى لو كان باديا

وأخذ المذهب يوجه اللوم الى زميله على مشورته . وفضل أن يصرف النظر عن فكرة الزواج وألا يجرب حظه مع المرادية بعدما حدث من البكيرية ولكن جناحا ألح عليه وساقه اليها فقدم نفسه اليها فقبلت الفكرة من حيث المبدأ قائلة « الا أننى أشترط عليه مفرشتين أستتر بهما وأتجمل وقنديلا أتنفع به ليلة أتأهل » .

فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر فلست على تحصيلها بقادر فالمفارش غالية وليس عندى غير بسط رداعية بالية »

فوبخه جناح على هذا الكلام وأفهمه أن مثل المرادية لا يصح أن يعرض عليها البسط فطالما تحلت بالفراش وأشار عليه بمشورة يحصل بها مراده وينتقم مما أصابه من البكيرية « فاذا كان جنح الظلام وقد هجع النوام انسللت انسلال الخائف الذليل وأخذت منها مفرشتين وقنديل » وتم للمذهب ما طمع فيه ولما ذهب بالمهر الى المرادية اذا « بديوان الحرض » يتوسل الى جارته المرادية أن تعيره مفرشة وقنديلا وأن تطالب المذهب بزيادة المهر لها فلعله أقدر من المرادية ومن ديوان الحرض على تحصيل المفارش والقناديل .

وقال جناح للمذهب عاود ذلك المحل فلعلك تظفر بالأمل وقد كانت البكيرية جمعت من حولها من المساجد القريبة وطلبت منها الرأى فى دفع هذه المصيبة فأجمع رأى المساجد والمدارس على أن يستأجروا لها حارس . فقالت على تحصيل الأجر وعليكم تدريك رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا لها مسجد عقيل وقالوا لها هذا نعم الحارس النزيل .

فلما جن الظلام وهجع النوام أقبل مسجد المذهب وهو خائف يترقب فخرج عقيل ومن حوله من المساجد وحملوا عليـــه حملة رجل واحد فهرب من بينهم وفر . فما قعد فى مجلسه ولا استقر حتى وصلت به المساجد على الأثر فهتف بالجيران يغيرون عليه فأقبلوا يهرعون اليه وقد اشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزحام . فقال اعلموا يا جيرتى أنى راقـد بمكانى وقد ترجح لهذه المساجد أن تأتى جنح الدياجى تريد تسرق بساطى وسراجى فأعينونى على الحق وأدركونى ولما أمزق . فرجع كل من المساجد الى مكانه وعلم أن الظاهر مع المذهب وكل الناس من أعوانه .

ثم اجتمعت تلك المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية فأجمعوا على أن يحفروا له حفرة فى الأرض بقـــدر طوله والعرض وأن يربطوا الشباك الى جانب الصومعة بالشباك ثم يقبضوه فى محله ليظهر للناس كذب قوله فسكت عنهم أيام ثم أقبل على حين غفلة من الأنام وقد نكر اللباس ووضـــع الشراريف من فوق الراس فوقع فى تلك الشباك فـــكاد يشرف على الهلاك فانتبـــه اليه مسجد « الأبزر » فصـــاح بالمساجد وسعى اليه « فقال من أنت قال : غريب » .

« فقال قد عرفت أنك المذهب فاصبر وتأدب أما علمت أنهم دعموا لمطاهيرى (١) قطعة من باقى دعامات فصبرت عليها والحساب يوم القيامة » .

فأقبلت المدرسة وهى مقطبة ومعبسة وقالت من هذا الذى أقدم الى ساحتى وتعدى على جارتى ، فقال ضعيف ضل المسلك فكاد أن يهلك .

فوثبت صومعتها وارتفعت وصعقت بصوتها وقعقعت وقالت أما علمت أنى صابرة ومحتسبة ومغمومة ومكتئبة وقد شرع دائرى الأسفل يســـتأكل لعدم انتباه الناظر على الساحل فاصبر مثلى والا أحـــربتك حـــرب حنين وغادرتك أثرا بعد عين .

ثم أقبل مسجد الأبيضين من باب دا رالروم وهو يهز الســـلوة ويكثر

(١) مراحيض .

اللوم وقال يا هذا انى قد نسيت الفراش والسراج وصرت مأوى للحمام والدجاج فسلمت الأمر وأغمضت جفنى على الجمر .

ثم أقبل مسجد النورين ودمعه ينهمر م نالعينين وقال : ما دلك على اقتحام المهالك والولوج فى أضيق المسالك « هلا صبرت على الشدة وانتظرت انقضاء المدة فانى قد صرت بيتا من بيوت بساتين الحيدوكم من شبكة نصبت فى داخلى للصيد ، أحن حنين المطحن التى فى زاويتى وفى كبدى نار أحر من الجمر بها نشفت ماويتى وخباز السرجين الأخضر فى صرحى والكر اليابس منشور فى سطحى ، ثم أقبل مسجد ازدمر فقال ان طاقتى قبتى الشرقية قد صارت محلا للبرمة والأثفية والمناخل والقداح والجفان معتادة للاستعمال والطبيخ فى كل أوان » مع أنى من مساجد المؤيد بالله ولكن أقول لا حول ولا قوة الا بالله .

ثم أقبل مسجد على بالصومعة العوجا وقال أقسم بمن يؤمل منه الخير ويرجى أنك المعتدى وقد أوقعك الله فى يدى . ثم وثب الى قذاله وجعل يدوسه بنعاله وقال أما علمت أنى مسجد على بن أبى طالب وقد صرت مظلوما من كل الجوانب فصبرت على ما أقاسى حتى ارتفعت متخذاتى فوق رأسى .

ثم أقبل مسجد معاوية ، ثم مسجد الأخضر ثم مسجد رباط الفندى « .. وقال أما علمت أن الرماد قد جاوز محرابى حتى رجع السيل الى بابى فهلا صبرت مثلى وفعلت مثل فعلى » .

(ثم أقبل مسجد معاذ وقال أما علمت أن مطاهيرى سنة مغلقة الأبواب لعدم فاعل الحسنة)

ثم أقبل مسجد جمال الدين ومسجد بروم ومسجد المفتون ومسجد نوح (وقال أما علمت أنى قد صبرت على ما لم يدخل تحت طوقى وأن مطاهيرى ارتفعت من فوقى ثم أقبل مسجد الطاووس ومعه الشمعة والفانوس وقال هلا صبرت مثلى يامنحوس فقد صار وقفى مطموس .

---

(١) جوراة المياه •

ثم ما زالت مساجد صنعاء تفد جيلا بعد جيل ورعيلا فى أثر رعيل فمنهم من يشتمه ومنهم من يلطمه ومنهم من يتركه ويرحمه وقد صار بينهم كالأسير قد غلبه البكاء والزفير .

فاجتمع مسجد الهادى ونصير ومسجد ازدمر والزبير وقالوا نخشى أن هذا يفارق الحياة فأدركوه قبل الممات . فأرسلوا الى مسجد أبى طير فهو الذى بيده الخير واليه مرجع الكلام .

فقال بعضهم ان مسجد الامام يجل أن يطلب الى هذا المقام . ولكن نخرج المذهب من هذه الحفرة ونسوقه الى تلك الحضرة . فلامته المساجد على مقاله وعرفته ما لم يكن فى باله . وقالوا لو يخرج المذهب من هذه الشبكة لأورد الجميع مورد الهلكة فلا يخدعنك بالدموع المنسكبة والقامة المحدودبة فانه عفريت من العفاريت الكبار وعند الحرب سابق لا يشق له غبار . فالصواب الارسال لمسجد الامام هذه الساعة) .

« فعند ذلك أرسلوا لمسجد الامام صلاح الدين رجلا من أهل الخبر واليقين . فعرف مسجد الامام بذلك وحقق له ما هنالك فأرسل الامام مسجد موسى بعد أن تحرى عليه وتقصى وقال اذا لم يمتثل لك وكزته بالعصا . ففكر مسجد موسى ساعة فى أمره ثم رفع رأسه الى مسجد الامام وباح له بسره وقال يا مولانا انى لست من أهل الوغى وأنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى فقال له مسجد الامام سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما أنتما ومن اتبعكما الغالبون قم معه يامسد الوشلى وأخبراه أنكما رسولان من قبلى . فان لم يمتثل أخذتما بتلابيبه وعبثتما بجلابيبه حتى يأتى خاضعا ولأمرى طائعا . فنهضا عليه ثم أقبلا به اليه والمساجد محدقة به من الجهات الأربع خائفة أن يصول عليهم ويرجع فلما قربوا من مسجد الامام طأطأت صومعة المدرسة برأسها للسلام ثم عانقته صومعة مسجد الامام معانقة الألف للام ولما نظر مسجد المذهب الى مسجد الامام أعلن النحيب وأعول فأمر مسجد الامام بتقريبه اليه ليقص أمره عليه . فقال يامولاى انى من ذوى المروءات وقد ورد الأثر بأقالتهم عند

العثرات . وقد عثرت هذه العثرة ووقعت في هذه الحفرة وهذا القضا الذى أوقعنى فى هذه المكيدة (١) . فزجره مسجد الامام ونهاه عن هذه العقيدة .

فقال بعض المساجد : يامولانا ان الناظر عامله لما عرف باعتقاده . صرف آوقافه بنفسه وعمل باجتهاده .

فقال مسجد الامام : ما أظن العامل الناظر عمل بعلمه ولا اتعظ بمواعظ ابن عمه والا فهذه الأمور لا يجوز آمرنا ولا يسوغها شرعنا (٢) فان هذا المسكين أولى بحقه وانتفاعه بوقفه خير من سرقه فظلم مثله عندى خطيئة كبرى والفقر كاد أن يكون كفرا وامتثال أمر الواقف يجب عليه وجوب « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » فاستعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

ثم التفت على المذهب وقال ان لم تبرهن عن نفسك أمرت بحبسك فقص عليه القصص وما لاقاه من الغصص وتعلق بأهداب الستائر والقفص فرق مسجد الامام لشكواه وعلم صدق دعواه . وقال قد عرفت أن ظلم المساجد عام وأنه قد شمل المأموم والامام فان دعائمى خربت من ضعف عمل العامل وكاد بيت « القشام » ينحط فوق المنازل فارجع الى الله مثل أصحابك واصبر على مادهاك من مصابك .

ثم أمر مسجد الامام بأحضار « المرادية » فى الحال لتمام ذلك المقام . «فأقبلت تميس فى ثيابها تائهة على أترابها» وتصرف مسجد المذهب بما أوجب تأديبه وحبسه عند الجامع الكبير . واستمع الجامع الكبير لقصة المذهب فقال الجامع الكبير :

« ياولدى قد فسد الزمان وعدم المعوان . انظروا الى ما أنا فيه من

---

(١) هذه مسألة خلافية بين المذاهب وقد أكثر علماء التوحيد فيها « أفعال العباد » ونرجو أن نشير الى مايرمز اليه هذا النقاش من الخلافات المذهبية وما تجره على الشعب من محاربة فى الأرزاق .

(٢) على عادة الأئمة دائما يدفعون عمالهم لكل منكر ويتبرأون منه أمام العامة .

التقصير وأنا الجامع للصغير والكبير ألا ترى أنهم جعلوا بين المسمورة والمنقورة (١) شباكا من خشب قبيح الصورة لا يصلح الا لبستان قشام أو لصبل من صبول الأنعام وأنا ممن يستحق الرعاية والتعظيم والمواساة والتكريم فعاملوني معاملة مسجد البوادي ووقفي في كل جبل ووادي وعند كل حاضر وبادي ، وانظر الى مسجد نصير لقربه من بيت ابن الامام كيف قام به غاية القيام وما علمنا له بمزية علينا فيخصص ويفرش من دوننا ويجصص . فاصبر فلنا ركن شديد فعال لما يريد يمهل ولا يهمل فخفف الحزن عن نفسك وسهل . ولكن اذ قد بليت بهذه الشدة ولم تنتظر الى انتهاء المدة فأرى لك ترك مساجد « أزال » فانها مهملة غاية الاهمال ولها عليك حق الجوار ، فتب الى الله من سرقتها وارجع عن الاصرار .

فاذا نويت أن تسرق ما يسرق فاخرج الى مساجد البادية جنح الليالى من الخندق فاذا وقعت على شيء فلا تترك والدك من المواساة (٢) فقد عرفت ما كابده من الفقر وقاساه فلعلك تجد عند مساجد « الروضة » حاجتك .

« وأما مساجد الجراف فهي داخلة معنا في الجراف فلا تحدثك الأنفاس بقصد ـ مساجد الغراس فانها مساجد من له الفضل والأنعام وفي حرمة مولانا سيف الاسلام (٣) فاني لك من الناصحين وعليك من المشفقين . فصاحبها الذي مهد البلاد فاحذر كل الحذر فان من أنذر قد أعذر قبل أن تنهدم رواكبك وتكسر ويجعل في كل حصن منك حجر . فقال لا أخالف لك كلام ولا أعصيك في مرام ثم خرج من الخندق في بعض الليالي فسرق قطعة من حصير ونصف فنجال ثم عاد الى الخندق فوجد السيل قد أحاط به وأحدق فوقف ساعة يتأمل . ثم شمر ثيابه وغاص بين الماء ودخل فتهدمت بعض

(١) المسمورة والمنقورة دعامتان في الجامع الكبير يحددان مكان أول مسجد بني في الاسلام بصنعاء .

(٢) وهذه ظاهرة أخرى مما كان يفعله العمال وما كان يسير عليه الأئمة من مشاركتهم فيما ينهبونه .

(٣) لايخفى مافي كلام أبي الرجال من التهكم وقد اشتهر سيف الاسلام هذا « احمد بن الحسن بن القاسم » بالظلم والعسف ولاقى منه اليمن الأسفل بلاء شديدا .

أركانه بعد ما وصل » . « فبلغ مسجد الامام صلاح الدين ما وقع مع المذهب وأنه قد ذهب به الفقر كل مذهب وأنه يريد أن يتغرب لما فاته المطلب . فطلبه اليه ثم أقبل عليه وقال بلغنى أنك تريد مفارقة هذه البلدة (١) لمالاقيته من الفقر والشدة والظلمة والوحدة فقال نعم قد أزمعت على الارتحال » « فقال له قد رأيت أن تتزوج بالمحكمة لتؤنسك فى الليلة المظلمة وقد صارت من جيرانك وهى عارفة بحالك من قديم زمانك . وهى وان كانت خالية خراب من الشبابيك والأبواب فهى كثيرة الأوقاف كاملة الأوصاف .

فيها من الظرف القديم بقية فى الزاوية

فان غيرها من مدارس هذه الأمة ستجيب عليك بجواب مى على ذى الرملة فقال المذهب بعدما ضحك وتعجب : أما قولك أنها كثيرة الأوقاف فقد صارت مشاركة لنا فى الحراف .

ولم يقبل المذهب مسجد المحكمة فعرض عليه مسجد قبة عامر فقال دعنى وذكر المقابر . وأخيرا عرف مسجد الامام رغبة المذهب فى التزوج بالمرادية فما زال بالأمر حتى تم الزفاف . »

وفى نهاية القصة يوجه أبو الرجال قصيدة تحمل شكوى من المساجد الى أمير صنعاء من قبل المتوكل اسماعيل وهو ابنه محمد الذى تولى الملك بعدوتلقب بالمؤيد نجتزى لك من تلك القصيدة :

شكية من جملة المساجد	. . . .
فالكل منا للفراش مفتقر	محتسبا لما دهاه مصطبر
والجص لسنا نرتجيه منه	كلا ولسنا سائلين عنه
وانما المطلوب اصلاح الفنا	قبل الخراب والهلاك والفنا
ولا نريد غير حفظ الحرمة	والمنع من دخول أهل الذمة
وتجدر الأبواب فى الخراب	خوفا من الأوساخ والكلاب
ولا نريد الوقف بالاسراف	بل المراد منه بالكفاف
وانتفعوا بفضلة الأوقاف	للسادة الأبرار والأشراف
ولا ندع أوقافنا لناظر	يصرفها فى الفرش للمناظر

(١) كما كان يفعل الشعب عندما يشتد الفقر والظلم .

ثم يطلب مساواة المساجد بالمسجد المجاور لقصره وبالقبة المختصة بوالده المتوكل اسماعيل :

وافرض لنا فى الوقف مثلما لها	فكلنا نعد من أمثالها
وانظر الى جارتها فى « وهب »	كيف أحل وقفها للنهب
وارحم « جناحا » مرتج الأبواب	عارى الجناح أغبر الأهاب
قد منعوه من جميع الناس	لغير جرم ولغير باس
ومسجد القصر بغير ماء	الا الذى يأتى من السماء
ولو ترى مساجد البوادى	ما اكتحلت عيناك بالرقاد
وانظر الى الأجزاء والمصاحفا	قد صار منها كل جزء تالفا
قد أصبحت أوراقها منتشرة	فى كل طاق كالعظام النخرة
قد حوت التصحيف والتركيبا	واللحن فى الآيات والتحريفا
وبادر العامل للأحجار	واختار منها خيرها للدار

وفى النهاية يقول موجها كلامه لمحمد بن اسماعيل بن القاسم :

وان عدلت عن طريق الصدق	وما حكمت بيننا بالعدل
نحنا على الاسلام أى نوح	وعوض التعريض بالتصريح

وبعد :

فليسأل أهل صنعاء بعضهم بعضا : ما بقى من هذه المساجد التى ورد ذكر أسمائها فى القصة . أسر حكمت باسم الدين وادعت حمايته وفى مدى قرنين من الزمان يختفى فى ظلها عشرات من بيوت لله .

اننا لا نبحث عن مصير الأوقاف .

ولكننا نتساءل . أين هذه المساجد (١) ؟

---

(١) مسجد وهين مثبه .

(٢)

فما هو موقف بن الأمير من كل هذا ؟

غالب الظن ان ابن الأمير فى أول الأمر لم يكن مهتما بغير طلب العلم والانكباب على الكتب يستوعبها وينقلها ولا يصرفه عن ذلك صارف حتى عهد عنه أنه كان ينسخ الكتب على ضوء القمر لعدم توفر السراج

ولعل الرحلة الأولى الى الحجاز فى عام ١١٢٢ هـ أو فى عام ١١٢٤ هـ على اختلاف الرواة فى ذلك قد أيقظت فيه هذا الاتجاه الذى لازمه بعد ذلك. فقد التقى بشيوخ من غير المذهب وتتلمذ عليهم ورأى نظما فى الحكم قد تختلف فى كثير عن نظام الحكم فى اليمن وقد تتفق فى بعض الوجوه وهو لا شك قد التقى بكثير من حجيج بيت الله وفدوا من بلاد المسلمين وتحدثوا اليه عن ملوكهم وحكامهم وحدثت مقارنات بين هؤلاء الملوك والحكام وتناول المجتمعون قصصا مختلفا ونقدا للعيوب فى مجتمعاتهم وتسجيدا لمحاسن أممهم . واشترك ابن الأمير فى ذلك بالقدر الذى أتيح له حتى اذا عاد الى اليمن وجد البلاد تضطرب اضطرابا عنيفا لم يعهد من قبل . فقد أخرجت الحصون رجالها وتسنم كل زعيم رقاب أتباعه يعدد مساوىء الحكم وظلم صاحب المواهب وما صنعه باليمن وما هو يصنعه ودفعوا القبائل الى ثورة عارمة واشتبكوا مع جيوش المهدى فى حرب طاحنة شملت اليمن من أقصاه الى أقصاه .

وفى مبدأ الأمر كان الثوار اليمنيون يقتتلون مع أنصار الحكم اليمنيين والبلاد تفقد كل يوم خير بنيها .

ولا شك أن الشعب كان مخلصا وجادا فى ثورته وكانت الآمال تملأ آفاق البلاد فى أن يتخلص اليمن من المواهب ومن صاحب المواهب ومن وزرائه أمثال الحريبى ومحسن الحبيشى . لذلك فان تكتل الشعب قد أذهل الملك فى ذلك الوقت حتى أحوجه الأمر أن يستعين بالعبيد المجلوبين يلبسهم الجوخ الأحمر والطرابيش الحمر ويغدق عليهم الأموال بصورة لا عهد لهم

بها ويأمرهم بأن يضعوا السيوف فى رقاب الشعب لا ترحم صغيرا ولا كبيرا ولا شيخا فانيا .

وينكسر جيش تلو جيش ويلجأ صاحب المواهب الى رشوة زعماء الجند وينجح هذا السلاح مرحلة من مراحل الثورة ولكن الشعب الغاضب الثائر لكرامته ما يلبث أن يدفع زعماءه الى المضى فى الثورة لتعود أقوى مما كانت . ويحس وزراء المهدى بخطورة الموقف فيتآمرون عليه وعلى أبنائه وينجحون فى اشاعة عدم الثقة بينه وبين بنيه . وفى الوقت نفسه يطلقون من السجن ابن أخيه القاسم بن حسين « القاسم الرهيب » ليقود جيوش عمه نحو الثورة والثائرين . وبذلك ضمنوا لهم مكانا عند أكثر القواد حنكة وأعمقهم دهاء وأقلهم علما .

وينطلق القاسم الى الشمال فى مناورة حربية وسياسية أيضا لا يلبث أن يعرف منها مكانه فينضم الى الثائرين وينقلب الى المواهب على عمه وولى نعمته بجيش الدولة وجيش الثائرين معا ليحاصرها وينتزع من صاحبها تنازله للحسين بن القاسم بن المؤيد فى شوال من عام ١١٢٧ هـ .

وقد كان الحسين عالما فيه غرة وكان القاسم جاهلا يملك الدهاء والدربة لذلك لم يلبث أن سطا على الامامة فاحتواها بالطريقة التى عرفناها من قبل .

وترقب الشعب ثمار ثورته خمسة أعوام والقاسم يسير بالحكم الى هاوية سحيقة .

ولعل بعض المحظوظين من الناس كانوا يلتمسون من تقلب الملك السابق وقلقه وجنونه كثيرا من الخير ثم ينقلبون به بعيدا عنه وعن مدينته .

ولكن هنا فى عهد القاسم وجدوا رجلا كان أداة القسوة والبطش فى العهد السابق . ــ وجدوا حاكما يعرف طريقه الى أخذ الناس بالشدة ويعرف أكثر من ذلك كيف يعمل سيفه فى خصومه وكيف يختار أعوانه الذين يتسلطون على رقاب العباد ويشددون قبضتهم على البلاد .

والتصق بأداة الحكم كل لئيم الطبع شره النفس يعــرف كيف يرضى سيده وكيف يرضى هو من الأموال المغتصبة والحريات المستباحة .

وبرز أمام الناس قضاة سوء يزينون للدولة أفاعيلها ولا ينكرون على الحكام منكراتهم .

وكانت المعركة بين الثائرين وبين الملك السابق معركة بين الاقطاع فى أعنف صوره وبين الملك ولكن الشــعب بمعدنه الأصيل حــول الموقف الى معركة بين مصالحه هو وبين مصالح الاسرة الحاكمة فلما جاء القاسم رأى أن أخطر خصومه هم رجال الاقطاع من بنى عمه فأراد أن يقــلم أظافرهم حتى يحرم الشعب من زعامته .

ومن أسف أن الشعب المســكين كان لا يجد له طريقــا للثورة الا أن ينتزع من أفراد الأسرة من يتصدر أمامه . ولا سبيل الى رجل من أبناء اليمن يقود ثورة اليمن حتى لا يتهم بالــكفر والمروق وتستل لسنه من فيه ويؤتمنون جهرةبنوه .

وكان الصراع بين أفراد الأسرة هو السبيل الى أن يتنفس الشعب وأن يجد له منطلقا الى حياة .

ومن هنا ندرك مدى المعجزة التى حققتها ثورة اليمن الأخيرة عنــدما أعادت حق الشعب للشعب .

نقول ان القاسم رأى أن يقلم أظافر الاقطاعيين وأن يحد من سلطانهم على الناس وكان من بين هؤلاء الاقطاعيين جماعة تسمى الأجبار وهم الذين حصلوا على تفويض من الأئمة أن يحصلوا من الرعايا فى اقطاعياتهم الزكاة المفروضــة عليهم ويتــولوا هم بأنفســهم توزيع الزكاة على مستحقيها وفى اقطاعياتهم أيضا . وكانت أكثر الفرائض تجبى أضعافا مضــاعفة ويبالغ فى تحصيلها حتى أنها فى كثير من الأحيان تعدو على رأس المال نفسه . ثم هى فى النهاية تكدس فى خزائن صاحب الاقطاعية لا ينال منهــا فقير ولا يطعم منها جائع .

وكانت الثورة الأخيرة قد وسعت من دائرة الاقطاع على أصحابه حتى لم يبق للقاسم الا ما كان له من الغنيمة الأولى . لذلك لم يلبث بعد عامين من حكمه أن أعاد اليه وزراء عمه الحريبي والحبيشي وعاد معهما أتباعهما من الجلادين وانضم اليهم شرير آخر هو الشجنى .

وبدا للقاسم أن خير ما يبدأ به بالنسبة للاقطاع أن يتولى هو قبض الزكاة من اقطاعياتهم لتكون حجة أمام الشعب وليقطع على خصومه ما يكسبونه فيزداد غنى ويزدادون هم ضعفا .

واختار لهذه المهمة وزيرا من عامة الناس يتسلط على أمراء بيت القاسم مبالغة فى اذلال بنى عمه . ذلك الوزير هو أحمد الشجنى . وكان أكثر ما أهم الأمراء أن يكون أمرهم الى الشجنى لا الى رجل منهم . لذلك فقد سلم أكثرهم بتقديم الزكاة الى القاسم : اليه مباشرة دون واسطة هذا الشجنى .

وكانوا فى ذلك على قدر كبير من الحكمة والدهاء . فالزكاة كانت فى هذا الوقت مجال أحاديث الشعب وتندره فى جباياتها وعمالها ومصارفها فليتخلصوا من هذه القضية ليخوضوا مع القاسم قضية أخرى يمكن استثارة الشعب بواسطتها .

ولكن القاسم لم يكن همه الزكاة فحسب ولكن الهدف الأصلى هو اذلال الأمراء واسقاط مكانتهم فى البلاد واضعافهم ماديا .

لذلك فقد كان قراره الأخير موجها الى خصومه ومنافسيه أمام أعوانه ومن يسيرون فى فلكه فقد بقى حالهم على ما كانوا عليه وزادهم القاسم نفوذا وأعمالا .

ونشط هؤلاء الأعوان فى خدمة القاسم حتى وصل بهم الأمر الى اغتيال خصوم الدولة والتمثيل بجثثهم . ومن جناياتهم التى أثارت الرأى العام قتل الحسين بن طالب وتمزيقه والقاء أشلائه فى المقابر .

وكان بيت اسحق « ويتزعمه أستاذ ابن الأمير محمد بن اسحق » قد حدد موقفه من القاسم من أول عهده بالملك وخاض معه المعارك الأولى بجوار

الحسين بن القاسم . بل كان أبناء اسحق هم موضوع النزاع الظاهر الذى تسلق منه القاسم الى اضعاف جانب منافسه ومن ثم اسقاط حكمه فلم يكن بيت اسحق فى جانب القاسم فى يوم من الأيام .

وبيت اسحق على علاقة وثيقة بابن الأمير ما منهم الا أستاذ أو تلميذ أو صديق وصلتهم لا تنقطع بابن الأمير يلتقون به صباح مساء على موائد العلم وأبسطة الاخاء والصداقة ويكشفون فى هذه اللقاءات الصورة المظلمة القاتمة للقاسم وحكمه مما أكد لابن الأمير ارتباط دعوة الكتاب والسنة بدعوة الاصلاح . وأن القضيتين لا تنفصل احداهما عن الأخرى .

عاد الأمراء يثيرون الشعب من جديد ويضعون أيدى العامة على مكامن الفساد وكانت أقوى صرخة تفجرت فى البلاد تلك القصيدة التى أنشأها ابن الأمير وانكب عليها رجال المعارضة ينسخونها ويبثونها فى البلاد لا نجد مجتمعا الا ترددت على مسامعه ولا مسجدا الا عرجت عليه ينشدها الدعاة قبل الصلاة وينشدونها بعد الصلاة حتى صارت أبياتها على كل لسان . وحتى قام لها القاسم وقعد يبحث عن قائلها ويجد أصحابه فى أثر منشدها . ولا تلقى التهمة على رجل حتى يزج به فى السجن دون تبصر .

وكانت تهمة هذه القصيدة تكفى لأن تلقى الفزع فى القلوب وتثير الرعدة فى أوصال الرجال .

ولنقرأ معا أبيات القاضى على بن محمد العنسى عندما زج به فى السجن متهما بانشائها :

امام الهدى هبنى جنيت جناية ... بحق الذى أبقاك فى خلقه كهفا

فوالله مالى قط ذنب عرفته ... وهذا الذى أبدى ولله ما يخفى

امام الهدى هبنى جنيت جناية ... فهبنى لأطفال كطير القطا ضعفا

وقد برع أصحاب الأمير فى أن يكتموا عليه كما برع هو فى أن يعدد ألوان الفساد ويشوه الحكم تشويها ليس بعده شىء أو بمعنى أصح أن يصور الحكم تصويرا دقيقا .

وقد استغل ابن الأمير هذه الفرصة ليعرى بيت القاسم وليكشف عن آثامهم جميعا لا فرق بين القاسم وبين من سبقه ومن حوله . سلكهم جميعا فى جرائم الحكم وفوضى المجتمع وتضليل العامة . والقصيدة واضحة كل الوضوح نفضل أن نقدمها اليك كاملة لترى أى لون من ألوان الحكم هذا الذى تستر وراء الأمامة واختفى خلف مظهر الدين .

ناعى الدين

سماعا عباد الله أهل البصائر ... لقول له ينفى منام النواظر
فشقوا ثياب الصبر عند سماعه ... وصبوا من الأجفان دمع المحاجر
ولا تحسبوا هذا وفاء بحق من ... تقضى وأضحى فى مضيق المقابر
فقد قام ناعى الدين فيكم مناديا ... بأرفع صوت فوق أعلى المنابر
واسمع سكان البسيطة كلها ... فما مؤمن للسامعين بعاذر
أوقر على الأسماع أم فى أكنة ... قلوب البرايا أم عمى فى البصائر
أيدفن فيما بينكم شرع أحمد ... ويهدم من بنيانه كل عامر
ولم ير محزونا عليه كأنما ... دفنتم عدوا فقده غير ضائر

أين التناصح

ثكلتكم أين التناصح للهدى ... وأين التسامى للعلا والمفاخر
أضعتم وصايا المصطفى وهجرتهم ... طريقته فى نهيه والأوامر
وجئتم بأمر منه يبكى ذوو الهدى ... ويضحك منه كل رجس وخاسر

عصابة ابليس

فيا عصبة ضلت عن الحق والهدى ... ومالت الى أفعال طاغ وفاجر
بأى ملوك الأرض كان اقتداؤكم ... فما لكم فى فعلكم من مناظر
أنا فستم الحجاج فى قبح فعله ... ففعلكم فى الجور فعل مفاخر
يفديكم ابليس حين يراكم ... يقول بكم والله قرت نواظرى
نبذتم كتاب الله خلف ظهوركم ... ولم تعملوا منه بنص وظاهر

من عشرية الى خراجية

خراجية صيرتم الأرض كلها ... وضمنتم العمال شر المعاشر
لذاك الرعايا فى البلاد تفرقت ... وفارقت الأوطان خوف العساكر
وقد رضيت بالعشر من مالها لها ... وتسعة أعشار تصير لعاشر
فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما ... حوته وما قد أحرزت من ذخائر
اذا سئلت عن جوركم وفعالكم ... أجابت علينا بالدموع البوادر

قضاة السوء

فقل لقضاة السوء لا در درهم ... أما لكم فى نصحهم سهم قامر
أما أخذ الميثاق ربى عليكم ... بأن تنصحوا بالحق أهل المناكر
قنعتم بأخذ السحت منهم وبالرشا ... ودافعتم عنهم بسيف المعاذر
معاذير راجت عند ابليس لا سوى ... وما هى الا ضحكة فى المسامر

أين تذهب أموال الشعب

وقلتم لمولى الأمر يأخذ مالهم ... اذا ما عليهم خاف سطوة جائر
وما خاف مولاكم عليهم وانما ... غدا منفقا أموالهم فى العمائر
ويأخذ بالمنقول منهم عقارهم ... ويعرض عما قد تلى فى التكاثر
ويكنز ما فيها ليكوى جبينه ... مع الظهر منه يوم كشف السرائر

العصابة الهاشمية القاسمية

ويا عصبة من هاشم قاسمية ... الى كم ترون الجورى احدى المفاخر
وأحللتم ما حرم الله جهرة ... وشر ذنوب الخلق ذنب المجاهر
وجوزتم أخذ المكوس بأرضنا ... وتوفيرها ظلما على كل تاجر
وقلتم نرى فيها مصالح للورى ... وربكم أدرى بكل الضمائر
تساويتم فى كل قبح فعلتم ... أكابركم فى فعلهم كالأصافر

أكل الزكاة

أأحلتم أخذ الزكاة وأكلها ... كأحلال أهل السبت صيد الجزائر
ورديتم نص الكتاب بمنعكم ... فقيرا واعطاء الغنى المكاثر

انحـــــلال

أتيتم بأصناف الضـلالات كلهـا وجئتـم بأنواع الأمـور المنـاكر
وأمـا الجـزاءات التى كل ليـلة تسمى سيارا وهى احدى النـواقر
ففى « بردقان » أنفقت وحشيشة وخمـر لخمـار ولهـو لسـامر
لقد أثرت هذى القبـائح بينـكم وقد ظهـرت فى كل باد وحاضـر

اغتيـــــالات

لما قد رأينا فى الحسين بن طـالب وتقطيعـه ملقى بجنب المقـابر
وبان لكم من غير شـك غريمـه ولكن طرحتم فـوقه ثوب سـاتر
وحابيتـم الجـانى لأجـل قـرابة وخشـية أن يخزيكم فى المحـاضر

الأكابر والأصـاغر

أكابـركم قد ميـزوا لصـلاحهم واغضائهم عن موجبـات الأوامـر
باقطـاعهم ما حـرم الله أخـذه فسـحقا وبعـدا بعد ذا للأكابـر

خطـوب وخطبـاء

وأشنع خطب ما يقول خطيبـكم من الكذب المنشور فوق المنـابر
منـابر كانت للمـواعظ والهـدى فما بالهـا عادت لسخرة سـاخر

شـرار العمـال

ملأتم بـلاد الله جـورا وجئتـم بمـا سـودت منـه وجوه الدفاتر
ووليتـم أمـر العبـاد شراركم وخـولتم أعمالهـم كل ماكـر

عهد المهدى وعهد القاسم

وقد كنتم ترمون من كان قبـلكم بظلم وجور قد جرى فى العشـائر
وقلتم نرى المهدى قد بان جـوره لكل سـميع فى الأنـام ونـاظر
صـدقتم لقد كان الظلوم وانمـا بظلمـكم قد صـار أعدل جـائر
فكل فتى قد كان يشـكو فعـاله وسـيرته قد صار أحسن شـاكر

الأوقاف والمساجد والمدارس

وما أخذ الأوقاف قط ولا اشتكت مساجدنا فى عصره كف قادر
ولا أمر « الشجنى » يأخذ مالها فيا بئس مأمور ويا خزى آمر
فبالاخذ كم قد أغلقت من مدارس وكم من سبيل قد غدا غير عامر
وكم فى زبيد أغلقت من مساجد وأغلق فيها مسجد للأشاعر
وفى آنس كم قرية قد تعطلت مساجدها عن كل تال وذاكر
ولو تشترى تلك المساجد باعها ببخس وما بالى بصفقة خاسر

يا وزراء السوء

ويا وزراء السوء يا شر فرقة وأخبث أعوان لناه وآمر
الى أى حين فى الضلالة أنتم جهلتم بأن الله أقدر قادر
أما « بالحريبى » الشقى اعتبرتم ففى فعله للخلق أعظم زاجر
هو الرأس فى كل الضلالات كلها وأول من شاد الضلال لآخر
ولكنكم جئتم بأضعاف ظلمه وزدتم على ما شاده من مناكر

الأجبار

وقلتم نرى الأجبار أموالهم لهم خذوها عليهم يا ولاة البنادر
ولكن دعوا آل الخليفة كلهم وأعوانهم من حاكم ومؤازر
ومن خفتم من شره وفساده (كردمان) (وابن الحاج)أهل العشائر
فما يفعل الدجال مثل صنيعكم فلا تشتموا من بعد هذا بكافر
فأفعالكم لو رمت حصرا لعدها لأفنيت فى الدنيا مداد المحابر

علماء الدين

ويا علماء الدين مالى أراكم تغاضيتم عن منكرات الأوامر
أما الأمر بالمعروف والنهى فرضكم فأعرضتم عن ذاك اعراض هاجر
فان هم عصوكم فاهجروهم وهاجروا تنالوا بنصر الدين أجر المهاجر

انـــذار

اذا كان هـــذا حال قاض وعـــالم وحـــال وزير أو أميـــر مظاهـــر
ولم تنتهـــوا عن غيكم فترقبـــوا صـــواعق قهـــار وســـطوة قـــادر
فمـــا الله عمـــا تعمـــلون بغـــافل ولـــكنه يمـــلى لطـــاغ وفاجـــر
وقد أرســـل الآيات منـــه مخـــوفا ولكن غفلتم عن ســـماع الزواجـــر
رمـــاكم بقحط ما ســـمعنا بمثـــله وحبس ســـحاب بالأغـــاثة ماطـــر
آجيبوا عبـــاد الله صوت منـــاصح دعاكم بصـــوت ماله من منـــاصر

(٣)

وتعتبر هـــذه القصيدة اعلانا لثورة والتزاما من ابن الأميـــر لما وهب نفسه له فى خدمة الشعب وقد واجه بعد القصيدة موقفا دقيقا كاد يجره الى ساحة المساومات والخصومات الرخيصة . ولكن الرسالة كانت واضحة فى ذهن الأمير ومن هذا الوضوح اســـتطاع أن يخلص من ملابســـات المواقف وأن يسير نهجه لا ينحرف عنه .

كان من رأى ابن الأمير أن القضية بين المعارضة وبين القاسم هى قضية اصلاح لاداة الحكم وأســـلوبه ولا يجب أن تنتقل بهم الى قضـــية التنازع على الحكم نفسه . ونصح القوم وألح عليهم ألا تبدر منهم بادرة خروج على القاسم . فالقاسم كفيل بما معه من مال وأعوان أن يحطم كل خارج عليه وينفرد بالبلاد لا يرتفع صوت فى وجهه .

ثم هى فى تقديره انحراف عن الهدف وابتعاد عن الطريق وان الضغط الشعبى كفيل بأن يؤتى ثماره وأن يجرد القاسم من طغيانه أكثر من القوة المسلحة . وكل حركة نزاع بين متنافسين تستغل من جانب القبائل أســـوأ استغلال وقد بلغ الأمر من السوء أن أصبح الزعماء يختلقون المنـــازعات ويدفعون اليها فان لم يجدوا الى ذلك سبيلا انطلقوا الى أغراضهم الأصلية فى انتهاب المدن والاغارة على بعضهم البعض .

ولكن الأطماع كانت قد أترعت النفوس وحركتها وانطلقت بأصحابها من صنعاء ينازعون القاسم الملك . وآثر ابن الأمير أن يلجأ الى مسقط رأسه فى كحلان بعيدا عن هذا النزاع الشكلى الذى سيسقط طاغية ويحل محله آخر . ويحصد الشعب بين هذين أرواحا بريئة ضللوها وأموالا محرمة اغتصبوها وحرمات مصونة انتهكوها .

وفى الفصل الذى سنتحدث فيه عن علاقة ابن الأمير ببيت اسحق سنستكمل هذا الحديث وكيف سارع ابن الأمير بالعودة من كحلان ليواجه القاسم الرهيب فى شجاعة ليظهر أمامه وأمام الشعب أنه داعية اصلاح وليس طالب ملك أو سلطان .

كما سنتحدث فى هذا الفصل عن دور ابن الأمير فى الاصلاح بين القاسم وبين محمد بن اسحق والثائرين معه . ولم تكن هذه القصيدة التى قدمناها اليك هى الوحيدة التى تناولت عيوب الحكم والهجوم على ظلم الحاكمين والتندر بقسوتهم بل واصل ابن الأمير بعدها رسالته ينظم القصائد ويتلقفها تلاميذه وأتباع مدرسته يشرقون بها ويغربون .

ولنضرب لذلك مثلا بتلك القصيدة التى تدل على مبلغ شجاعته وعمق ايمانه بقضية الاصلاح والتى أرسلها لا متخفية ولا مجهولة وانما سارت مع رواتها تحمل طابع صاحبها كما تحمل اسمه وسجلت فى ديوانه بتعليق من ولده الذى تولى جمع هذا الديوان :

سؤال فهل مفت عليه يحرر ويبرز برهانا صحيحا وبزبر
ويتركنا من قول زيد وعمره ولكن كتاب أو حديث محرر

ويتساءل ابن الأمير عن المصدر الذى يستند اليه الأئمة فى اطلاق هؤلاء العمال وراء أفراد الشعب لا يرون طعاما ولا شرابا ولا حيوانا ولا مالا الا وتقاضوا عليه اتاوات ظالمة جائرة بدون رحمة أو شفقة .

ثم يمضى فى تساؤله :

وما بال اقطاع البلاد لســــادة ... .
فيأخـــذها منهم غنى ومتـــرف ... ورب فقير دمعـــه يتحـــدر
يغـذون منهـا فى المهـود صبيهم ... فيمشى فى مـرط الهـوى يتبختر
أليس أبـوكم لاك فى فيـه ثمرة ... فأخرجهـا المختـار وهو مغير (١)
دعاها لتنفير الطبـــاع غســالة ... فمـا بالهم لم ينفروا حين نفـروا
تحاليتم أكل الرشـــا فكأنمـــا ... يدار عليكم فى المواقف ســـكر
وســاجلتم عمـالكم فى ضـلالهم ... وقلتم لنـا رزق لديهـم مقــدر
اذا لم نســاعدهم على هفـواتهم ... جفـونا وأقصـونا وللرزق قتروا
وما شأن تقبيل (٢) البـلاد وافــه ... لفـاقرة فى الدين للنـاس تفقـر
أفيقوا أفيقـوا وانصحوا أمراءكم ... عســاكم لما أسلفتموه تكفـــروا

(٤)

اليهود :

رجع ابن الأمير من كحلان ليوجه دفة الاصـلاح الى المجتمع وهى لاشك نظرة صائبة . فاصلاح المجتمع جزء لا يتجزأ من اصـلاح الحكم . والفساد وحدة مترابطة بين القادة وبين الشعب .

رأى فى صنعاء الخمور تباع علنا والمواخير تغزو الأحياء وتكشفت النساء بصورة تخل بالحياء وبالآداب وبالتقاليد والرشوة تمتد الى صـغار الناس وكبارهم والضمائر تلفظ أنفاسها الأخيرةالابقية من العلماء والخاصة آثرت أن تنجو بدينها بعيدا عن المجتمع .

---

(١) يشير الى تناول الحسين رضي الله عنه نمرة من ثمر الصدقة ولاكهـا فادخل النبى صلى الله عليه وسلم أصبعه وأخرج التمرة من فيه وهو يقول • كخ • كخ ياحسين • وروى عنه عليه السلام أنها لاتحل الزكاة لمحمد ولا آل محمد وعلل المنع بأنها غسالة لذنوب العباد • وصاحب المذهب يقول أن المضطر من الآل يقدم الميتة على أكل الزكاة •

(٢) يمنح السيد أو شيخ القبيلة مع قبيلته ناحية من النواحى يتولى جمع الآداب منها ويفرض عليها الواجبات وينفرد بها وبخبراتها •

ووجد ابن الأمير أن منطلق الفساد من اليهود .

فاليهود بزعاماتهم فى صنعاء يعملون على انهيار المجتمع بما يعصرونه من خمور ويجعلونها مصدر ربح ومصدر افساد وانهم ييسرون للناس سبل الشر بما يقدمون لهم فى مواخيرهم من متع حرام وانهم يدفعون نساءهم الى التصدى للرجال فى الأسواق .

وهذه الأموال التى تجمع من الشعب ترتد أسلحة دمار لافساد الضمائر وتقديم الرشا .

وبدأ الناس يقرأون مؤلفات لبعض العلماء المعاصرين تناقش قضية اليهود فى جزيرة العرب . وهل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيته على فراش الموت باخراج اليهود من جزيرة العرب .

هل صح هذا الحديث أصلا ؟

وهل اليمن من جزيرة العرب ؟ حتى يصدق عليه هذا الحديث ؟

وفى الوقت نفسه استغل زعماء اليهود هذا الاضطراب الذى غطى على المجتمع فأخذوا يستحدثون بيوتا للعبادة لم تكن موجودة من قبل . يقيمونها وينفقون عليها ويعلون أسوارها لتكون لهم حصونا قبل أن تكون لهم بيعا .

وكان الحكم الاسلامى قد ضمن لهم عددا من بيوت العبادة لا يعدو عليه انسان وظلت هذه البيوت قائمة مئات السنين لاتمتد اليها الأيدى ولا يطمع فيها طامع تغير القبائل وتغدو الجيوش وتروح منتصرة منهزمة لايتعرض لها أحد بسوء .

واذا بالناس فى هذا العصر يمسون ثم يصبحون على أعداد هذه الكنائس يتضاعف الى درجة لاتتناسب مع اعداد المتعبدين . واذا بأبنية هذه البيوت تخرج عن طبيعة البيع الى نظام الحصون .

وشغل الناس فى يوم من الأيام بحادثة منكرة اذ دخل رجل سكران الى مسجد من المساجد وحاول الاعتداء على أحد الصبيان .

وكانت ضجة وواجهوا القاسم الرهيب بها وطالبه أنصار ابن الأمير بأن يستأصل أسس الداء ألا وهو اباحة بيع الخمور للمسلمين .

وكان ابن الأمير فى هذا الوقت يقوم ويقعد بهـذه القضية ينـاقش العلماء ويشرح للعامة ويعمق القضية فى نفوس تلاميذه .

واستدعى القاسم زعيم اليهود « سالما العراقى » يسـأله عن سـبب مخالفة الأوامر التى تقضى بعدم جواز بيع الخمر للمسلمين .

فما كان من سالم الا أن قال :

ان اليهود مرخص لهم ببيع الخمر وان الذى أعطاهم هـذا الترخيص هو محمد بن اسماعيل الأمير والحسن بن اسحق .

أرأيت الى هذا الدهاء الذى قصد به الرجل أن يستفيد من المحنة .

وكأنه لم يكتف بان يدافع عن نفسه ويخلص من هذه القضية لا عليه ولا له ولكنه أراد أن يخرج منها بكسب كبير . ألا وهو القضـاء على ابن الأمير وأضاف اليه الحسن بن اسحق لعلمه أن القاسم يتمنى أن يوقع بأحد أبناء اسحق فى قضية شائنة مثل هذه القضية .

ولتعلم أن سالما العراقى لم يكن يعمل وحده فى المؤامرة بل كان معه رجال لهم خطورتهم فى بلاط القاسم وسنرى بعد أن سالما كان يتحكم فى حاشية القاسم الى أبعد مدى يصدقه عقل .

عندما علم الأمير بما قاله شيخ الطائفة سـارع الى القاسم قائلا قـد اتهمت أمامك انى أفتيت ببيع الخمر ولا سبيل لمعرفة الحقيقة الا بمواجهة هذا الكاذب الشرير .

وفى الفترة بين هذا الحديث وبين اسـتدعاء سالم أخذ ابن الأمير يوضح للقاسم عدد الكنائس التى كانت لليهود من قبل وعدد الكنائس التى استحدثوها .

وطلب من القاسم أن يواجه شيخ الطائفة بسؤال واحد أولا وقبل أن يسأله عن القضية الأصلية وهو :

كم عدد الكنائس فى قريتكم ؟

وجاء الرجل وووجه بالسؤال وأخذ يعدد أسماء الكنائس وأماكنها غير مدرك ما يخفى وراء هذا السؤال .

وهنا بادر ابن الأمير يقول :

ها قد رأيتم كم عمروا ؟

وأدرك سالم دقة الموقف ومغزى السؤال وما يكمن وراءه . وأفقدته المفاجأة دقة التفكير وضيعت عليه خطته فأخذ يغالط ويداور .

وانتهز الأمير الفرصة وسأله :

(أنت قلت أنى أفتيتك بجواز بيع الخمر (١)

ففى أى وقت لقيتنى وأفتيتك ؟

أو كتبت لك بخطى فتوى ؟)

فتردد الرجل ثم ألقى التبعة على غيره قائلا :

(قال لنا عالمنا) .

عندئذ لم يملك القاسم الا أن يأمر بسجن شيخ الطائفة فطالب ابن الأمير بزيادة العقوبة بأن يقيد .

ولم يكن الأمير يهتم بقيد سالم أو اطلاقه وانما أراد أن يدلل على نفوذ الطائفة بالرشا والى أى مدى يصلون الى مايريدون .

وقد واجه القاسم صراحة بهذا فقال ان هذا الرجل يبذل الأموال لمعاونيه وسيراجعونكم بشأنه ويتشفعون له .

وأنكر القاسم هذا الادعاء .

وخرج ابن الأمير واثقا مما قال بعد أن أصدر المتوكل أحكامه القاطعة فى كل ما يتصل بالقضية .

---

(١) ديوان ابن الامير .

وما كاد ابن الأمير يصل الى المسجد حتى تناهى اليه أن المتوكل أمر بفك القيد ثم تساقطت الأحكام حكما اثر حكم قبل تنفيذها . وكأن لم تكن جريمة ولا ثمة عقاب .

(٥)

سلطان الدولة :

وقد يظن ظان أن الامام كان حاكما لليمن يمتد سلطانه على البلاد ويتربع على عرش حكومة مركزية تسير دفة الأمور وتوزع الخدمات على البلاد وتجبى اليه الأموال من الأطراف وتحاسب المسىء وتكافىء المحسن وتحمى الحدود وتؤمن الطرق وتنتصر للضعيف وتلزم القوى الحدود التى رسمتها .

ولكن الحقيقة التى تتضح لكل ذى بصيرة أن الامام كان أشبه بشيخ الطريقة أو برأس عصابة على حد تعبير ابن الأمير . ليس له نفوذ أكثر من صنعاء وما اليها أما بقية البلاد فموزعة على الاقطاعيين .

فان كانوا من أوليائه أرسلت اليه النذور وبعض الهدايا وعين فيها القضاة والعمال يحددون مرتباتهم حسب قدراتهم على ابتزاز الأموال وضرب الرعايا بعضهم ببعض واستغلال الخصومات لمصالحهم الشخصية فاذا أحس الامام من أحدهم كسبا وفيرا وزيادة فى المدخرات قدر عليه مبلغا من المال فان أداه أعاده الى عمله وأن تأبى عليه حبسه وباع وظيفته الى آخر أقدر على الأداء منه .

واذا كان صاحب الاقطاع خارجا على الامام مستعصيا عليه لم يملك من أمر المنطقة شيئا سوى بعض النذور تتسلل اليه خفية .

والزكاة فى كلتا الحالتين يتقاضاها عمال صاحب الاقطاعية يحددون غلة الأرض وعدد البقر والغنم ويحددون مقدار الحق المفروض .

ويضيفون اليه مقررات بمسميات غريبة لايملك المواطن منها فكاكا . حتى زاد الظلم وعجزت الأرض عن أن تفى بحاجات المواطن العادى وبأطماع

سادته من الاقطاعيين ففارق الناس أرضهم وديارهم يلتمسون الحرية والحياة فى أرض الله الواسعة .

هذا ان كانوا من سواد الناس اما ان كانوا من أصحاب النفوذ وذوى الكثرة الكاثرة التى تقاتل وتشترك فى سوق المنافسة ويلتمس رضاها من الأصدقاء ويخشى بأسها من الخصوم فانها تسعى للحصول على اقطاع مثل اقطاع السادة تعيش به وتحمى أتباعها فى ظله .

وان لم تستطع تحصنت فى القلاع والحصون تعدها للهجوم والدفاع .

وأصبحت هذه الحصون تقليدا بين القبائل يبالغون فى اشادتها ويختارون لها الجبال المنيعة التى تسيطر على الطرق وتتحكم فيها ويساومون بها صاحب صنعاء .

وبلغ الهوان بالملك المتربع على العرش ان كان يدفع رواتب — وان شئت فسمها اتاوات — لأصحاب هذه الحصون حتى يضمن ولاءهم .

وكانت الحصون التى تهدد أمن الطرق ويضج الناس منها بالشكوى ويحس الامام أن لامناص له من التعرض لها ولأصحابها كان يتحايل هو وأتباعه على مساومة صاحب الحصن حتى يشتريه منه ثم يقوم بهدمه كما فعل المنصور حسين بحصن « قصبه » الذى كان يهدد طريق الحج فاشتراه من صاحبه بالف ريال . ثم هدمه .

وما كاد العباس يعتلى العرش بعد أبيه حتى سارع صاحب الحصن الى اعادة بنائه واعادة التهديد من أبراجه .

وانصرفت أكثر القبائل عن الأرض والزراعة والرعى وأصبحت مصادر الرزق شيئا آخر غير هذا .

أصبح الرزق يلتمس من الحروب الدائرة بين الطامعين فى الملك فاذا لم يكن هناك طامعون فلتكون القبائل منها فرقا تغير وتسعى للغزو وسلب المدن والقرى وانتهى الأمر الى أن أصبحت هذه الاغارات أسلوبا للحياة وموسما لحصاد الرزق اغتصابا من عباد الله الوادعين .

وتبعا لكل ذلك استهان الشعب بقانون الدولة وأصبح للقبائل قانونها الذى تحكم به وتفض به منازعاتها وتحل به مشاكلها وتلجأ اليه فى معاملاتها وسميت هذه القوانين « أحكام الطاغوت » .

ولا تظنن أن الشعب كان راضيا عن هذه الفوضى المدمرة وانما كان يقبل هذا الذى هو فيه لأن أى قانون وأى نظام خير من نظام يفد اليه من صنعاء ومن حكام صنعاء .

لقد كان حكم الطاغوت على بدائيته خيرا من أحكام يقضى بها قضاة صنعاء .

وكان الاقطاعى من شيوخ القبائل خيرا للناس وأخف وطأة عليهم من اقطاع السادة .

وكان شيوخ القبائل فى حكمهم أقرب الى ذويهم من صاحب صنعاء ووزرائه وعماله .

وقد كان ابن الأمير يهدف بحركة الاصلاح التى نادى بها أن يبعد هذه الأسر المتكالبة على الحكم . لأنه يعلم أنها أساس البلاء فى اليمن .

وان لم يستطع فى ذلك الوقت أن يجاهر الناس بهذا الرأى فما ذاك الا لأن المجتمع لم يكن مستعدا لأن يتقبل هذا التغيير الأساسى .

وقد مضى على الناس مئات السنين تصب فى آذانهم فكرة الامامة لأبناء فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — حتى أصبح بعيدا عن الأذهان مستعصيا على الخواطر أى رأى يخالف هذا الرأى .

وليس بغريب على شعب اليمن أن يعيش فى هذا الوهم . فقد استغل محمد على ثورة الشعب المصرى فى أعقاب الحملة الفرنسية لما وجد الفكرة السائدة أن يكون الوالى تركيا أو مملوكا .

وبعيد كل البعد أن يكون مصريا من أبناء مصر .

وسطا الجندى المجلوب من « قوله » على ثورة الشعب فشرد زعماءها وعلى ملك مصر فتقلده وورثه أبناءه من بعده .

وعندما كشف الغطاء عن العقول وأزيحت الغشاوة عن الأبصار قامت ثورة يوليو الرائدة وهب الشعب يساندها بكل قواه .

بل كانت هذهالثورة تعبيرا في أساسها وهى الطليعة الثورية لشعب مصر العظيم .

فهل يلام شعب اليمن فى ذاك العصر أن بعدت عن متناوله هذه الفكرة واستنكرها .

وهل يلام ابن الأمير معه أن سلك الى أهدافه طرقا قاصية . وان عمى على أصحاب النفوذ ومالكى البلاد غايته التى يعمل من أجلها . وان اضطر فى كثير من الأحيان الى أن يجامل ويداور ويسدح ويسوق الكلمة الطيبة تمضى وراءها العقيدة الثابتة التى لاتتزعزع . ألا وهى القضاء على الأسر القاسمية خاصة وأسر السادة عامة واقصاؤهم عن الحكم . ولو كان الطريق الى ذلك أعمال السيف فيهم حتى يأتى عليهم جميعا .

لهذا لم يتبع ابن الأمير أبناءاسحق ولم يتحالف مع القاسم بل ظلأمة وحده يوضح للشعب ان هؤلاء وهؤلاء عصابة يمتصون دماءه وهم متفقون متحالفون ، ويزهقون روحه وهم متنازعون متنافرون .

انه يقرع الرءوس بصوت مدو حتى تنفض عنها ما رسخ بها منأباطيل وما عمق فيها من ترهات .

وبيت اسحق قد أزعجه ألا يلحق بهم ابن الأمير فى هجرة شاطب عندما خرجوا فى عام ١١٣٦ هـ ولذلك كتب اساعيل بن محمد بن اسحق تلميذ ابن الأمير اليه ليعاتبه على هذا التخلف .

ورأىفيها ابن الأمير فرصة ليبين لاصدقائه رأيه واضعاصريحا لا ابس فيه ولا مواربة ولا خفاء .

وليوضح للشعب فى الوقت نفسه حقيقة هذه العصابة التى تقتتل على امتلاكه .

لذلك فهو يشرح لتلميذه أن تجربتهمع الحكم والحاكمين أكبر وأعمق من أن تسوقه الى التورط معهم فيما هم فيه :

انا قد حبلت الدهر أشطره وقد جربت خائن أهله والوافى
ونظمت فيه وفى بنيه قصائدا متغايرات أبحرا وقوافى
سحقا لأبناء الزمان فانهم ما فيهم صافى الوداد مصافى

ليس من هدفى يابنى أن أبعد القاسم لأحل محله محمد بن اسحق .
والحاشية هى الحاشية والولاة والقضاة هم القضاة .

وابن الأمير لا يتخلى عن أدبه الجم الذى عهد عنه عندما يناقش الولد قضية أبيه :

وذكرت من يدعو الى نهج الهدى ويريد منه حياة ربع عاف

وأنا لا أنكر فضل أبيك ولا توفر شروط الامامة فيه .

لكنه يدعو أناسا همهم فى خصب عيشهم وفى اسراف
صم عن الداعى وان قالوا له قولا ففعلهم لذاك مناف
قوم عن العليا قعود جثم ليسوا بأهل صفائح وصحاف
لايغضبون على الشريعة ان غدت منهدة الأركان والاكناف

ولا تظنن أنى أقصد بهؤلاء جماعة غير أبناء عمنا الذين تعالوا على الناس جهلا وترفعوا عليهم بغيا وطغيانا وجعلوا تعاليم الاسلام وراءهم ظهريا .

الاسلام الذى يسوى بين الناس جميعا ويفاضل بينهم بالتقوى فحسب .

الاسلام الذى حارب ترفع الأسر وتعالى فرد على فرد ، آن ابن الأمير يحدد من يقصدهم صراحة بابياته السابقة هؤلاء الذين كل همهم الخصب والأسراف ولتكن سرقات وليكن النهب والسلب والرشاوى وكل موبقات الأرض فى سبيل الوصول الى الخصب والاسراف .

هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون .

هؤلاء الذين قعدوا عن كل مكرمة ، لا علم ولا حرب .

هؤلاء الذين يزعمون أنهم أرباب الشريعة وحماتها مع أنهم لم يغضبوا لها فى يوم من الأيام .

أتدرى يا اسماعيل من هم هؤلاء :

أعنى بهم من يزعمون بأنهم رأس الورى والناس كالأخفاف

وتزعمون أنكم خرجتم لنصرة الهدى وتطهير البلاد من الفساد وأنا أسلم لكم بما تزعمون ولكن :

قل لى بأى عصابة يرجى بها نصر الهدى ونكاية الألفاف

هذه العصابة التى التفت حولكم وتلك العصابة التى التفت حول القاسم .

وعصابات أخرى تترقب نتيجة المعركة بينكما لتثب أو تختفى :

ان كان عندك من يدير عليهم كأس الردى بالسمر والأسياف

من دون هتك محارم وأرامل ومدائن ومعاقل وضعاف

فأدره لا تخشى عليهم رأفتى مثلى يحن على الجهول الجافى

انصح أباك يا بنى أن يسارع بالصلح مع القاسم وأن يجنب البلاد ويلات ما هى مقبلة عليه . وكفى تضليلا على الشعب .

اننا يا بنى عصابة .

عصابة كثر عددها حتى زادت على الآلاف .

عصابة تكالبت على خيرات الشعب وأرزاقه .

عصابة لم تقنع بأكل ما حرم عليها من أموال الزكاة .

بل عدت على ما يسلكه الانسان المسلم تنتزعه منه كرها بلا تعفف بلا استنكاف .

انى ومن بيت الامام عصابة في العد قد زادوا على الآلاف
مسترزقون من الرعايا ليتهم قتعوا بأكل فرائض (١) الأصناف
بل يأخذون من الرعايا كل ما يحوونه كرها بلا استنكاف

يابنى : انها ليست قضية التقى الورع الذى يلى الملك ويتربع على العرش ولكنها مشكلة الأسرة عدد أفرادها آلاف مؤلفة يملك كل أفرادها بتملكه ، ويتحكم كل أفرادها بتحكمه .

هل يقبل هذا التقى الورع أن يتربع على العرش ويحرم ذوى قرباه ؟

واذا قبل هو هذا فهل يقبلون هم ؟

لماذا اذا قاتلوا من حوله وملكوه ؟

انه ان فكر في هذا أشعلوا في الأرض نارى فتنةوخلاف
أتظن من منكم يلى أمر الورى يلقى قرابته بلا استخفاف
لا بل يقول عطاهم لى لازم بل ذلك المقصود في استخلافي
اعطى الصغير مع الكبير معمما ذات الخمار وربة الأشناف (٢)
واذا أراد خلاف هذا أشعلوا في الأرض نارى فتنة وخلاف
قسما لقد فسد الزمان وأهله فالكل عن نصر الهدى متجافى

وقد كان صاحبنا صادق النظرة ملهم الفكرة عندما بعد بنفسه عن سوق الفساد والكساد . فما هى الا أيام حتى جاءت الأخبار تروى أن جيوش ابن اسحق قد عدت على الصلبة وبلاد حفاش .

وكان النهب والسلب وانتهاك الحرمات ووزعت الأموال المنهوبة وبيعت الذخائر المغتصبة أمام أصحابها وهم يعولون ويولولون دون أن يرق قلب أو يرحم راحم .

---

(١) مصارف الزكاة محددة بنص كتاب الله وقد حرمت الزكاة على محمد عليه السلام وآل محمد ان كان هؤلاء من آل محمد .

(٢) لا يعجب القارىء ، فقد كان نساء السادة تحصل على اقطاعيات مثل الرجال .

ويسارع ابن الأمير الى تلميذه يعاتبه فى الظاهر على ما جنى هو وذووه ثم هو فى الحقيقة يؤدب تلميذا كان محط آماله ويوضح للشعب أن الدائرة مفرغة دائرة هذه الأسرة وعلى الشعب أن يخرج منها .

وابن الأمير يتناول هذه المحنة فى قصيدته بطريقة تغنيك عن البحث عما كان يفعل فى كل حركات النهب والسلب والاعتداء .

وما حدث فى عهد القاسم الرهيب على أيدى بيت اسحق هو نفسه ما حدث فى عام ١٩٤٨ على يدى الطاغية أحمد حميد الدين .

ولنسمع الى ابن الأمير :

عتـــــاب

أمثلك يرضى بارتـكاب العظـائم ... ونهب الرعـايا وانتهـاك المحـارم

كأنـك لا تخشى ملامـة لائـم ... ولا فى الردى الجـارى عليهم بآثم

ماذا فعلتم بأموال الرعايا الآمنين

أيقسم أمـوال الرعـايا تجـاريا ... وأنت بمـرأى كل طـاغ وظـالم

تداولهـا أيـدى الطغـاة كأنهـا ... تـراث أبيهم أحضـرت للتقـاسم

أبـن لى أبـن لى أى ذنب لمسـلم ... مصـل لـرب العـالمين وصـائم

غدا ماله نهبـا وأضـحى مروعـا ... وأصـبح يذرى دمعـه كالغمـائم

يـرى ماله فى كل كـف مفـرقا ... يبـاع بأدنى سـومة لمســاوم

وأمـواله كانـت عليـه عـزيزة ... معظمـة مدخـورة للفطـــائم

وكـان غنيـا آمنـا متنعمـا ... فأمسى فقيـرا خائفا غيـر طاعـم

تضـيق عليـه أرضـه وسـماؤه ... كـأن بـلاد الله حلقـة خـاتم

يا من خرجتم لنصرة الهدى

أنهب الرعايا دأب من ينصر الهدى ... وترويعهم فعـل الهـداة الفـواطم

واخراجهم من أرضـهم وديارهـم ... فعال ذوى التقوى وأهل المـكارم

ثكلت الهدى ان كان ذا فعل أهله ... وذقت الردى ان كان ذا فعل حازم

أبعد أن علمتك تصبح رأس عصابة ؟

ضياء الهدى لهفى على دينك الذى — سمحت به جـودا ولا جود حـاتم
اتنفق ريعـان الشـبيبة والصـبا — على طلب التحقيق من كل عـالم
وأحـرزت فيـه ما تـريد ونلتـه — وصرت فريدا فى العـلا لم تزاحم
ومن بعد ذا أصبحت رأس عصـابة — أباليس أضـحى همهم فى المظـالم
يـرون انتهـاب العـالمين غنيمـة — وأطيب مغنـــوم لأخبث غانـــم

ما بهذا ينصر الدين ؟

بهـذا أردتم نصر شـرعة أحمـد — وانقاذ أهل الأرض من كل ظـالم
فصرتم عليهـم نقمـة عرفتهـم — بان ولاة الجـور رحمة راحـم
وحببتمأفعـال من كـان جائـرا — لقد صار مشـغوفا بها كل غـارم
اتهجـر قـول الله فيما أتيتـه — وتؤثـر قـول الشـاعر المتقـادم
(ومن عرف الأيام معـرفتى بهـا — وبالناس روى رمحـه غير راحم)

يا لضيعة نصائحى لكم

ويا طـالما شافهتـكم بنصـائحى — وبحت بما تلقـونه غير كاتـم
وتابعت نصحى بعد أن شطت النوى — بنثـر ونظـم معجـز كل ناظـم

لو كان هذا يقضى على الظلم والظالمين

ولو كنت أدرى ان فى مثل فعلكم — زوالا لمـن فى الأرض أظـلم حاكم
لـكنت وحـق الله أول ناصـر — وكنت لربع الجـور أول هـادم

مصـيبة العصر

ولكن خبرنا الناس من قبل خبركم — فمـا همهم الا اتبـاع الدراهـم
فلو يعقـل الدينار صلوا لأجـله — وصاموا وقالوا أنت رب العـوالم

توبوا عن الأطمـاع

أما آن من بعـد الذى قد رأيتم — لكم أن تعودوا عنـه عود مسـالم
وان تتركوا ما قد جنيتم وتقبـلوا — على توبة تمحـو عظيم الجـرائم
اذا اعتـل دين المـرء داوته توبة — فما غيرها للدين أشـفى المراهـم

وتلزمنا هذه المناسبة الأليمة أن تتطرق الى موضـــوع لا نســلك أن تتجاهله فى هذا البحث .

كان الأئمة يدفعون أتباعهم لمتل هذه الجرائم وعندما ترتكب يديرون أعينهم عنها تغافلا حتى اذا راجعهم مراجع غاضب لله ولدينه أنــكر الامام وبسمل وحوقل وقال « لا نرضى بهذا » .

ودرج كتاب التاريخ على تجاهل هــذه المآسى فان اضطروا الى ذكر واحدة منها حرصوا على أن يسجلوا عقب كل مأساة « ولم يرض الامام » « وفعلوا هذا دون رضى الامام وعلمه » .

(واتتهبت (١) الصلبة وبلاد حفاش من غير ارادة الأمراء لذلك) .

وفى حصار صنعاء أيام المنصور جد الطاغية أحمد كانت المرأة تتسلل من المدينة التى أقفرت من الطعام وقد صحبت معها وليدها فلا تسلم بنفسها ولا تسلم بما معها من جنود المنصور ثم يقول صــاحب المقتطف « لم يرض الامام » .

وفى محنة صنعاء عقب ثورة ١٩٤٨ التى فعلت فيهــا القبائل الأفاعيل كان الطاغية أحمد يقول « ونحن لم نأمر بهذا » وروج بعض الأذناب هذه الأكذوبة .

ولم يعلموا أو يعلم طاغيتهم أن الناس أطلعوا على أوامر بخط أحمد فى أيدى شيوخ القبائل يبيح لهم فيها صنعاء .

ولكن اسماعيل بن محمد بن اســحق كان أكثر شــجاعة من هؤلاء ولم يستطع أن يغرر بأستاذه .

فهو يعترف بالجرائم ويفلسف لها .

يدعى انه يحطم ظلما بظلم .

ويقضى على الضلال بنهب وانتهاك الحرمات .

---

(١) نشر العرف نقلا عن نفحات العنبر .

فيجيب على قصيدة ابن الأمير بقوله :

أيمكن أن ينهد ركن المظالم ... بغير القنا والمرهفات الصوارم

وتذهب آثار الضلالة فى الورى ... بدون انتهاب وانتهاك محارم

محال زوال الظلم من دون أن يرى ... معرة جيش الحق عند التصادم

وانى أرى نصر الهدى ووقوع ما ... به لمت أمرا صار كالمتلازم

فما كان من أجدادنا مثل ما مضى ... على الناس فى عصر مضى متقادم

ولابد من هذا لمن رام فى الورى ... زوالا لمن قد صار أظلم حاكم

فهل جاز تضمين الرعايا وجعلهم ... خراجية ظلما بغير تحاشم

وأن يتولى أمرهم متقلب ... شديد على مظلومه غير راحم

يقلد أحوال الرعايا عصابة ... يرون اتباع الجور ضربة لازم

تمالوا على ظلم العباد فقصدهم ... وان أغضبوا الرحمن جمع الدراهم

وكان أقسى شىء على نفس ابن الأمير هو الاعتداء على الوادعين وانتهاب المدن والقرى .

ولولا ان حركة النهب هذه أصبحت تقليدا لكل جيش لكان لابن الأمير موقف آخر من الحكم والحاكمين فى هذا العصر . لذلك فقد سارع بالتوسط فى الصلح بين بيت اسحق وبين القاسم حتى أتمه ورجعت الأمور الى ما كانت عليه .

ولم يكن انتهاب المدن والقرى والأسواق قاصرا على الفترة التى تثور فيها المنازعات بين أفراد الأسرة .

فطوال عهد المهدى صاحب المواهب والبلاد تتعرض لهذه المحن وتلقى منها ما تلقى . وقد رأينا ما صنعه أبناء المهدى وجيوشهم الجرارة بمدينة صعدة وعدم انكارهم على الجنود ما يرتكبون حتى هبت القبائل تثار لكرامتها .

ثم هاهى قبائل المشرق تثور لتنتقم من الوزير محسن الحيشى فتجمع جموعها ثم يخرجون مظهرين (١) ارادتهم أخذ مدينة قعطبة وما اليها حسب العادة فى خروجهم لنهبها . فانتهبوا فى طريقهم ما وجدوه من الأنعام وغيرها.

ووصلوا الى ميتم وجبل بعدان .

وفى نهار السبت عاشر الشهر قصدوا مدينة اب فحملوا عليها بسيوفهم وبنادقهم حملة رجل واحد .

وكان العامل عليها وعلى مدينة جبلة السيد حسن بن محمد بن عبد الله المحرابى غير عامل بما يجب من الحزم والثبات .

فقام أهل المدينة بحفظ بابها وغفلوا عن سورها الضعيف فدخلت قبائل المشرق الى المدينة من بعض السور والباب .

وقتلوا من وجدوا فيها من كبير وصغير ورجل وامرأة بسيوفهم ولم يحترموا أحدا من المسلمين فاستولوا على مقدار ثلثى المدينة قتلا واحراقا بالنار وخرابا ونهبا . وأخذوا جميع ما فى سوقها وخان البانيان والمساجد وقتلوا كل من وجدوه غير مستسلم .

(واستمرت الحرب فيما بينهم وبين من حمى داره بالبنادق) .

وأما سائر المدينة فاستولى عليها قبائل المشرق ، واستمرت الحرب بالمدينة يوم السبت وليلة الأحد ويومه . حتى ظن الظان أنها قد قامت القيامة).

والحروب التى دارت فى نهاية حكم المهدى والتى طالت حتى يئس الناس من نهايتها ولم يكن الأمراء يقدمون للجيوش أموالا وانما يقدمون لهم صكوكا وأحكاما تبيح لهم ما فى البلاد من أموال وعتاد .

وها هو عهد القاسم ترى فيه أبناء اسحق يخرجون وتنتهب الصلبة وبلاد حفاش .

ويفسد ما بين القاسم وابنه الحسين الذى تلقب فيما بعد بالمنصور ويجر

---

(١) بقبة المريد .

الحسين وراءه كثيرا من القبائل تتنهب وتعبث . ثم ينتهى عهد القاسم وتثور الفتنة من جديد بين المنصور وبيت اسحق وتسقط بلاد بين براثن المتنازعين

وكانت الأمور تهدأ حينا من جانب أسرة القاسم فتهب القبائل بحكم العادة لتغير وتغنم .

ومن هذه الغارات التى كانت تفزع الشعب الوادع المسكين وتعدو على مقدساته تتعرف على مدى تفكك الدولة وضعفها وان سلطانها لا يكاد يمتد بعيدا عن صنعاء .

واستكمالا لحركة النهب هذه فاننا سنتتبع منها ما كان ذا صلة بابن الأمير سواء ما ارتبط بالنزاع على الحكم أم كان خالصا لوجه السطو والنهب .

وأول هذه الغارات كانت بتحرك القبائل بزعامة الحسين لنهب صنعاء .

كان المتوكل يفرق بين ابنيه أحمد والحسين منذ الصغر حتى أفسد ما بينهما .

ولما تولى الملك خص ابنه أحمد بامارة تعز واختص الحسين بعمران وما اليها .

وفرق بين الامارتين فى الخيرات والنفوذ .

وأخذت الأمور تنعقد بين الحسين وأبيه والصلات الأسرية فى تقاليد الأسرة هشة رقيقة ما أيسر أن تنقطع وتنبذ . وقد فعل الحسين ذلك فألب القبائل من حوله وسار بها متجها الى صنعاء لا تبقى ولا تذر .

وكان الشعب الوادع المسكين يسابق الجيوش الجرارة فى الوصول الى صنعاء يلتمس فيها الأمن والحماية .

وفى أول الأمر لم يكن قد شاع بين الناس أن الحسين بن القاسم هو الذى يريد رأس أبيه .

وبلغت قسوة الموقف على الناس حدا لا يطاق .

سيول من المواطنين لا تنقطع عن صنعاء صباح مساء يسوقون حيواناتهم وأطفالهم وما استطاعوا حمله .

وشرطة القاسم وعمال المكوس يساومون الناس على ما فروا به من أوطانهم .

وتسمع الناس عن حركة لتجميع جيش أو استنفار الرجال ليدافعوا عن أنفسهم أو ما يشعر بأن الامام المتوكل على الله قد غضب لمايفعل برعاياه .

لا شيء من ذلك .

وهناك يتحرك ابن الأمير فيجمع العلماء والأعيان فى « قبة محسن » عند باب السبحة ويشرح لهم الموقف ويحملهم واجبهم فى مثل هذا الظرف الدقيق الخطير . وألزمهم بأن يتجهوا جميعا الى القاسم لمناصحته .

ويذهب الجميع الى قصر القاسم واذا بالطاغية الرهيب يخاف لقاء العلماء فأخذيستدعى بعض خلصائه يشاورهم ويستفتيهم كيف يكون الحديث والجواب على هؤلاء .

حتى اذا اطمأن لموقفه استقبل العلماء يتزعمهم ابن الأمير . ومن أسف أن العلماء كانوا يرتجفون خوفا من القاسم لذلك عندما سألهم القاسم : عن موجب حضورهم اليه قال أكبرهم سنا وأعلاهم مكانة هاشم بن يحيى الشامى :

(الولد [1] محمد الذى جمعنا فيتكلم) .

ولم يكن ابن الأمير ليتخلى عن مسئوليته فى هذا الموقف ولم يكن ليتخلى عن أدبه والتمسك بالتقاليد العظيمة التى يسير بها المجتمع فأجاب بأنه هو الذى جمعهم حقيقة (لكن فى المقام من هو أسن منى وأحق بالكلام) .

(فتكلم هاشم بأن هؤلاء القبائل قد أفزعوا الخاص والعام وأخافوا برعبهم الرجال والأطفال والأرحام فلا عذر عن جهادهم أو اصلاحهم) .

---

(١) الولد هنا كلمة اعزاز فى عرف اليمن ويقصد بها الابن والولدهو محمد ابن اسماعيل الامير .

ثم تناول الحديث ابن الأمير بعد ذلك فوضع القاسم أمام مسئوليته .

ويكتشف الباحث من هذا الاجتماع أن القاسم كان يعلم بخروج ابنه الحسين على رأس هذه القبائل ولم يكن المجتمعون يعلمون هذا الخبر .

وكان السر فى سكوت القاسم انه أراد أن يستدعى ابنه ليوقع به .

الابن يريد رأس أبيه والأب لا يختلف شعوره عن شعور ولده .

وأخيرا أقنعوا القاسم بأن يكتب لابنه يدعوه للولاء والبر به والصلح معــه .

وخرج ابن الأمير بالكتاب للقاء الحسين ولم يلبث أن يعود . وليكتشف أنها مؤامرة حتى يتمكن القاسم من الوثوب على القبائل فى غفلة منهم .

ودارت الحرب وعرف القاسم أن النتيجــة غيــر مؤكدة فأعاد حديث الصلح بلسان ابن الأمير .

وما زال الأمر يتردد بين الحرب والصلح حتى أقنع الأمير الحسين بأن يلتمس رضا أبيه ويعود الى عمران .

وقد فعل .

وتوفى القاسم فى رمضان عام ١١٣٩ هـ وثارت الفتنـــة بين محمد بن اسحق وبين المنصور حسين وشملت الحروب شمال اليمن وجنوبه قرابة عامين على النهج الذى كانت تسير عليه الحروب «نهب وسلب وانتهاك للحرمات».

وتوقع ابن الأمير ما يحدث فآثر أن يبتعد عن المعسكرين ولعل اليأس قد دب فى نفسه من اصلاح الحال . فخرج الى الحج ولما عاد كان الاتفاق قد تم على أن يبايع الحسين محمد بن اسحق فسار اليه ابن الأمير والتقى به فى « شبام » . ولكن البيعة لم تلبث أن انتقضت فسارع ابن الأمير الى شهارة وواصل رسالته من هناك .

يواصل تلاميذه فى مختلف البــلاد بالرأى والتوجيــه وكان كثير من هؤلاء التلاميذ مخلصين للمبادىء التى غرسها الأستاذ لا يحيدون عنها ولا يصرفهم عن التزامها مال أو سلطان .

وهذا هو يحيى بن محمد عروبا الحوثى تلميذ بار من تلاميذ ابن الأمير وأحد الأعلام المبرزين فى مدرسته يلتزم بخطة استاذه حتى أصبحت حوث أحد المعاقل التى يعتز بها ابن الأمير ويتخذ منها منطلقا لرسالته .

وكانت مدرسة حوث تبادر تارة الى العمل الذى وهبت نفسها له وتارة آخرى تتلقى تعليماتها من شيخها فى شهارة .

(فى (1) سنة ١١٤٢ هـ خرجت قبائل يام من نجران وغيره يقودهم المكرمى ففتحت لهم قبائل حاشد الطريق وانضم اليهم أحمد بن محمد أبو منصر صاحب « ذيبين » فانتهبوا مدينة « بيت الفقيه » ابن عجيل بتهامة على حين غفلة من الاستعداد لشدة مرض عاملها الأمير ذى الفقار .

ولما بلغ الخبر الى المنصور الحسين بن المتوكل جهز من حضرته المولى على بن عبد الله بن القاسم بن المؤيد بن القاسم فى رجال من بكيل وأمرهم بتعجيل ملاقاة يام . ثم أردفهم بالمولى الحسن بن المحسن بن المهدى وأعطاهم المدد والعدد .

فواصلوا سيرهم الليل والنهار حتى أدركوا قبائل يام بموضع يقال له « المحمرة » من أطراف تهامة .

فجمع قبائل يام ما أخذوه الى الوسط وحفظوا الأطراف فحمل عليهم جنود الامام المنصور فسلبوا قبائل يام ما نهبوه ورجعوا بالغنائم الواسعة بعد انهزام أهل يام وقنوعهم من الغنيمة بالاياب .

(فحمد المنصور الحسين من جنده ما فعلوا) .

(وبعد أخذ جند المنصور الحسين ما أخذه قبائل يام على أهل بيت الفقيه : كنت الامام المنصور الحسين البشارات الى البلدان اليمنية ومنها مدينة « حوث » فأجاب عليه أهل حوث بمقتضى ذلك . وكتب اليه « يحيى بن محمد الحوثى ») الكتاب الذى سننقله اليك والذى سيتضح منه :

---

(١) نقلا عن نشر العرف .

— حقيقة ما كانت تفعله القبائل بالبلاد الآمنة .

— جيش الدولة الرسمى وكيف كان يتصرف وانه لا يختلف فى قليل أو كثير عن القبائل المغيرة .

ـب ان الشعب يفقد ما يفقده فى هذه الغارات ولا يمكن أن يفكر انسان أن يرد عليه ما فقده أو ينتصف له .

— انالامام لا يغضب لنهب رعاياه وانما يغضب أشد الغضب لأن هذا النهب قدتم دون أن يحمل اسمه .

— ان الفرق بين القبائل الأولى والقبائل التى تحركت بأمر الامام ان الأخيرة حملت وثيقة من الامام بأنها مجاهدة فى سبيل الله .

ومن قتل منها فهو شهيد .

وما استحوذت عليه من مال وحيوان ونساء وأطفال فهى غنائم أحلها لهم الامام المنصور بالله .

— وأخيرا يوضح الكتاب يقظة هذه المدرسة وايمانها برسالتها التى رسمها لها ابن الأمير .

ويبدأ الكتاب بتعبير شائع فى الرسائل اليمنية وهو « حاوى خير » وهى عبارة يقصدبها لفت نظر القارىء الى كل ما يأتى بعدها . وان كل ما يرد بعد هذه العبارة مهم يجب العناية به .

وقد تطول مقدمة الكتاب وتقصر فاذا وصل الكاتب الى ما يريده أصلا بكتابه بدأ بعبارة « حاوى خير » ثم يكتب ما يريد :

واليك الكتاب :

(حاوى خير الى الحضرة الشريفة العلية المنيفة بعد رد السلام والتحية والاكرام) .

فانه صدر جواب أهل الهجرة المحسية بالصالحين عن كتاب البشرى العظيمه بانكسار الفرقة الباغية والفئة الطاغية فنقول :

الحمد لله رب العالمين . ذلك من فضل الله على المسلمين خلا ان كتابكم أعلن بما لاتقتضيه الحال والمقام . وان لكل مقام مقال ولكل مقال حال .

يعرف ذلك من نظر في علم البلاغة وان لم يكن من أهل الكمال . دع عنك من صال في ميدان ذلك العلم وجال .

والحال يقتضى أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم وكتاب تعزية بما حصل على المسلمين والضعفاء والمساكين وما لاقوه من الظلمة الضالين ثم تأسونا بما اسانا به القرآن وبما وصانا به رسول الرحمن صلى الله عليه وعلى آله ما اختلف الملوان وكر الجديدان وبما قاله السلف الصالحون .

« الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

وكيف لا وهذه مصيبة في الاسلام وحادث جلل على الأنام وقد سبيت كذا وكذا امرأة وكذا وكذا ولدا وأهلكت النفوس المحترمات . وصار المسلمون خولا وأموالهم دولا . ونساؤهم كالاماء تباع وتشترى . فخليق بالمسلمين أن يبكوا دما لا ماء وان يسبلوا الدمع من العيون ، وأن يعزى بعضهم بعضا . وان يظهروا التلهف والجزع والنحيب والفزع .

لاسيما من أخل بالدفع وهو عليه فرض .

فهذا المقال هو الذى يقتضيه الحال لا ما استعرتموه من الأبيات المصرعة والفقر المسجعة والألفاظ المرصعة . فهذه البضاعة لا تنفق الا عند أهل هذه الصناعة من الجهلة الاغمار . لا عند الناظرن بعين الاعتبار من ذوى البصائر والأبصار .

دع عنك المهرة الشطار .

وما ذكرتموه ونمقتموه من الواقع الذى ملأ بحسرته الأسماع هو خلاف الواقع الشائع . فخلاصته وحقيقته :

ان هذه الفرقة الطاغية والفئة الباغية لما خرجت من بلادها والتهما القبائل الحاشدية الباغية ومضت معها في جهتها وسارت هى وهم على

المؤمنين والضعفاء والمساكين الى أن بلغوا بلاد كوكبان وحفاش وملحان فقتلوا فى قرية واحدة نحو ثمانية عشر رجلا واحدى عشرة امرأة ونهبوا البلدة بأجمعها الا أن بعض الحاضرين من حاشد (١) توجه فى رد النساء وبعض النهب .

ثم تقدم بقية يام الاشرار الى بيت الفقيه فنهبوه وجميع ما حوله من البلدان لم تسلم الا القلعة وبعض شىء من البيوت ممن لهم منعة .

فحصر المنهوب بنحو عشرين لكا وصار ذلك المحل أطلالا بالية ومنازل خالية .

ثم عادوا ووصلوا الى محل يقال له المحمرة فتلقتهم أهل البلاد وأهل « زليل » .

ثم ثارت بعد ذلك قبائل بكيل فتقاتلت هى ويام كما تتقاتل الكلاب على الميتة . وأخذت هذه جانبا وهذه جانبا . بعد سقوط القتلى من الجانبين ومن القبيلتين (٢) . وانكسرت حاشد من حفاش وملحان كسرة ربانية وهزيمة سلطانية . وخذيلة الهية . قلب عليهم الأحجار شرذمة من أهل البلاد . واستولوا على جميع ما أخذه منهم أهل البغى والفساد .

وأما الطائفة الشامية اليامية فاستولت على أنفس الأشياء عندها وحملته الى محلاتها وبلادها .

ثم طلعت بكيل الى حضرتكم الى صنعا وفتحوا فيما نهبوه وغصبوه البيع والشراء وتصرفوا فيه تصرف المالك فى ملكه . والسيد فى عبده ورقه . لايمنعهم من ذلك مانع ولا يدفعهم عنه دافع ثم أرسلوا بما لم يبيعوه الى بلادهم فوصل الى « بنى صريم » من حاشد فنهبوه وتقسموه .

هذه حقيقة الحال وخلاصته .

---

(١) أعطى الوجه أى قال هن فى وجهى أو أنا جار لهن

« ١ » من آثام أسرة القاسم ايقاد نار العداوة بين ابنى العم حاشد وبكيل

فكيف يقال لهذه بشرى ؟ أو يقام لها ذكرى أو ترفع لها قدرا ؟

كلا والله انها مصيبة من أعظم المصائب وثلمة في الاســـلام من أعظم المثالب . ومنقصة على المسلمين وفضيحة الى يوم الدين .

وما ذكرتموه من أن المجاهدين الثـــابتين فعلوا وفعلوا فمـــا ذكرتم لايستحق اسم المجاهد الشهيد .

وانه قد حدد لنا نبينا عليه الصلاة والسلام حين سئل من هو فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا » .

وهؤلاء انما قتالهم على حطام الدنيا .

وكان يجب عليكم الدفع عن رعيتكم من الضعفاء قبل أن تنهشـــهم الكلاب والذئاب وقبل أن يصلوا بلاد حفاش وملحان .

ولو كسرتم تلك الفئة الباغية قبل أن يصلوا الى المسلمين لعددنا ذلك نعمة جسيمة وبشارة عظيمة ولكأنكم فتحتم القسطنطينية وفلسطين .

ولو كان جندكم من أهل الحق — كما ذكرتم — لردوا ما نهبوه الى أهله . ولما بقوا في الحيمة وحراز محرزين أنفسهم من سقوط الســـماء أو كأنهم حافظون لها . وهي لاتقع على الأرض الا باذن الله .

نعم قد كتبنا اليكم كتبا من جهة المصالحة لحاشد وبكيل ويافع وأجبتم علينا بجواب مغالطة .

تركتم ما ذكرناه لكم من المصالحة لأنكم لو فعلتم ذلك لما نهبت يافع قعطبة وادخلت النسوة بلادها وكذلك أيام الطغام مثلها ثم ضربتم البشارات بانكسارها .

ومن أنفل ثم رجع لم يسم ذلك انكسارا ولم يكن فعله عارا .

والسبب فيما حصل أنكم حظيتم بوزراء سوء كل واحد منهم عن الدين عاطل . ديدنهم أكل أموال الناس بالباطل .

ولا يصلون الى ذلك الا بفتح هذه المهالك ولم يراقبوا شديد بطش المالك .

فبعضهم يقف فوق سجادته بعض يومه وليلته : وتلك شبكة لأموال المسلمين .

وبعضهم يخبط خبط عشواء كحاطب ليل فى ظلماء لاينظر فى الأمور بعين الحقيقة ويوهم بانه من أهل الطريقة .

وكلهم يتبع ما يهوى كلما قيل له هذا كذا قال بلى هذا يصلح هذا من أحسن ما يكون .

فهؤلاء يجب عليكم افتقادهم والنظر فى حالهم ، فعـزلهم من أهم الأشياء .

وكذلك يجب عليكم الدفع عن المسلمين بما أمكن :

اما بقتال العدو أو المصالحة كما كان عليه من قبلكم .

وكذلك النظر فى المحبوسين . فان تحميلهم القيود الثقيلة المهلكة أو المثخنة مما لايجوز وكذلك غيرهم من المستضعفين .

ثم يختم الحوثى كتابه بقوله :

« اللهم اشهد انا قد بلغنا ما يجب علينا . وان لم يكن عندنا ملكة فى أسلوب الكلام فانما أردنا اظهار الحق وابلاغ النصح وحسبنا الله وكفى ونعم الوكيل » .

وظلت حوث تقف فى وجه الطغيان بسلطان الكلمة يوجهها عالمها يحيى الحوثى أو توجه اليها من محمد بن اسماعيل الأمير من شهارة .

ووجد القوم فى فترة خمسة أعوام من ملك المنصور ان عدد البلاد التى نهبت قد زادت زيادة تستعصى على التصور .

لقد فتح المتصارعون على الحكم الطريق أمام القبائل ثم أقعدتهم الاقطاعيات والوظائف وصنوف الترف وألوان اللهو والمتع وانطلقت القبائل تباشر هوايتها فى نهب المدن والقرى والبنادر لاتردها قوة ولا يردعها سلطان .

فى تلك الفترة الوجيزة نهبت :

اللحية — قعطبة — دمت — جبن — لحج — عدن — بيت الفقيه — حفاش — مور — الضحى — حبور وما لم يحص انسان « « كما يقول ابن الأمير » .

عندئذ يوجه ابن الأمير قصيدته النونية الى حوث ليقوم تلميـذه بنشرها فى أنحاء اليمن .

على أن ينسبها الى نفسه تخوفا من أن تحمل القصيدة اسم الأمير فيعدو المنصور حسين على والده الشيخ الذى أقعده المرض فى صنعاء :

أيها النيام

هل فى القلوب بيوم الحشر اذعان ... وهـل بما قاله الرحمن ايـمـان

وهـل علمتم بان الله سـائلكم ... عمـا قـريب وللاعمـال ديـان

ياساكنى السفح من صنعاء هل سفحت ... لكم على ماجرى فى الدين أجفان

عن « اللحيـة » هـل وافاكم خبر ... تفيض منـه من الأعيـان أعيـان

ويعدد ابن الأمير أسماء القبائل التى باشرت أعمال النهب ثم يقول :

أسـماء شر وأفعـال مقبحـة ... طـوائف ما لهـم يمـن وايمـان

فما يخـافون من يـوم المعاد ولا ... عليهم لذوى السـلطان سـلطان

فكم أخافوا وما خافوا وكم نهبوا ... وأخـربوا فلهـم فى الأرض نيران

احصـاء

فى دولة الملك المنصور كم هلكت ... بنـادر ومخـاليف وبلـدان

فى الشرق والغرب منها والتهائم بل ... والبحر قد خافهم فى البحـر حيتان

لا تنس « قعطبة » ان كنت ذاكرها ... فقد أباح حمـاها قبـل قحطـان

كذا المعاقل من «دمت» ومن «جبن» ... «ولحج» طاف بها للحـرب طوفان

والبندر البندر المشهور من «عدن» ... سارت باخباره فى الأرض ركبـان

وهل نسى أحد « بيت الفقيه » وقد ... صـكت باخبار يام فيـه آذان

كم من عزيز أذلوه وكم جحفوا مالا وكم سلبت خود وظبيان

ودع «حفاشا» «وموزا» «والضحى» ولا

تذكر « حبورا » وما لم يحص انسان

حقيقة الأسرة الحاكمة

أسرة القاسم

فيابنى القاسم المنصور قد سلبت عليكم الملك أعراب وبدوان

لم يبق من مجدكم الا القصور لكم بها جوار وديباج وعقيان

أو المزامير تتلى كل آونة كأنهن — وحاشا الذكر — قرآن

أو الثياب على الأبدان صار لكم فى كل حين على الأبدان ألوان

بمال كل ضعيف من رعيتكم فما يقام له فى العدل ميزان

فلا يخاف العدا شرا لخيلكم كأنها غنم والقوم رعيان

ولا يخافون ان طالت رماحكم كأنها بيد الصبيان قصبان

حرام عليكم

مزقتم اليمن

والآن صرتم عدا فى ذات بينكم كل يرى أنه للناس عنوان

مزقتم شمل هذا القطر بينكم كل له قطعة قفر وعمران

وكلكم قد رقا فى ظلم قطعته مراقيا مارقاها قبل خوان

فما الامام ملام فى رعيته بل الجميع سواء فيه أعوان

فقدموا العدل والانصاف فى أمم قد طال منكم لهم ظلم وعدوان

تضحوا يدا فرعاياكم مفرقة أيدى سبا مالها فى الأرض أوطان

انى نصحت لكم

هذه النصيحة منى غيرة لكم ما فى مقالتها زور وبهتان

وان سئلت غدا عن قبح فعلكم   فانهـا لى عند الله برهـان
أقول انى نصحت لكم بمقدرتى   نظما ونثرا فما دانوا ولا لانوا

زادت أعمال النهب وعم الفساد كما قد رأينا والامام في صنعاء يضرب القبائل بعضها ببعض .

تنطلق هذه لتنهب فيرسل فى اثرها الأخرى لتنتزع منها أسلابها .

والشعب هو الخاسر دائما وهو المعتدى عليه دائما .

وماذا على الامام من بأس ان قدمت اليه فى النهاية بعض الهدايا المنهوبة وقدم الى حاشيته ما يسد أفواههم ويرضى أطماعهم .

ماذا عليهم بعد ذلك ان شاع هذا الفساد .

وماذا يهمهم من سلطان الدولة ونفوذها ووحدة البلاد واجتماع شمل الشعب ما دامت خزائنهم تزخر بما فيها .

أليس الهدف من الحكم أن تمتلىء هذه الخزائن . وأن تتوفر المتع وأن يحيط الترف بالامام وحاشية الامام .

أما الشعب المسكين فليتصارع تصارع الذئاب الجائعة وليعدو بعضه على بعض . والغالبون هم جند الامام . هم الجند المنصور . هم المجاهدون فى سبيل الله .

هذا هو الحكم .

هذه هى الدولة .

وهذا هو مصير الشعب العظيم الذى صنع حضارات قديمة خالدة قبل الاسلام .

شيد حضارات معين وسبأ وحمير . ونشر العلوم والمعارف فى أرجاء الجزيرة وما حولها .

حتى اذا جاء الاسلام خرجت قبائله الشجاعة تحمل فى أيديها سيوفا وفى قلوبها ايمانا فبسطت لواء الاسلام فى أرجاء المعمورة .

وكان منها كبار الصحابة .

وكبار القادة .

وكبار العلماء .

كان منها العدول من القضاة .

والعدول من الولاة .

وكان منها المصلحون الذين ملأوا بلاد الاسلام عمرانا .

هذه القبائل العظيمة التى تكون هذا الشعب العظيم أخذت هذه البيوت المتصارعة على الحكم تنحدر بها .

تضللها بتعاليم بعيدة عن روح الاسلام .

وتباعد بينها وبين نور العلم والعرفان .

وتعزلها عن العالم من حولها .

وتحدد لها طريق الرزق والحياة :

بالنهب والاغتصاب والعدوان .

وأوهموها ان البغى شريعة .

وان الاغتصاب حق .

وان العدوان جهاد فى سبيل الله .

حتى صار اليمن الحضارى .

اليمن العربى .

اليمن المسلم .

الى تلك الصورة التى رأينا .

ولكن الشعوب المتأصلة فى القدم والحضارة لابد أن تفيق من غفلتها .

وقد أفاقت فجر السادس والعشرين من سبتمبر :

وعادت قبائل اليمن :

تعـرف طريقهـا الى حريتها

تعرف طريقهـا الى أمجـادها

تعرف طريقهـا الى وحدتهـا

تعرف طريقهـا الى عروبتهـا

وحملت لواء الجهاد تدافع عن ثورتها وعن مقدساتها .

واذا انحرف بعض وضلل آخرون فانهم سرعان مايكتشفون الطريق . ويسارعون الى درب الحياة الحرة الكريمة .

وكنا نحب أن نختتم الكلام عن سلطان الدولة الى هذا الحديث ولكن من حق هذا الشعب العريق أن نقدم له وثيقة تاريخية تؤكد انكاره لهذه الأساليب وتطلعه للقضاء عليها ونصرته لكل حركة اصلاح يشعر بها ويؤمن أنها طريق خلاصه مما هو فيه .

وان كانت الظروف المحيطة والرواسب المتراكمة قد أبعدته عن الطريق ولكن يكفيه أنه برغم ما كان يحيط به كان يبحث عن سبيل الخلاص .

وتلك الوثيقة تقدمها الينا الحركة التى قام بها أبو علامة التكرورى الناجم .

وقد ظهرت حركة أبى علامة فى بلاد الشرف ومن نفس المنطقة التى ظهر فيها القاسم بن الرشيد والمحطورى الناجم .

ويقال ان الرجل من أصل مغربى نشأ بمكة ومنها قدم الى اليمن فى صورة منجم والتف حوله جماعة من الاتباع يسيطر عليهم بعمل الأوفاق .

ويدعى الرجل النسب الى البيت العلوى لذلك فهو يشـق طريقـه سريعا فى بلاد الشرف .

وغالب الظن أنه لم يكن يفكر فى ملك أو يتطلـع الى سلطان ولـكن جماعة من اليمنيين رأوا نفوذ الرجل ينتشر فى البلاد سريعا ويفـد عليه فى كل يوم اعداد من سكان القرى والمدن والبوادى يلتمسـون منه هـذه

الأحجبة وغيرها مما يدعى صنعه واتقانه . فرأوا فيه رجلا يمكن أن يستغل لاحداث ثورة تخلصهم من بيت القاسم وأعوانهم .

ومما يؤكد هذا الرأى : الخبر الذى رواه عبد القادر بن أحمد الذى أرسله المهدى عباس ليستطلع حال أبى علامة ويعرف هدف الحركة التى يقوم بها (فاذا له أصحاب (١) دهاة أولو مكر وخديعة وحذق وصناعة للارجاف والتعمية .

والتصرف لهم وليس لأبى علامة الا عمل الأوفاق لهم فقط) .

وبدأ أبو علامة والرجال من حوله يشعرون بقوته وقدرته على احداث تغيير فى المجتمع ونظام الحكم فأخذوا يتصلون بالقبائل يطالبونهم بترك حكم الطاغوت (٢) وتأمين الطرق .

وسرعان ما لبت القبائل نصائح الرجل وامتد نفوذه وأخذ يزداد مع الأيام .

وكانت الخطوة الثانية التى خطاها أبو علامة هى هدم الحصون التى شادتها القبائل واتخذتها مركزا تنطلق منه للاغارة على البلاد .

فكان يرسل عددا من أتباعه لايزيدون على أصابع اليد الواحدة فيهدمون الحصن الأشم فى ساعات قليلة ولا يلبث أن ينضم اليهم ما فى الحصن من حراس .

ويالفرحة الشعب عندما يهدم حصن من الحصون فكنت ترى النيران تشتعل فى رءوس الجبال اعلانا بتأييد أبى علامة ومناصرة له .

ومن هنا ندرك مدى ضيق الشعب بالفوضى التى كان يعيش فيها وحبه للخير ورغبته فى الاصلاح .

طلب أبو علامة من القبائل أن تؤمن الطرق فأمنتها .

---

(١) نفحات العنبر

(٢) الاحكام العرفية القبلية .

وأرسل فى هدم الحصون فأعانته وفرحت بنجاحه وأوقدت النيران ليلا على قمم الجبال تأييدا لثورته .

وطلب منها أن تعدل عن حكم الطاغوت الى حكم الاسلام فرحبت بذلك .

اذن فقد كانت الحصون التى استغلت بها تعبيرا ثوريا غير واضح الملامح .

وكان حكم الطاغوت تأكيدا لعدم ثقة الشعب فى حكامه . وما دامت شريعة الغاب هى التى تسير دفة الحكم فليكن قطع للطرق وترويع للآمنين ونهب للمدن والقرى والبنادر .

فلما وثق الشعب فى داعية جديد يرد له أمنه وثقته وآماله سارع بالالتفات حوله والانتصار له .

كل هذا يحدث وصاحب صنعاء المهدى عباس لا يحرك ساكنا وكأن هذا الذى يحدث بعيد عن اليمن وشعبه .

أليست صنعاء وأوقاف صنعاء وما حولها يجبى اليه ويستكثر منها ما شاءت له أطماعه .

فليفعل أبو علامة ما شاءت له دعوته . وهو على ثقة بأنه فى النهاية سيربح من هذه الحركة كل شىء .

ليتصارع أتباع أبى علامة مع القبائل .

فالحصون التى تهدم كسب كبير والقبائل التى تضعف كسب أكبر . وليشغل الشعب بعضه بعضا حتى يصفو له الملك ولا يعكر عليه امامته واحد من بيت الامام .

وفى النهاية ما أيسر أن يتخلص من أبى علامة بان يدس له سما فى طعام أو ريحان . وسيلة متعارف عليها وتقليد من تقاليد الأسرة .

ولنرجع الى ابن الأمير وهو يقص علينا خبر أبى علامة ولنتعرف على بعض الحقائق التى ينطوى عليها هذا الخبر :

١ — ان الشعب كان فى حالة ثورة حقيقية غير أن هذه الثـورة كانت تحتاج الى قائد يوجهها ويترجم عنها .

٢ — ان ابن الأمير استغل حركة هذا المنجم ليوجه العبـاس الى اصلاح الحكم والتخلص من عناصر الفساد .

٣ — ان ابن الأمير خاف من حركة أبى علامة لأنها لاتختلف عن حركةالقاسم ابن الرشيد وكل مايجنيه الشعب هو أن يسقط حكومة متعفنـة ويقيم حكومة قوية تأخذ طريقها السريع الى التعفن .

٤ — ان اغتيـال أبى علامة وراءه سر ومن السـوابق التى حدثت قبله واللواحق التى حدثت بعده تجعلنا لانبرىء العباسى ومن حوله من تدبير هذا الاغتيال .

٥ — ان العلماء الذين يعسلون للدولة لم يخشوا من الرجل شعوذته ولا تنجيمه وانما كل ما خافوا منه أن يكون طالب ملك .

واليك حديث ابن الأمير :

« لم تزل الأخبار تتكاثر بان فى المشجعة من أطراف بلاد الشرف رجلا يسمى بالسيد أحمد الحسنى وانه عمر فيها مسجدا من مدة سنتين ولم يزل يفشو أمره . ويخبر عنه كل من يفد اليه أنه باق فى مسجده الذى بنـاه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يأكل ذا الروح . ثم ظهر جمـاعة مجاذيب يجذبون له ويدخلون الأسواق . ثم عظم أمره وشاع ذكره وقصده العـامة من جهات المغارب وغيرها بالنذور . وصار يكرم من يفد اليه بالاطعام .

وعمر أماكن للضيافة حتى بلغ الوافد اليه فى كل يـوم نحوا من المائتين فصاعدا .

ثم أمن طرقات كانت خائفة بمجرد الارسال الى من يخيفها ثم تقدمت مجاذيبة الى بلاد الأهنوم ودخلوا شهارة فى أول جمعة من رجب ١١٦٤ هـ وهم ينهون عن أحكام الطاغوت وعن اخافة الطرق فانتهى حكام الطـاغوت فى أغلب الجهات على ما تواترت به الأخبار .

وصارت تروى له كرامات وخوارق . ووصلت الينا الكتب من علماء شهارة من الشيخ العلامة ناصر المحبشى ومن القاضى العلامة أحمد بن يحيى الشامى ومن السيد العلامة أحمد بن حسن قاضى شهارة يصفون هذه الأمور ويحذرون من السكوت على هذا .

« وأنه يظهر منه أنه طالب ملك » .

« ولما وصلت الأخبار وتواترت بهذا المقدار عرفت المهدى بحقيقة ما بلغ وأرسلت اليه أحد الملحقات التى فيها تحقيق أحواله وعرفته بكلام كثير » .

« وعرفته أن من أعظم الأسباب التى يخاف معها التسليط : ما فى بلاد اليمن من الظلم من العمال ، وما هو فيه من البعد عن الشكاة والوفاد . وانه بلغ الحال الى حبس شكاة وصلوا من ريمة ولم يخرجوا من السجن الا بشرط عودهم الى يد عاملهم الذى فروا من ظلمه » .

ثم طالب أبو علامة بملك اليمن فى رجب سنة ١١٦٤ هـ . ثم أرسل جماعة من مجاذيبه لخراب حصن « ابن الأعور » فى جهة الشرف وكان حصنا منيعا معمورا عمارة متقنة يقال له حصن « عزان » فانتهوا اليه فدخلوه عنوة .

طلع أحدهم من عرض الدار وفتح لبقية أصحابه وكان فيه رتبة لابن الأعور فهالهم الأمر ولم يدافعوا بل استسلموا . فأذنوا لهم يخرجون بسلاحهم . ثم خربوا الحصن فى ساعة لطيفة وهو يعجز عن هدمه فى أيام . ثم حرق بعض ما فيه من « الباروت » ولم يصب أحد . ثم خرجوا من الحصن بعد خرابه ورجعوا الى من أرسلهم وقد نفذ أمره .

واتفق فى تلك الليلة أنها ألهبت النيران فى حصون الشرف ثم فى بلاد الأهنوم وبلاد حاشد وانتهت الى بلاد الشام ووصلت هذه الأخبار الى صنعاء .)

والهاب النيران فى جهات اليمن أعلام بطاعة الخارج ونحو ذلك .

« الا أن كل من ألهبها ممن ليس فى بلاد الشرف ثم يلهبها الا اتباعا لما رآه لا لأمر عرفه (١) .)

(ثم وصلت الأخبار بأنه بث كتبه الى قبائل بلاد القبلة وبث فى أسواقها وأسواق بلاد عذر وغيرها يأمرهم بتأمين الطرقات وترك أحكام الطاغوت فامتثلوا أمره وتركت أحكام الطاغوت فى أسواق تلك الجهات) .

(بعد هدم حصن . عزان) نزل ابن الأعور من « العصيمات » فى ثلاثين نفرا لعمارة حصنه فلما وصل أرسل له السيد أكثر من ألف نفر ضبطوه وأوصلوه اليه مربوطا وأصحابه الثلاثون النفر انضموا الى أصحاب السيد فأرسل الجميع على حصن « أبو منصر » لخرابه فما كان بأسرع من وصولهم وخرابه وكان حصنا منيعا وبناء رفيعا فنفذ اليه الأقوام وحصروه ساعة من نهار وقتل على بابه جماعة من أصحاب السيد نحوا من عشرة أنفار ثم دخلوه وأخربوه وقبضوا جمع ما فيه . وأخرجوا منه زنجيرا فيه ثلاثة عشر حلقة . فزنجروا فيه أبو منصر وأصحابه ونفذوا به الى «المشجعة» عند السيد فقيدهم بالقيود وأبقاهم فى سجنه) .

(ثم أمر المحطة تنفذ حصن « القاهرة » فى « المحابشة » وهو حصن منيع مرتفع فيه نحو أربعين نفرا رتبة (٢) وكان لناصر الأحمر فنفذ اليه جيش السيد فما كان الا ساعة من نهار وأخربوه وخرجت الرتبة صاغرين ثم خربت بقية الحصون فى جهات « الشرف » « والواعظات » حتى كان الذى وقع عليه الخراب منها الى سلخ شعبان سنة ١١٦٤ هـ تسعة حصون لا تخرب الملوك واحدا منها فى أعوام وما هو الا أمر الهى .

وفى ١٢ رمضان اجتمع فى شهارة عوالم من « عذر » « والأهنوم » « وبلاد ظليمة » وقد نزل جماعة من شهارة الى عند السيد أحمد

---

(١) نخالف فى هذا الراى ابن الأمير ونعليلنا لايقاد النيران ممن يعرف أن الجميع كان يتطلع الى الثورة على الظالمين والانتفاض عليهم بأى صورة من الصور .

(٢) حراس .

ووصلوا منه بكتاب الى كافة أهل شهارة والأهنوم وأنهم يختارون لهم عاقلا يقبض الواجبات ويضعها فى مصارفها وينصف المظلوم) .

(وأذلت القبائل الذين كانوا قد طاولوا الجبال ونالوا من الجبروت والغى أرفع منال وكانت دولة اليمن ليس لهم هم الا اصلاحهم بالقطع وبذل الأموال منذ أربعين سنة) .

(حتى هدم الله بناءهم وأطفأ نارهم وأظهر عجزهم وبوارهم بظهور هذا الدرويش الذى هدم الحصون وأباد تلك القرون وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون .

أذلهم الله برجل لا يعرفون له قبل ذلك اسما ولم يشاهدوا له جسما ولا أعد لهم لقتالهم سلاحا ولا رجالا ولا جمع نفوسا) (١) .

(ولا بذل مالا ولا عمر معقلا ولا اتخذ أهلا ولا منزلا . وليس له عشيرة يقصدونه على مايريد . ولكنها قدرة الرب الفعال لما يريد لا اله الا هو الذى ملوك الأرض له من أحقر العبيد) .

(وفى يوم الجمعة سادس رمضان وصلت الأخبار باخراب حصون ابن جزيلان فى « المسوح » وهى ثلاثة حصون أمر السيد أحمد بخرابها فما كان أسرع من امتثال أمره وهدم كل حصن الى مستقره .

ولم يحصل امتناع من رتبة تلك القلاع ولا دفاع . وهذه من خوارق العادات فان صاحبها ناصر جزيلان كان ممن لا تلين له قناة) .

---

(١) أليس هذا دليلا على أن القبائل كانت تفعل ما تفعل اعلانا منها بعدم الرضا على الملوك فى صنعاء

(وكانت القلاع المهدمة الى هذا التاريخ سبع عشرة قلعة .

أمر تحار فيه الأفكار . ولا يأخذ المأمور بهدم القلاع شيئا مما فى القلعة ولا يعرجون عليه) .

(وقد كان لقاسم الأحمر حصن « قصبة » فى بلاد « ظليمة » قريب من « المدائر » عمرها فى دولة المنصور حسين بن قاسم وهم على طريق المسلمين فشراها منه المنصور بألف قرش وخربها .

ثم لما مات المنصور وصار الأمر الى ولده المهدى نزل قاسم الأحمر الى حبور ونهبها ثم عمر القصبة المذكورة وجعل فيها رتبة جماعة من « العصيمات » فأرسل السيد أحمد لهدمها فى رمضان رجلين من المجاذيب أحدهما ببيرق وأمر أن يجتمع الأهنوم وظليمة وبنو عرجلة فاجتمع ألف رجل وحملوا على دائر القصبة . فحصل قتل فى الأهنوم نحو اثنى عشر قتيلا ومصاويب وقتل مجذوب من النفرين وأصيب يحيى الأحمر برصاصة)

(ورجعت محطة السيد منكسرة .

فلما وصل الخبر الى السيد أحمد أرسل السيد هادى بن عيشان فى ثلاثمائة رجل والسيد يحيى بن عبد الله من بيت المؤيد فى نحو خمسمائة رجل فأخربوا القصبة بعد حرب وقتل جماعة من الأهنوم .

ووصلت البشائر وضربت المدافع وألهبت النار بالبشرى) .

ثم بدا السيد يبسط نفوذه فى تهامه بعد أن طهر المنطقة التى بدأ منها وما جاورها .

وقامت دولة أبى علامة . لا بسلطان المال ولا بسلطان السلاح ولا بقوة الرجال وعصبية القبيلة .

كل ما قدمه لشعب اليمن هو رغبة فى الاصلاح مع ترفع عن المكاسب المادية وعدم التهالك على الدنيا .

ووجدت هذه البذور الطيبة أرضا خصبة فأينعت وترعرعت . ولم يكن

أبو علامة هو الذى أقام الدولة وانما الشعب اليمنى هو الذى شيدها أو بمعنى أصح لم يشيد وانما حطم الظلم والظالمين .

وتشتعل الحرب بين أبى علامة وبين القبائل لا تشـارك فيها الدولة بمال أو سلاح أو رجال وامتد نفوذ الرجل حتى شـمل التهائم وأحـاط بصنعاء .

وأصبح الناس على خبر أن أحد أعوان أبى علامة امتدت يده الى زعيمه فاغتاله وهو يقف فى وسط جنده .

وتفرق الأعوان وقضى على الحركة .

ولعل بعض المخطوطات تكشف لنا المؤامرة التى كانت وراء مقتـل أبى علامة اذ كل ما أثبته ابن الأمير هو قوله (وجاء قتله على يد رجل خرج لنصرته) .

وهذا موضع التساؤل هل كان العباس وحاشية العباس وراء اغتيـال أبى علامة ؟

لعل الأيام تكشف عن هذا الغموض .

من كل هذا الذى سقناه اليك نستطيع أن نؤكد أن هذه الأسرة لم تحكم اليمن حكما مركزيا .

وان حكمها قضى على وحدة اليمن وفرق الشعب وأوجد خلافات فى النفوس ظلت تعمق عاما بعد عام وجيلا بعد جيل .

وكان لهذا أكبر الأثر فى القضاء على الانتفاضة الشعبية التى قامت فى عام ١٩٤٨ م وكانت العامل الأساسى الذى مكن يحيى وابنه أحمد من حكم الأرهاب الذى حكما به اليمن تلك الفترة الطويلة . ولولا وجود هذه الخلافات والحزازات وتلك الأحقاد لما استطاعا أن ينالا من اليمن ما أرادا .

ولكنهما وجدا بذور الشر التى غرسها أسلافهما فأخذا يجنيان حقول الفتن :

الشمال والجنوب

الجبال والتهائم

الزيدية والشوافع

القبائل بمسمياتها ضد بعضها البعض

يؤلبون حاشدا على بكيل

ويثيرون بكيلا على حاشد

وليقتتل أبناء الأب الواحد فى سبيل اضعاف الرعايا وسيطرة الراعى .

وهذا الذى كان منذ مائتى عام لم يتغير ولم يتبدل لا شكلا ولا موضوعا حتى قامت الثورة المباركة .

وقد تساءل كثير من الناس .

لماذا قامت ثورة اليمن .

قامت لتحارب اقطاعا لم يعرف العالم له مثيلا .

قامت لتحارب حكم الفرد طاغيا لا يرحم .

قامت لتحارب حكم الأسرة وأطماعها التى لاتشبع .

قامت لتحارب السيطرة على فكر الانسان اليمنى .

قامت لتحارب السيطرة على روح الانسان المسلم .

قامت لينطلق الشعب وليعيش وليتنفس ويتحرر ويفجر ينابيع الخير فى ربوع اليمن الخضراء .

(٦)

الزكاة والأوقاف :

الزكاة فرض على كل مسلم اذا توفر النصاب . وكتب الفقه قد تكفلت بهذه المباحث فى جميع المذاهب مستندة الى كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم الزكاة محرمة على آل النبى عليه السلام فقد روى عنه أنه أخرج التمرة من فم الحسين وهو طفل صغير وكان قد تناولها مما جمع زكاة وكان عليه السلام يقول له « كخ كخ ياحسين » .

وفى المذهب أن المضطر من أهل البيت يقدم الميتة على أكل الزكاة ولكن الأسرة الحاكمة كانت قد ضربت بكل هذه التعاليم عرض الحائط لم تكتف بأكل الزكاة والاثراء من أموالها بل امتد الأمر بهم الى جمع الأموال ممن لم تتوفر لديهم الأنصبة التى توجب الزكاة ويجمعون هـذه الأموال اليهم لا الى مصارفها ومستحقيها بنص القرآن الكريم .

ثم هذه الطبقة الاقطاعية التى كانت تسمى « الأجبار » التى أعطى لها حق جمع الزكاة من اقطعياتهم والتصرف فيها حسب ما يرون .

لم تكن أموال الزكاة فى عرفهم الا حقـا منحتـه الدولة لهم ليغنـوا وليعيشوا فى حياة الترف والجاه ويستكثروا من الأنصار والعبيد .

فاذا علمنا أن أراضى الأوقاف كانت تقطـع لهؤلاء السـادة يأكلون خيراتها وغلاتها بما فيها من زكاة ولا ينفق منها شىء فيما وقفت عليـه من أوجه البر .

وقد مر بنا من قبل الحكم الذى أصدره المتوكل اسـماعيل والذى حول فيه أرض اليمن من أرض عشرية تجب فيها الزكاة الى أرض خراجية حتى يتيح لأبنائه الاستيلاء على مايروق فى أعينهم من أراض وأملاك وأن يفرضوا على الناس ما يرون من ضرائب . وأن يتوسعوا فى الجبايات ماشاء لهم التوسع .

حتى استولوا على ما بأيدى الناس كرها بلا استنكاف على حد تعبير ابن الأمير .

وفى عبارة العلامة أحمد قاطن ما يوضح هذا الذى نقول به :

(وأعظم محنة (١) امتحن بها سادات اليمن أكل الزكاة فانها من أعظم

(١) نقلا عن نشر العرف .

المحن وقد قدمت ما ذكره الامام المتوكل على الله اسماعيل ابن الامام المنصور. وقد ذكر أيضا هذه المحنة الامام عز الدين بن الحسن فى رسالة .

ولقد ذكرت لوالدى رحمه الله في أيام الصــغر لم خالف الأئمة فى مسألة الزكاة ما صرح به فى الأزهار أن الزكاة فيما بلغ خمسة أوسق فأمروا بالقبض مما دونها . فأجاب أن العبرة بمذهب الامام والمسألة خلافية والأدلة النبوية بما فى متن الأزهار . قال صلى الله عليه وســـلم « ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة »)

ثم قال :

(نسأل الله أن يأخذ بنواصى الأئمة الى الخير ويســـلك بهم ســـواء الطريق ويصلحهم ويصلح الرعية والأمة المحمدية) .

ولنستمع الى أحمد قاطن مرة أخرى اذ يقول :

(ولما قبضت الزكاة وسلمت الى الوزير الفقيه أحمد النهمى ذكــرت له آن يعرف المهدى بصرفها فى مصارف الزكاة وكثرت عليه .

فقال انها مقررة لبيت أبو منصر من المنصور مقابل مقاتلتهم للشائف

فتعجبت من ذلك ومن تهالك السادة على أكل الزكاة . نسأل الله آن يصلحهم ويرزقهم من غيرها) .

وكان العمال يقدرون المفروض من الزكاة حسب أهوائهم دون التزام لقانون شرعى أو عرفى .

والحق يقال ان كثيرا من العلماء قد نبهوا الى هذا الظلم الذى تجاوز الحدود كالذى حدث من السيد يحيى بن عمر الأهدل عالم السنة التقى الورع الذى اشتهر فى العالم العربى والذى تابعه عمال المتــوكل بالأذية والمضايقة حتى هرب من زبيد .

وهو يكتب الى المتوكل فى تصرفات عماله فيقول :

(أما بعد فالذى ننهيه اليكم ونشكوه لرعيتكم عليكم أن رجلا يسمى فلانا استدرك على الشارع صلى الله عليــه وسلم وزاد فى نصـــاب الزكاة

المشروع فان كان هذا مما ترضونه فقد وجب علينا رفعه اليكم به والاانتبهتم لهذا الخطب الجسيم والحادث العظيم) .

ولم يبق بعد ذلك أمام الامام الا الأوقاف وبعض أموال الزكاة فكان يعين جامعى الزكاة ممن يحسنون الجمع وليس لهم حق التصرف فى المصارف .

عليهم أن يجمعوا ، اما أن ينظروا فى مصارف الزكاة فليس لأحد أن يتكلم فى هذا ، وانما هو أمر الى الامام ووزراء الامام .

وكان يختار عمال الأوقاف ليجمعوا اليه خيراتها أما مصرف الغلة فلا يصل اليه شيء حتى تعطلت أوجه البر وتخربت المساجد كما قد علمنا من قبل .

وفى قصائد ابن الأمير السابقة ما يؤكد هذه المعانى ويتندر بها ويهاجمها .

وكان الأئمة لايكتفون باكل غلة الأوقاف بل كانوا يأكلون زكاتها دون تحرج واذا راجعهم أحد خاصتهم أو تمنع عن تنفيذ خطتهم أحد عمالهم تخلصوا منه وعاقبوه كما حدث من المهدى عباس عندما ولى القاضى عبد الله العراسى وقف صنعاء .

وها هو أحمد قاطن يسوق موقف القاضى من العباس وموقف العباس منه :

(الا أن سيدى المولى « العباس » ذكر لى ان زكاة الوقف أمرها اليه ومراده ان تقبض وتكون للوافدين — وهذا التفسير من المؤلف — وكثر على الفقيه أحمد النهمى — وزير العباس — من أجل ذلك لما كثر عليه مولانا المهدى) .

(وفى وقف صنعاء مقررات للفقراء فاطلعته على مصارف الزكاة وقلت لهم :

هذه المصارف وصرفها عنهم ظلم بحت .

فسكت المهدى أياما) .

وكان سكوت المهدى حتى لا تثار ضجة حول خلافه مع عامله فى هذا الموضوع الدقيق . ثم عزل العامل عن عمله .

عزله فى الوقت الذى تحصل فيه الثمرة حتى يحرم الرجل من مرتبه وأجر عمله عقابا له على كلمة الحق .

ولكن هل يفى كل هذا بحاجات الأئمة من الأموال وقد كثر الترف وتعددت حاجات القصور وامتدت أطماع الجوارى .

والقبائل التى تطالب بما يسد أفواهها ويسكن سيوفها فى اغمادها .

ماذا يفعل الأئمة وقد ضعف نفوذهم على البلاد وأصبح ما يحصلونه دون أطماعهم ودون التزاماتهم للقصور وشيوخ القبائل .

لم يبق أمام الأئمة الا أعيان الأوقاف تمتد أيديهم اليها .

وظهر هذا بصورة واضحة فى عهد المهدى عباس .

ونشط العلماء يصدرون الفتاوى التى تمهد لامتلاك الامام لأراضى الأوقاف .

أليست هذه الأوقاف أوقفت من أمثال عامر بن عبد الوهاب ومن بعض ملوك الصليحيين وغيرهم .

وهؤلاء بغاة أو كفار تأويل ولا قربة لكافر ولا قربة لباغ ولا قربة لظالم وهكذا .

حتى أصبحت هذه الأوقاف حلا للامام يتوسع فى امتلاكها وتورث عنه من بعده .

اذ هى بهذا الرأى كان ايقافها لم يصح أصلا لأن من أوقفها لا تصح منه القربة . فهى أرض وأملاك حرة فمن حق الدولة حينئذ ان تتملكها وان تبيع منها ما شاءت .

واليك مثلا غيل البرمكى الذى يسمى فى هذه الأيام « غيل بيت معيال » كان عامر بن عبد الوهاب فى حصاره لصنعاء قد ردم بعض أجزائه مما أثر على تدفقه وكمية مياهه .

فقام العباس ووسع مجراه وزعم انه انفق من ماله الخاص على الغيل وامتلكه بهذه الحجة .

ولما كان هذا الغيل يحتاج الى أراض واسعة تنتفع بمياهه الغزيرة وأكثر الأراضى التى تقع فى نطاقه موقوفه فليستحوذ على بعضها ببطلان ايقافها أصلا وليستحوذ على البعض الآخر مقايضة بأراضى بعيدة عن صنعاء .

ومن الحيل التى كانوا يلجأون اليها ان يبيعوا هذه الأراضى لبعض اتباعهم أو يهبوها لهم .

وما هى الا أيام قليلة حتى يرد المشترى على الامام ما اشتراه أو وهب اليه .

ويجمع ابن الأمير العلماء ويصدرون حكما واضحا صريحا فى بطلان هذه الحيل وانكار هذه التصرفات .

ويوقع العلماء على هذا الحكم ويرسلون به الى الامام . ولكن الامام لا يرعوى . ويتجاهل حكم الله فى هذا فيكتب اليه ابن الأمير فى أمرين خطيرين كان العباس فد تطاول فيهما الى غاية مفسدة :

ا) التوسع فى شراء الأراضى الزراعية . ويعلم الله كيف يتوصل عماله الى شرائها من صغار الزراع .

ب) اخراج أراضى الأوقاف الى الملكية ، الى ملكية العباس نفسه أو استبدالها بأرض أخرى غيرها أقل غلة وأبعد من العمران .

يقول ابن الأمير ان حاشية السوء وشياطين الانس والجن تزين لكم هذا العمل وتسوقكم الى هذا البوار فحذار من هذا الذى (يحسن لكم شراء الأطيان فى جميع الأوطان) .

وقد عرفتم أن الأئمة لا يحتاجون الى ذلك فانها لا تنبت حبة فى جربة الا وعشرها يساق اليهم .

(وما زال يحسن لكم ذلك حتى انتهى بكم الى الطامة الكبرى وهى شراء الأوقاف من الأموال واخراجها من الوقفية الى الملكية) .

(وقد عرفتم أقوال علماء عصركم وحكامهم بتحريم بيع الأوقاف وعندكم بخطوطهم قائمة ملصقة وعليها — خطى فى آولها) .

وأخذ ابن الأمير يعدد فساد هذه الأحكام التى يصدرها الامام ومن يدور فى فلكه من القضاة ويوضح رأى الشرع فيها الى أن يقول :

(فلا يحل بيع الوقف ولا المناقلة به) .

واستمرت هذه البلوى تحيط بالأوقاف حتى وصلت الى عهدها المظلم فى عهد أحمد ويحيى .

ولم يتوقف العلماء عن مناقشة هذا الجور والفساد والاعتداء على أراضى الأوقاف .

وكان مما يقوله القاضى أحمد السياغى اننا لا نناقش الأئمة فى قولهم « لا قربة لظالم » فهذا رأى وهذا مذهب ولكن ما بالهم لم يطهروا الوقف من الشبهة التى أحاطت به ويبقونه على القربة الظاهرة بأن يستمر للأنفاق على المساجد والتكايا واطعام الفقراء .

فمن العجب أن يخرجوا الوقف من القربة الى الملك الخاص .

— ٧ —

رسالة ابن الأمير :

منذ أعلن ابن الأمير مذهبه وهو يواصل رسالته لم يفتر ولم يهدأ ولم يجامل حاكما ولم يخش ظالما .

وكان من أهداف رسالته ان يشيع الايمان بها على أوسع نطاق حتى يكون الرأى العام الذى يوجه الحكم ويقاوم الظلم .

فكانت اتصالاته بالعلماء فى مختلف المدن لا تنقطع يرسل اليهم الكتب التى تندد بالمظالم وبالقصائد التى تهاجم الظلم والظالمين .

وقد يكون هدف هذه الرسائل أن يكون اتباعه على علم بما يجرى فى اليمن .

وقد يكلف تلاميذه بنشر رسائله على الشعب ليبصره بالحق وليفتح عينه على ما هم فيه وما عليه حكامهم من ظلم وظلام .

وكثيرا ما لجأ ابن الأمير الى نشر رسائله بواسطة تلاميذه وبأسمائهم لا سيما فى الفترة التى كان لاجئا فيها الى شهارة وكان أبوه فى صنعاء تحت سلطان المنصور حسين .

وابن الأمير مرهف العاطفة عميقها نحو والده فكانت الرسائل والقصائد التى يعلم انها ستثير ثائرة الملك الحقود كان يطوف بها تلاميذه بأسمائهم .

وليس على الأمير من بأس فقد أدى رسالته وأبلغ الأمانة .

وأقرب مثل على هذا القصيدة النونية التى مرت بك منذ قريب والتى حملها عنه تلميذه يحيى الحوثى .

وفى عهد المنصور حسين كان قناع الظلم قد ألقى به الى غير رجعة ، وسيطر حقد الملك وجشعه على كل مرافق الدولة .

وكان أبوه قد صفى أخطر المنافسين لهم وتولى هو تصفية البقية الباقية .

وكان ابن الأمير يتابع من شهارة ما وصل اليه الحال وأخيرا لم يطق الرجل صبرا فحرر رسالة جامعة وطوف بها اتباعه على المدن فجمعوا توقيعات العلماء عليها ثم أرسلها الى تلاميذه فى صنعاء فمهروها بتوقيعاتهم .

وبعد ان تم للرسالة هذه الصورة التى تجعلها تعبيرا عن الرأى العام فى اليمن كله تقدم أحد علماء المدرسة فى شجاعة فدفع بها الى المنصور حسين .

والرسالة وثيقة على جانب كبير من الخطورة ليس فقط فى الدلالة على آراء ابن الأمير واتجاهاته فى أسلوب الحكم وسياسة الرعية .

ولكن لأنها تكشف القناع عن أنواع الفساد وألوان الظلم ومدى التدهور الذى وصل اليه جهاز الدولة فى هذا العصر .

وتكشف أكثر من هذا عن مدى نظرة الملك لشعبه وتقديره للعلاقة بينه وبين الرعية وتقديره لمسئولية الحكم .

ولابن الأمير رسائل كثيرة يمكن ان يستند اليها فى هذا المجال ولكن حرصنا على هذه الرسالة وتقديرنا لها من الوجهة التاريخية . اننا وجدناها بخط ابن الأمير ضمن مجموعة من رسائله من بين الذخائر المحفوظة فى مكتبة الجامع الكبير بصنعاء . تحت رقم ١٢ .

وقد أشار ابن الأمير الى الموضوعات التى تعرض لها فى رسالته بهامش الرسالة .

ويجدر بنا ان نقدم اليك الرسالة حسب تبويب صاحبها مع بعض التعليقات التى تقتضيها طبيعة الموضوع .

يقول ابن الأمير مقدما للرسالة :

(الحمد لله . هذه رسالة حررناها من حصن شهارة غرة شهر محرم ١١٤٦ هـ واستمدينا عليها علامة (١) الأعلام من أهل شهارة وحوث وصعدة ثم أرسلت الى صنعاء الى مقام الامام المنصور بالله الحسين بن القاسم وهذا لفظها) .

بسم الله الرحمن الرحيم وسلام على عباده الذين اصطفى .

الحمد لله الذى لا يعبد بحق سواه ولا يخاف الا بطشه بمن تمرد عليه وعصاه . ولا ترجى الانابة الا منه لمن التزم طاعته وتقواه .

---

(١) توقيعات .

والصلاة والسلام الاتمان الأكملان على الدليل عليه .

(والفائض كل خير من الرب تعالى الى العباد على يديه وعلى آله الذين اهتدوا بهداه وسلكوا نهجه الذى يسلكه من يرجو النجاة) .

اما بعد :

ويقدم ابن الامير التحية للمنصور ولكل من وافق على ما جاء بهـذه الرسالة خصوصا العلماء والاعيان والسادة والقضاة ثم يقول :

(وهم بحمد الله لا يجهلون هذه الشريعة المحمدية الغراء ولا ينكرون ما دعتهم من الطرق السوية . فسلوكها لكل عاقل أولى وأحرى) .

فهذه آيات كتاب الله تعالى عليهم تتلى وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال عليهم تملى .

ولا يقول أحد أن الشريعة ــ وحاشاها ــ قد نسخت ولا ان عزائمها قد فسخت ، ولا أن معالمها قد طمست ، ولا أن ربوعها قد درست .

حجتها باقية على مر الدهور ، والتكليف ثابت بها الى يوم النشور .

لا تزال ــ بحمد الله ــ رايات حقيقتها قائمــة وعيون دلائلها مستيقظة غير نائمة والاعلام تقررها فى التدريس والتدوين ويحرزها جهابذة كل عصر بالايضاح . والتبيين على تغالب الأحكام عامة العوام وأشرقت أنوار الشريعة رءوس الأنام .

(الا أن هاهنا امورا كادت تنادى بلسان الحال أنه لا حرام ولا حلال ولا سنة ولا كتاب ولا ثواب ولا عقــاب و لاجنة ولا نار ولا دار غير هــذه الدار) .

وهل هناك من فرق بين هذه العهود . وبين عهود الجاهلية .

(فانها انتهكت المحارم واتسع الخرق فى المظالم . فكل ظالم لا يقف على حد فى ظلمه . ولا يزال باب الزيادة مفتوحا فى حد الظلم ورسمه) .

أولا : خطر المكوس :

(هذه المكوس قد ملأت الدنيا بمظالمها وأذهبت من الشريعة أبهى معالمها . وهى المسماة بالمجابى فى القرى والبوادى . وبالمعشر فى البنادر والسواحل .

وهى مالا يعلم على جوازها دليل ولا يدعيه عالم ولا جاهل الا ما يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم ان الله حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم .

فمن الذى أباح مال من خرج من بيت الله الحرام غاسلا ما كان عليه من الآثام .

فانه لايخرج الى هذه السواحل الا وقبض ما يحرزه . حتى ما يأكله الآكل . ثم يقوم عليه بالثمن الوافر .

ثم يؤخذ منه ما يختاره من بضاعة : الكاتب والناظر فتقوم كأنها تركة الايتام ويؤخذ منه العشر دائما . وهو اضعاف ذلك فى حقيقة الكلام .

وكذلك من يخرج من الهند وغيره من الآفاق جالبا لبضاعته نافعا لعباد الله بتجارته .

فيا عباد الله : هل ورد هذا فى شريعة من الشرائع فنتبع أم وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه فنحن لهم تبع .

أم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل مال مسلم الا بطيبة من نفسه . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم ان الله لا يقبل توبة ماكس وهم قابضو المجابى التى صارت فى هذا القطر اليمنى فى كل بلدة ومكان .

يأكلها من قبضت لهم من الحكام وآل الامام .

فليتق الله كل انسان من هذا الحرام فانه لا يجهل احد تحريمه من الانام .

فان الناس بين قابض ومقبض وناظر وآمر .

وهو حرام باجماع امة الاسلام .

ونحب أن نلفت النظر هنا أن هناك فرقا بين المجابى التى كان يجمعها الائمة وبين الضرائب من عدة وجوه :

أ — ان عمال الامام كانوا يقومون على الناس اقواتهم وما يحملون دون تفريق بين التجارة والمتاع الشخصى . وكانت فرق المجابى والمعشرين تتخذ من هذا وسيلة لسلب الناس وأخذ ما بأيديهم .

وكانت المسألة تقديرية حسب اهوائهم وما يتوسمونه فى الشخص . فاذا كان غنيا استأصلوا ماله وان كان فقيرا الجأوه الى التسول وسؤال الناس .

وكم لاقى حجاج بيت الله الحرام من عمال الامام عند عودتهم كما يشير الى ذلك ابن الامير .

ب — لم يكن على الدولة أية التزامات قبل الشعب تدعو الى هذه المكوس . فلم نعثر بين الوثائق التاريخية التى بين أيدينا على ما يدل على انشاء مدارس أو مستشفيات أو تعبيد طرق أو تأمينها بواسطة الشرطة أو اقامة سدود أو اصلاح اراض زراعية .

حتى اوقاف المساجد والهجر والتكايا عدا عليها الائمة وتركوها للخراب .

وانهارت كثير من المساجد حتى أصبحت الحيوانات تسعى فى داخلها وحتى اتخذ الشعب من هذه المساجد مرافق يوسعون بها على أنفسهم .

وقد يباح للدول فى هذه الأيام ان تفرض النظام الضريبى لتنهض بما عليها من أعباء فى بناء الدولة واقامة المنشآت وتشييد المصانع والمؤسسات التى تخدم الشعب .

والدول الآن ملتزمة امام شعوبها بنظامها الضريبى وكل فرد يعرف ماله يطالب به وما عليه يؤديه .

أما فى تلك العصور فقد كان الامر لونا من الوان السلب والنهب والابتزاز

جـ — ان الامام كان يعتبر هذه الوظائف منحة لمن يرضى عنه أو رشوة لمن يبغى اسكاته .

وكان من يتولى هذا العمل يعرف طبيعة عمله .

ويؤديه على الوجه الذى اريد له .

فيسوم الناس خسفا ويملأ خزائنه وخزائن الامام وحاشية الامام فى أقرب وقت .

وهو يسابق الزمن فى عمله حتى يصل الى غايته قبل أن يبعده الامام .

فلا فرق بين المكاس وبين قاطع الطريق لذلك كان حكم الاسلام قاطعا فى هذه الناحية .

وحاشا لموظفى الضرائب اليوم أن يكونوا مكاسين فهم يؤدون واجبا لشعوبهم .

لا سيما فى الأنظمة الجمهورية التى تأخذ من الشعب لترده على الشعب فى التعليم والصحة والطرق والمصانع والمشروعات الزراعية وغير ذلك .

ثانيا : خطر القطع أو الاقطاع :

(ثم الطامة العظمى والمصيبة فى دين الله الكبرى هذه القطع التى هى من أعظم المنكرات وأشنع البدع قد عم البلاء بها وطم وفرقت البلاد بيوتا وقرى بين الأعيان من آل الامام وغيرهم ممن لا نفع منهم للانام وغيرهم من القبائل الطغام — وان كانوا فى اقطاعاتهم أحسن سيرة من بيت الامام .

وزاد الشر حتى اقطعت الحريم وكل ذى منصب من خاص وعام .

وهذه الأولى صارت من السموم القاتلة لدين الاسلام فانه اعطاء عين الزكاة لمن يحرم عليه من ثلاث جهات :

من المنصب فانه صح عن الصادق الأمين أنها لاتحل الزكاة لمحمد ولا لآل محمد وقد ذهب امام المذهب الهادى ان مضطر الآل يقدم أكل الميتة على الزكاة .

وثانيهما أيضا فانا لا نعلم صاحب قطعة الا وهو غنى وقد قال صلى الله عليه وسلم انها لا تحل لغنى ولا قوى ولا لذى مرة سوى .

وثالثها أنه يأخذ أضعافا مضاعفة على النصاب .

ويعتبر ابن الامير من اوائل المفكرين فى العالم العربى الذين هاجموا الاقطاع ونبهوا الى المفاسد التى تنتج عنه من تفريق البلاد وتمزيقها وبث العداوة بين البلاد المختلفة والقبائل المتعددة .

ثم الناحية الثانية التى يشير اليها وهى اقطاعيات الاجبار الذين كانوا يقطعون البلاد مع حقوق جمع الزكاة منها فكان السادة يستولون على غلات البلاد كما يجمعون اليهم زكاتها .

فاذا جاز لهم أن يستحلوا غلات الاقطاعية فكيف جاز لهم أن يحلوا لانفسهم أموال الزكاة وهى محرمة عليهم باحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنص المذهب الذى يلتزمون بأحكامه .

وها هما حقيقتان خطيرتان تتعرف عليهما من كلام ابن الامير :

— ان شيوخ القبائل الاقطاعيين كانوا أخف على الشعب وارحم وأحسن سيرة من بيت الامام . ولا غرابة فان ابن الشعب مهما اشتط به الظلم فهو ارحم بابناء جلدته من هذه الطبقة التى تزعم انها رأس الورى والناس كالاخفاف .

— ان النساء من بيت الامام فى هذا العصر زاحمن فى الاقطاع . أشار الى هذا ابن الأمير هنا صراحة وأشار الى ذلك فى قصيدة مرت بك من قبل :

أعطى الصغير مع الكبير معمما — ذات الخمار وربة الاشناف .

(فيا عباد الله اذا لم يكن حياء من الله فممن تستحون واذا لم تقفوا عند زواجره فبمن تزدجرون . واذا لم تمتثلوا أمره فالعاقبة أنتم منتظرون .

فقد قال سبحانه « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ») .

ثم وراء هذه الاقطاعيات ومفاسدها مفسدة تخص من نصب نفسه لأمر البرية وتعم جميع الرعية :

وهو أنه يحتاج الى ما يقوم بهذا التكليف ما يلجيه الى ظلم من بقى تحته من الرعية .

كما وقع الآن لهذا الامام الذى رجونا لسطوته صيانة الأنام فانه وسع على نفسه التكليف الذى غايته ليس نفع ولا دفع على ضعيف : من السيارات (١) اليومية والمقررات الشهرية لكل من يحسن لبس العمامة ويطيل فى الملابس أكمامه ولا ينتفع به فى أمر من أمور المسلمين . ولا ينفع فى شأن من شئون الدين .

فان غالب هذه المقررات لذوى الاقطاعات ممن يتخذ الخيل المسومة للجرية (٢) فى الميدان والمنافسة لفلان وفلان ومبالغ فى اتخاذ الجوارى الحسان وفى الحلية عليهن وتقليد اللآلىء والمرجان وفى التوسع فى المساكن والتأنق فى فراش الأماكن وتبديل الثياب على بدنه والملبوس وتلوين الأطعمة باجاعة ذوى البوس .

فوالله ما يبقى رغيف المترفين من الرؤساء وآل الامام حتى اسودت صحائفهم بالخطايا والآثام .

ومن شراء الخيول واعطائها كل قدم جهول لايراق عليها دم فى سبيل الله ولا ترتبط لطاعة الله أو لجهاد ترجونه .

وهذه الأعداء قد رفعت فى كل الجهات رءوسها وأبدت أوجهها لكم عبوسها .

---

(١) المصاريف اليومية .

(٢) السباق والاستعراض .

أبعد قتل الاجناد فى عدن يطيب لذى همة الوسن وبعد تعدى حاشد وبكيل على الضعفاء وأبناء السبيل يرجى زمان جهاد أو مكانه .

فهذا والله منتهى أوانه ولا عطر بعد عروس .

بل أعرضتم عن الجهاد ومن رفع رأسه من ذوى العناد أعطيتموه شطرا من البلاد وفرقتم له الفرق (١) الذين تحت الوطآة وأعطيتموه الفجرة وأهل الجرية) .

ونفهم من الفقرة السابقة :

١ — كيف اتجه الامام الى ظلم الضعفاء وأرباب الحرف والتجار وسكان صنعاء وما حولها .

فقد توزعت البلاد اقطاعيات ولم يبق له الا هؤلاء .

٢ — المرتبات التى كانت مقررة للحاشية وما كانت عليه الحاشية من صبورة وسيرة .

ثالثا : خطر العمال « جامعى الضرائب » .

ثم بلاد اليمن فى بلاء من العمال الذين هم جهال الجهال فانه اطرد فى هذه الاعصار انه لا يولى الا فدم جهول لا يعرف من قواعد الشريعة فروعا من أصول .

غالب العمال هم من العبيد الاغمار أو الأحرار الجهلة الأشرار .

ولا يخفى على أحد من المسلمين ان الولاية على رقاب المؤمنين من أهم أمور الدين لا يقلد بها الا عارف بقواعد دين الاسلام عدل مطهر من الأدناس والآثام .

فانه سبحانه شرط العدالة فى الشاهد ولو على أقل من درهم واحد فكيف بمن يولى على الأموال والحرم وعلى الفصيح والأعجم .

---

(١) يوفد الامام أحد أتباعه الى احدى الجهات لجمع ضرائب معينه لصالحه.

ثم من المصائب فى دين الاسـلام هؤلاء الذين ولو منصب القضـاة والأحكام .. فانه فى هـذه الأزمنة التسـاهل فى توليـة القـاصرين ولا سيما اذا كان أبوه قاضيا فانه يولى ابنه وان كان من أجهل الجاهلين .

والأصح فى المذهب انه لابد ان يكون من المجتهدين . كأنه ميراث فرضه الله من فوق سبع سماوات . ثم يفرض لهم فى المقررات ما يكفى أمة من ذوى الحاجات من زكاة وغيرها .

ثم يقبضون أجرا واسعة على طيافة شجار أو رقم علامة أو احضار (١) .

وقد أجمعت الأمة كما نقله جماعة من الأئمة انه يحرم على الحاكم قبض أجرة من المتخاصمين حيث اه جراية فى بيت المال وانه لا يستحق ذلك الا مع نفعه لعباد الله تعالى بالأقوال والأفعال . فصاروا بهذا أشر من العامل وأعظم أعوانه على الباطل لأنهم يحملونه على ظلم الرعية بلسان الحال ويشاركونه فى ظلمه بلسان المقال .

فان كان الامام غير عارف بهذه الأطراف فقد رفعناها الى سمعه وعرفناه من الحق ما أوجب الله علينا من تعريفه به ورفعه .

فيجب عليه وعلى كل من لديه ازالة هذه القبائح والستر والطمس لهذه الفضائح .

(ثم انه يجب عليه تسهيل الحجاب وتقريب نفسه من ذوى الحاجات والطلاب) .

ويجب عليه اتخاذ أعوان صالحين ووزراء من المتقين ان نسى ذكروه وان ذكر أعانوه . أهل عفة عن أموال العباد ومخافة ليوم المعاد .

لا كهؤلاء الوزراء الذين همهم جمع الأموال والتجبر والتكبر والجبروت فى جميع الأحوال .

---

(٢) وانتهى الأمر فى العهد البائد أن كان الجند ينـزلون على المتخاصمين بأجرة يوميه وحق الطريق والطعام والشراب والقـات والمداغة . ويبقـون هكذا يمتصون دماء الرعوى حتى تلوح لهم قضـيـة اخرى أو ينضب ما عند غريمهم .

ان ورد شاك ما انصــفوه أو وفد وافد ما أكــرموه ولا أعانوه ولا عاونوه .

رابعا : الخطاط :

(ثم من أعظم الطامات المغضبات للواحد القهار خرق بيوت المسلمين واخراجهم منها ليسكن فيها من ورد من الأشرار فانه قد يخرج الرجل من أهل صنعاء من مسكنه ويناله البلاء فى أهله وماله وبدنه ..
يدور فى الأزقة فلا ينفعه أحد ولا تلحقه رأفة ورقة) .

خامسا : الأوقاف :

(ثم من المنكرات هذه الأوقاف فى اليمن جعلت بنظر بعض المترفين . قصارى همه سلب غلاتها وان اسخط رب العالمين لا ينظر رقبة الوقف ولا الموقوف عليه ولا يجعل عليها نائبا الا من يركن عليه .

وما بهذا أمر الله العباد ولا هذا فعل من يخاف المعاد) .

سادسا : الدراهم « العملة » :

(ثم من أعم البلايا هذه الدراهم المضروبة والأسماء المكذوبة من المئين والألوف .. وكل يوم لها صرف أو صروف .

وكل هذا خيانة للمسلمين وتجارة فى أموالهم وقد قال صلى الله عليه وسلم « لعن الله من كنز سكة المسلمين الا من بأس ولعن المتاجر فى رعيته من السلاطين » .

ولا يخفى ان ضررها عام لأهل التجارات وأرباب الصناعات وذوى الفاقه والحاجات .

والواجب الا تزاد على وزن وعدد معلوم فان زيادتها نقص فى مال كل مسلم ضعيف مهضوم) .

وكانت هذه تجارة الأئمة يغيرون فى كل عام مرة أو مرتين وزن العملة وشكلها والشعارات المضروبة عليها وتلغى العملة القديمة وتفقد قيمتها فى الأسواق .

ولعل هذا من المرجحات التى دعت المهدى صاحب المواهب الى أن يغير لقبه من الناصر الى الهادى الى المهدى . وبلغ به الحال ان غير العملة ثلاث مرات فى شهر واحد كما روى ابن الأمير .

ولما تنازل المنصور حسين وبقيت السلطة فى يدى القاسم الرهيب لم يجد المنصور وسيلة يستكثر بها الأموال ويغطى بها نفقات ابهة الملك سوى العملة ففتح دار الضرب فى صنعاء وفتح أخرى فى كوكبان . وحدث أن اصبح صرف الريال الواحد يقدر بالمكيال .

وكان اليهود هم الذين يتولون هذه الصناعة وغالب الظن أنهم كانوا وراء هذا الفساد لأنه يعود عليهم بالربح من جهة ويحمى عمال سك النقود من التعطل .

ويختتم ابن الأمير رسالته العظيمة الثائرة بذكر العلماء الذين وقعوا عليها واسم الفقيه أحمد بن محسن الرصاص الذى سلمها الى المنصور بعد ان (دور بها على علماء صنعاء) .

بقى لك فى أعناقنا موضوعان وعدناك بهما عند تقديم فصول هذا القسم .

أما أحدهما وهو افساد الأئمة للقبائل فقد مر بك منه الكثير مما أصبح اعادة الكلام فيه قد يشق عليك .

حقا ان هناك الكثير مما لم يقل بعد ولكن الاستطراد بعد ذلك سيضاعف من عبء الطبع والنشر والقراءة .

وأما ثانيهما وهو السجون وما فيها فنعود الى ابن الأمير أيضا لنقتطف لك من رسالته « الحراسة فى مخالفة المشروع من السياسة » ما يأتى :

(ليس الذى اتخذه عمر — رضى الله عنه — مثل هذه السجون التى تعورفت بين الناس من التضييق على من فيها ومنعهم من الخروج والدخول لأداء الصلوات ، وقبض المال من المسجونين ولو ســاعة يسمونها « رسامة » وصارت الحبوس الآن مستغلات للعمال يقبلونها من الأشرار بالأموال وتبعوا « الحجاج » فى اتخاذ القيــود والأغلال . فانه أول من أحــدث ذلك فى الاسلام..

ولا يخفى على متشرع أن الحبس هذا الذى اتخذه الناس عقوبة من أعظم العقوبات فانه مشتمل على هتك عرض المسجون وعلى قبض مال منه :

أولا أجرة لمن يأمره الأمير أن يذهب به الى الحبس ثم أجرة السجان .

ثم منعه عن التكسب لمعاشه وقد ينضاف الى ذلك تقييــده وتحــكم السجان فيه وتهدده بادخاله محلا مظلما يسمونه « المطبق » حتى يسلم مالا يدفع به عن ادخاله ذلك المحل . ثم منعه عن كل شيء حتى يمنع عن دخول ولده أو والده اليه) ..

وكل هذا الذى رواه ابن الأمير عن السجن لم تتغير حقيقته ولا أسلوبه فى عهد يحيى وأحمد . بل تضاعفت المظالم الى درجة لا تطاق .

فكان السجان يبالغ فى القيد فى أول الأمر قيد للقدمين وآخر لليدين وثالث للعنق ورابع يجمع اليدين الى القــدمين ثم توضع « الثقالات » فى قيود الرجلين حتى تمنع المسجون من الحركة وتلصقه بمكانه .

ثم كل تخفيف عنه برشوة . والطعام يأتى برشوة والخروج من « المطبق » برشوة . والخروج من باب الحجرةالى الفناء أو سطحالقلعة له ثمن ، حكىلنا القاضى محمد السياغى انه سيق فى احدى المرات التى قبض عليه فيها مع سبعة من الوجوه فى جنزير واحد . وطوفوا بهم فى البلاد حتى دخلوا صنعاء ثم وصلت أوامر الطاغية أحمد بأشخاصهم الى تعز سيرا على الأقدام .

فكانوا يتوسلون الى الشرطة أو « العكفة » ان تكون قيودهم فرادى حتى يتمكن الواحد منهم من قضاء حاجته ولكنهم أبوا عليهم ذلك .

وامتنعوا عن الطعام والشراب فى الطريق حماية لأنفسهم من هذا الحرج .

والتقى بهم أحد أصدقائهم فأمدهم بمبلغ من المال قدموا منه رشوة لجلاديهم عشرة ريالات عن كل فرد فى سبيل ان يسمح للواحد منهم بالانفراد عند الضرورة ..

هل هى وحشية ؟

هل هى شريعة الغاب ؟

كلا . بل هو الحكم فى ظل أسرة القاسم بن الرشيد .

الفصل الرابع

رَجُل السَّلام

كانت الدعوة الى السلام متأصلة فى نفس ابن الأمير وكان الرجل يؤمن بأن السلام هو سبيله الى نشر مذهبه :

ومن ثم يتساقط نفوذ الأسر المحتكرة للحكم وتقلم أظافرها وتخف وطأتها عن البلاد . وتراجع نفسها فى تلك المظالم التى تصبح الناس بها وتمسيهم .

فلو أتيح للناس الفترة التى يهدأون فيها ويستمعون الى كلمة الحق لأزيحت عن أبصارهم غشاوة التضليل وأفاقوا من ثباتهم العميق على حقيقة اليمن العظيم وما صار اليه ..

واليمن فى حياة ابن الأمير لم يهدأ أبدا ولم تخمد فيه نيران الفتن .

وكان الأمر فى بدايته أمراء يتصارعون على الحكم ويحاول كل منهم أن يقنع قبيلة من القبائل بدعوته لتدافع عنه ان هوجم ولتجارب له ان قويت آماله ..

وكانت النخوة العربية تجعل هذه الحماية للاجىء أمرا تفخر به القبيلة وتعتز .

وكاد الخلاف ينتهى وتعود القبائل الى حياتها تزرع وتتخاصم ولكن كثر الاغراء من الطامعين وتكالبوا على القبائل ومنوهم الأمانى وتغافلوا أولا عن جرائم الطريق التى ترتكب ثم شجعوا عليها ثم اشتركوا فيها .

وأصبح هذا الصراع محببا الى النفوس فيه كل متعة المحارب الذى لا مبدأ له .

أليست هذه المدن تباح لهم فيجوسون خلالها وما أعجبهم فهو لهم حق مستباح .

النساء تسبى والصبية تمتلك .. الفرش والمتاع والحيوانات حتى أبواب المنازل ونوافذها اذا راقت فى العيون حملت مع المغيرين .

وتكشف الأمر للناس .

ما لهؤلاء الأمراء يثورون فنثور معهم ويهدأون فنهدأ .

ومن ذا الذى أعطاهم حق استباحة المدن والقرى وما فيها من ذخائر .

وبدأت الموجات تتحرك مندفعة اندفاعا تلقائيا تنهب وتسلب وتعتدى لصالحها .

واذا غضب الامام تقدمت قبيلة لتنهب ما نهب وتسلب ما سلب لصالح الامام .

ولكثرة الخارجين فى المدن والحصون توطن فى أذهان القبائل ان للامام صنعاء فحسب ليس له من بلادهم شىء وليس عليه لبلادهم شىء .

فعليهم ان يدبروا أمورهم بوسائلهم الخاصة . وانا لنعلم ان هذا سيثير بعض العجب .

ولكن ليرجع الى القاب الأئمة فى ذلك العصر : صاحب صنعاء — صاحب المواهب — صاحب شهارة وليس فيهم واحد صاحب اليمن .

كما استقر فى أذهان الأئمة ان ليس لهم من الأطراف الا النذور والا فرصة تلوح لكسب صديق أو قضاء على غريم .

وهل هذه حال يمكن أن يستقر عليها وضع شعب أو تلتئم به جراح أمة .

لهذا كان من رأى الأمير أن سكون الفتن ونسيان الشعب لها ولو لفترة من الزمن هو فى حد ذاته كسب كبير تهدأ النفوس وتختفى الثارات ويعى الشعب أوضاعه ويفيق من غفلته .

وما لا حت فرصة أمام ابن الأمير لصلح الا اهتبلها وقد هيأت الظروف له التدخل فى أربع مواقف كبرى وهدأت الفتن على يديه .

الصلح بين المتوكل وبيت اسحق :

أما الفتنة الأولى فهى التى اشتعلت بخروج بيت اسحق على القاسم الرهيب فى عام ١١٣٦ هـ .

وكان ابن الأمير من رجال المعارضة الذين يندون بالقاسم وسياسته فى الرعية ويأخذون عليه سبقه الى الدماء وسلبه للاموال وأكله للاوقاف والزكاة واستعماله وزراء السوء وقضاة الفساد .

كما يأخذ عليه تجزئة البلاد الى اقطاعيات أفسدت الراعى والرعية .

وكان من المتوقع أن يكون ابن الأمير مع الخارجين ولكنه ينأى بدعوته الى كحلان وحتى يقطع على ألسنة المتاولين والواشين خروجه الى كحلان عاد ليواجه القاسم وليصحح فكرة الناس عنه فليس الرجل طالب ملك أو منافسا عليه ولكنه داعية اصلاح .

ومن ثم توفرت له صلاحية التوسط بين الفريقين :

وليس اقدر من ابن الأمير على هذا التوسط :

كان يهاجم القاسم فى ظلمه وينتقد سيرته وكان القاسم يهابه ويحسب له كل حساب .

وكان صديقا لأبناء اسحق ولكنه لم يرض عن تصرفاتهم ونهبهم للبلاد .

وسافر ابن الأمير مع جماعة من العلماء الى محمد بن اسحق وما زالوا في مفاوضات الصلح حتى عادوا به وسكنت هذه الفتنة ..

خروج الحسين على أبيه :

وفى آخر أيام القاسم أحس الحسين ابنه خطرا من ناحية أخيه أحمد فى تعز وكان هذا الخطر تؤكده الأيام الماضية .

فقد كان القاسم يؤثر أحمد على حسين ويختص الأول بعطفه وبره وبكل ما يوفر له الراحة والهناء .

وفى الوقت نفسه أهمل الحسين اهمالا ظاهرا .

وكانت خاتمة المطاف هى تولية أحمد لتعز حيث الراحة والهدوء والخيرات الكثيرة والشعب الوادع الذى يسهل قياده ويسلس .

ثم ها هو ينبذ الحسين فى عمران حيث القلاع الساحقة والحصون المتكاثرة والقبائل التى لا تهدأ ثورتها ولا تلين قناتها ..

وكان أخوف ما يخافه الحسين ان تكون هذه مقدمات للبيعة لأحمد بعد هذا الشقاء الطويل .

وحرك الحسين القبائل من حوله فتحركت معه وسار بها الى صنعاء لا تبقى فى طريقها ولا تذر .

وأصبحت العاصمة على أيام رهيبة يتدفق فيها الرعايا عليها من القرى المجاورة يلتمسون ملجأ يسوقون أنعامهم ويحملون متاعهم ويتبعون نساءهم وأطفالهم ونشط عمال القاسم فرحين موفورين . يقدرون المكوس والاتاوات على اللاجئين فى قسوة وجشع .

وترقب الناس أن يسمعوا صوت نفير الحرب أو دفاع عن العاصمة التى توشك ان تسقط فى أيدى المهاجمين الجياع . ولكن خاب كل أمل .

ويجمع ابن الأمير علماء صنعاء ويبصرهم بواجب العلماء فى هذه الفترات العصيبة .

وساقهم الى القاسم وألزموه أحد طريقين :

اما أن يدعو ابنه للصلح .

واما أن يخرج لابنه للحرب والدفاع عن الشعب .

وينتدب القاسم ابن الأمير رسولا للصلح . وكان القاسم قد أعدها خدعة للوثوب على ولده فى غفلة من أمره .

ويفاجأ رسول السلام بالحرب تدور من حوله وهو يجادل ويقنع ويعظ .

فيسارع بالعودة الى القاسم ويواجهه برأيه فى الخيانة التى ارتكبها . ويقنعه بمواصلة رسالته .

ويعود ابن الأمير الى الحسين ليقنع الولد أن يعود الى عمران برا بأبيه ورأفة بالضعفاء وحقنا للدماء وصونا للحرمات وضمانا لمستقبله .

وينفذ كلام ابن الأمير الى قلب الحسين فيسلم به ويعزم على تنفيذه .

ولكن جاء جماعة أخرى من العلماء وصلت اليه لتخوض فى أمر الصلح فيحتقر حديثها ويترفع أن يجرى معها فى حديث ويعمى عليها طريقها ويردها الى سيدها فى صنعاء .

ثم يؤذن فى القبائل بالعودة ومن « حدة » فى طريق عودته يكتب الى أبيه يسترضيه ويأسف اليه .

وسكنت الفتنة .

الحرب بين ملك تعز وملك صنعاء :

كانت العلاقة بين أحمد بن المتوكل أمير تعز وبين الحسين بن المتوكل ملك صنعاء كما قد علمت .

أفسدتها الأيام وزادتها الحوادث وحشة .

وبعد أن استقر الحسين على عرش صنعاء ظل أحمد متربعا على امارته فى تعز لا ينازعه فيها منازع ولا سلطان لصاحب صنعاء عليه .

وفى عام ١١٥٣ هـ زادت الوحشة بين الأخوين مما دفع الحسين الى أن يؤلب قبائل المشرق على أخيه وزادت الأمور سوءا .

فما كان من أحمد الا أن أعلن الخلاف واستولى على خراج « المخا » أعظم دخل للامام فى ذلك الوقت .

ثم امتدت يده الى أب وبلاد العدين وبدأت حرب طاحنة بين الأخوين شقت على الناس وأحاطتهم بالأهوال حتى تمنوا أن يخلصهم الله من الأخوين جميعا .

فكل واحد منهما قاس لا يرحم ، شرير لا يعرف الخير ، طامع لاتنتهى أطماعه .

ثم هذه الحرب التى نشبت بينهما لا يعرف الناس لها نهاية كلاهما مستقر فى مملكته مطمئن على عرشه محوط بالجوارى والغلمان وصنوف الترف وحاشية السوء .

والشعب هو الذى يقاتل ويقـدم الضحايا ، والمدن والقرى فى طريق الجيوش تغدو عليها ناهبة وتروح عليها سالبة .

وماذا على الامام وأخى الامام ان استمرت هذه الحرب عشرات السنين ولا أقل من أن يشغل الشعب بها عن صاحب صنعاء وصاحب تعز .

ولسنا نرى تصويرا لشقاء الشعب بما كان أدق من هذين البيتين اللذين يصور بهما الشاعر حالة الشعب والجروح الدامية العميقة التى أصابته من جراء العداء بين هذين الأخوين اللدودين :

اخـوان قد سـقيا بمـاء واحـد والفضل خـال من كلا الأخـوين
جرحا صـدور العـالمين فما لهـا من مرهـم الا « دم الأخـوين »

وبلغت الأمور ذروتها ويتقدم ابن الأمير يدعو الحسين الى تسكين هذه الفتنة ويتصل بوزرائه يشرح لهم سوء الحال ويلقى عليهم التبعة ويدفعهم الى مؤازرته فيما يحاوله مع المنصور حسين .

وسافر ابن الأمير الى تعز والتقى بأحمد وسكن ما بنفسه والزمه بقبول الصلح .

وسكنت الفتنة .

مرة ثانية ملك تعز وملك صنعاء :

عادت الفتنة من جديد بين أحمد وأخيه فى عام ١١٦٠ هـ وظلت قائمة حتى توفى الحسين فى عام ١١٦١ هـ وتولى ابنه العباس متلقبا بالمهدى .

وفى هذه المرة يدعو أحمد لنفسه اماما على اليمن : اليمن الأسفل لا يطمع فى مزيد عليه . وكان يرد عنه كل وافد من الشمال .

وانقسم اليمن انقساما خطيرا لا سبيل الى رأب صدعه .

ويتقدم ابن الأمير مرة أخرى ويسافر الى تعز وما زال بصاحبها حتى يعود بالبيعة لابن أخيه .

ونجا اليمن من انقسام كان كفيلا بأن يهدد وحدته الى اليوم .

محاولة الاغتيال :

ويتصل بهذا الفصل محاولة الأمير التوسط لبعض العساكر من شهارة لدى المنصور حتى يستعملهم ويفرقهم على البلاد ضمانا لرفع أذاهم عن بلاد وصاب ولعدم تجمعهم فى مكان واحد .

والسبب فى ذلك ان الحسن بن القاسم بن المؤيد كان يختص باقطاعية بلاد وصاب والنظر فى جميع أعمالها .

وأمثال الحسن لا يكلفون أنفسهم مؤنة مباشرة اقطاعهم بأنفسهم لذلك فقد عين لها عاملا من قبله ابن أخيه على بن عبد الله بن القاسم .

واصطحب على جماعة من جند شهاره ليعاونوه .

واشتد ظلم على وجنوده على أهل وصاب وبلغ ابن الأمير ذلك .

فتوسط لدى الحسن وناصحه (بانه لا يحل بقاء تلك البلاد تحت حكمه اسما وليس له التصرف فيها الا وهما) .

واقتنع الحسن بذلك وارجع الاقطاعية الى المنصور حسين . وكان من جراء هذا طرد جنود على بن عبد الله أهل شهارة .

ورجع الجنود الى بلادهم وعرفوا السر فى تشريدهم فدبروا أمرهم بليل وفاجأوا ابن الأمير فى داره ليقتلوه .

ولكن الرجل بقلب مطمئن يستقبلهم ويحاورهم حتى سلس قيادهم فى يديه . ثم يتوسط لهم عند المنصور ليستعملهم ويوزعهم على البنادر . وقد تم للرجل ما أراد .

الفصـــل الخامـــس

إبن الأمير وبيت اسحق

— ١ —

مر بنا الكثير من علاقة ابن الأمير ببيت اسحق فقد كان ابن اسحق أستاذه وكان من تلامذته الحسن بن اسحق واسماعيل بن محمـــد بن اسحق .

وقد بهر محمد بن اسحق تلميذه بعلمه كما أعجب ايما اعجاب بذكاء اسماعيل والحسن وانكبابهما على العلم والتحصيل مدة تلمذتهما التى طالت .

حتى ان اسماعيل واصل هذه التلمذة سبع سنوات .

وتحولت الصلة الى صداقة قوية متينة يبادلون ابن الأمير حبـــا بحب واعجابا باعجاب وتقديرا بتقدير .

ولما مال أبناء اسحق الى جانب الثورة على عمهم صاحب المواهب بعد أن تأكدوا من خسران جانبه وافلات الموقف من يديه . وكان ابن الأمير ممن يشارك قادة الثورة رأيهم فيها يعددون من ظلم وما يتطلعون اليـــه من اصـــلاح .

وقوت هذه الفترة ما بين ابن الأمير وبين أصدقائه ولعل اشتغال الجماعة بالصراع الذى دار بينهم وبين القاسم عندما ولى الحسين بن القاسم الشهارى قد باعد بين الأصدقاء قليلا .

وكان القاسم يدعى ان اضطراب الأمر سببه تسلط بيت اسحق على الحسين وسببه أيضا امتداد اقطاعياتهم الى كثير من البلاد .

وأخذ القاسم يقلم من سلطان الحسين ومن اقطاع بنى اسحق حتى انتهى أمر الملك اليه .

ولم تكن هذه النهاية لترضى أصحاب ابن الأمير فعادوا الى مواطنهم غير قانعين بما خلص اليهم من اقطاع وغير مقتنعين بولاية هذا الجاهل الذى لا يملك من مسائل العلم قليلا ولا كثيرا .

لذلك أخذوا يتحينون الفرص للوثوب على منافسهم الرهيب وقد أعطى القاسم خصومه فرصا كثيرة بالسيرة التى سارها فى الرعية بقلب لا يعرف الرحمة اذا سلط على الأرواح .

وبأيد لاتعرف القناعة اذا سلطت على الأموال . وبوزراء وعمال وقضاة دربهم صـــاحب المواهب حتى أصبحت عقـــولهم تنفى العدل ولا تعرف اليه طريقا .

وبدأت ألسنة الطامعين تحرك غيظ القلوب وتحرك أكثر من هذا غيرة المخلصين للشعب المتحسرين عليه وعلى ما هو فيه .

وانطلقت القصيدة الرائعة :

سماعا عباد الله أهل البصائر .

وخرج بيت اسحق وخرج معهم من خرج وكان لابن الأمير موقف معين . نصحهم بعدم الخروج لأسباب :

١ — ان القاسم يملك من الأموال والذخائر ما يستطيع ان يحرك به المعركة لصالحه .

والغلبة فى مثل هذه المعارك لمن يملك أكثر لا لمن كان الحق فى جانبه . لأن الشعب قد فقد الثقة فى الجميع .

٢ — ان كل نزاع على الحكم جناية على الشعب الوادع المسكين وترويع له وازهاق لأرواح بريئة وانتهاك لحرمات يجب ان تصان واغتصاب لحقوق يجب ان تحترم .

٣ — ان العلاج لا يتمثل فى خلع امام وتعيين امام لأن الظروف المحيطة كلها لا تساعد على اصلاح الوضع .

والأمل الوحيد هو استمرار المعارضة وتقويتها حتى يستيقظ الشعب ويرتدع الحاكمون .

ولكن القوم ظنوا ان هذا الذى يقال لن يحول بين ابن الأمير وبين الخروج معهم .

وخيب ابن الأمير آمالهم وكان الرجل محقا فيما ذهب اليه فقد حدد بقراره هذا الفارق الكبير بين طريق المصلح وطريق الطامعين .

وآثر ان يلجأ الى كحلان حتى تنتهى الفتنة .

واذا بالاخبار تطارده ان الناس جميعا وفى صنعاء بالذات وفى بلاط القاسم تؤكد انه ممن خرج مع بيت اسحق .

ويتخذ الأمير قرارا آخر لا يقل عمقا وحكمة عن قراره الأول .

قرر ان يعود ليواجه القاسم . والتقى بالقاسم فى مدينة « الروضة » على سلم القصر .

وغالب الظن ان القاسم لم يكن رأى ابن الأمير من قبل ولذلك عندما عرفه به وزيره احمر وجهه غضبا .

ولعل القاسم قد احنقه ان التهمة بخروج الأمير قد سقطت عنه . وكان يتمنى ان يأخذه بها لا سيما بعد ان علم انه ناظم القصيدة .

لذلك فقد واجهه بتهمتها .

وكانت اجابة الأمير على تلك التهمة بارعة ودقيقة فى الوقت نفسه .

(هل وجدتها بخطى أو قامت لك شهادة انها لى أو كذب عليك كما قيل لك انى مع بنى اسحق وتبين لك انى فى كحلان) .

وافلت الأمير من بين براثن القاسم واسرع ليلتقى بأبيه فى صنعاء .

وتبلغــه أخبار انتهاب « الصــلبة » وبلاد « حفاش » فيكتب الى اسماعيل بن محمد بن اسحق تلك القصيدة التى عرضنا لها من قبل .

أمثلك يرضى بارتكاب المظالم — ونهب الرعايا وانتهاك المحارم

ويجيبه اسماعيل بما يؤكد نظرة ابن الأمير فى أفراد العصابة جميعهم :

أيمــكن أن ينهــد ركن المظــالم   بغير القنــا والمرهفــات الصوارم
وتذهب آثار الضــلالة فى الورى   بدون انتهــاب وانتهــاك محــارم

يتوسط فى الصلح بين القاسم وخصومه حتى يتمه وتعود الأمور الى ما كانت عليه .

ويتولى الحسين بعد موت أبيه ويعيد محمد بن اسحق دعوته وتعود الحروب والفتن من جديد ويتنازل الحسين لمحمد ويبايعــه ثم لايلبث أن ينقض عليه حتى تناول أبناء اسحق واحدا واحــدا على مــدى عامين من الحرب الفاجرة المجردة عن المبادىء .

وقد علمنا أن الأمير عندما توقع هــذه الفتن ســارع الى بيت الله الحرام ليحج وليباعد بينه وبين بنى عمه وأقام بعد الحج فى الطــائف . فجاءته الأخبار بتغلب أصحابه على اليمن .

ويكتب اليهم من الطائف قصيدة بلغت الغاية فى صدق النظــرة وعمق الفكرة .

قصيدة تشيع السخرية منها وتؤكد ما سبق أن حدثهم به من قبل عندما خرجوا فى عهد المتوكل :

ان تغيير الملك لايغير ما نحن فيه . لأن تغيير العنوان لايغير الموضوع

وتؤكد هذه القصيدة أن ابن الأمير كان على مبادئه لن يتحول عنها سواء كان المتربع المنصور حسين أم الناصر محمد بن اسحق .

وان المصلح الكبير سيواصل مهاجمته لفســاد المفســدين وقسوة الحاكمين .

وليتأكد من شاء أن يستزيد تأكيدا من القصيدة التى أرسلت من الطائف الى أصدقائه اذ يقول :

أخبرونا تفضلا ما الذى كا	ن وماذا جرت به الأقدار
هل وليتم أمر العباد بعدل	وأزلتم ما قد تجاروا وجاروا
وهدمتم ما شيدوا من ضلال	وأشدتم ما شاده الأخيار
قسما ان فعلتم ذا وهذا	ان أنتم فى عصرنا الأبرار
وتركتم قبض المكوس وقلتم	ان أخذ المكوس عار ونار
وقبضتم أعيان ما تخرج الأر	ض كما كان يفعل المختار
وصرفتم أعيانها فى أناس	خصهم فى كتابه القهار
وأتانا بصيغة الحصر فيهم	أفهل عندكم على ذا غبار
وصنعتم فى أنصباء المواشى	ماروته فيها لنا الاخبار
وجعلتم وزيركم كل بر	وعزلتم من كلهم أوزار
ثم وليتم العدول رعايا	كم فكم قد وليهم الأشرار
كل يوم يلقون كل عناء	وعليهم رحى الضلال تدار
تارة يأتى المثمر بالجو	ر وأخرى القباض والعشار
وانظروا كل ما حواه « سماعا »	فهو نظم فى طيه الأسرار
قد أتى فيه كل ما قبح العقـ	ـل ونص الكتاب والآثار
فلهذا أحلت نصحى عليه	عند أن أعجزتنى الأشعار
كيف يقوى على النظام فؤاد	شتته الهموم والأفكار
وترامت به الديار فترميـ	ـه ديار وتلتقيه ديار

وها قد رأينا أن ابن الأمير يؤكد أن بيت اسحق وغيره من آل القاسم « العصابة » عاجزون عن اصلاح الوضع الذى وصل الى غاية من التعفن والفساد .

هل يستطيع ابن اسحق أن يعدل عن جباية المكوس ؟

وهل يستطيع بيت اسحق آن يعيد صرف الزكاة الى مصارفها التى حددها الكتاب الكريم ؟

وهل سيعيد بيت اسحق تقدير زكاة المواشى على الأنصبة التى حددتها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وهل يتخلص بيت اسحق من وزراء السوء وعمال السوء وقضاة الجور .

وأن يولوا أمر الشعب خيار الناس ؟

وهل يأتى اليوم تعف فيه « العصابة » فتختار « مثمرها » « وقباضها » « وعشارها » من عدول الناس الذين يفرقون بين حقوق الدولة وحقوق الشعب ؟

لقد آمن ببيت اسحق مع ابن الأمير بكل ما جاء فى قصيدته التى قذفوا بها فى وجه القاسم الرهيب ونغنى بها :

« سماعا عباد الله » .

وكانوا يتخذونها أمام الشعب دستورا لاصلاح أداة الحكم . كما يتخذونها حجة على الفساد القائم فى البلاد .

ابن الأمير يؤمن بأن بيت اسحق لن يختلف فى قليل أو كثير عن بيت القاسم الرهيب .

فكلهم ينتمون الى القاسم بن الرشيد .

وكلهم يزعمون بأنهم رأس الورى والناس كالأخفاف .

— ٣ —

وتنتهى الفتنة ويعود محمد بن اسحق الى صنعاء ويلجأ ابن الأمير الى شهارة ويستقر الحال بين ابن اسحق وبين المنصور ليعيش طليقا فى صنعاء وله اقطاعه الكبير يجبى اليه ويعين فيه عماله دون تغيير .

وان كان اخوته وأبناؤه مضيقا عليهم فى سجن المنصور .

ويبلغ ابن الأمير ما يفعله عمال ابن اسحق فى اقطاعياته وهو بشهارة فيكتب اليه فى رقة وأدب ويجعل التساؤل والحوار سبيله الى النصيحة وكلمة الحق التى التزم بها :

فهـا هنـا مسـألة أوردت	من صـاحب بـر حفى وفى
قال أليس الظـلم فى شرعنـا	محـرم قلت له بـل وفى ...
قال ومـا يأتيـه عمالنـا	تنـكره أو لسـت بالمنصـف
قلت ولا ينـكره جاهـل	فلا تسـمنى خـلق الأغلف
قال فهـذا عـز أهـل الهـدى	لـكل مـا يأتـونه مقتفى
وقـد دعا النـاس الى ضدها	بمقـول العمـال والمشرفى
وكـم رسـالات له جـرت	ترشـف بالاسـماع كالقرقف
ونـال منهـا بعض ما رامـه	فى قبض مـا يصرف فى المصرف
بـلاده مثـل سـواها وسـل	ان كنت للمحسـوس لم تعـرف
وكل مـا يقبض من مالهـا	يصرفـه فى نفسـه كالصـفى
لا فـرق فى التحقيق ما بينهـم	وكل من يفـرق لم ينصـف
فعنـدئذ أفحمنى قـوله	وكنـت قـدما أفحـم الفلسـفى
فقلت هبـه مثلمـا قلتـه	مـا لك والتفتيش للمختفى
هل حاسـد أنت لمـا نـاله	أم طـامع فيمـا لـديه وفى
فقـال بل حبـا وخـوفا على	شيبته من وقفـة المـوقف
قلـت أراه عالمـا ان بـرز	مقـامه ما قلتـه يشـتفى
فقـال هـذا مقصـدى لا سوى	فارو كـلامى غيـر مسـتنكف

(٤)

والحق يقال ان أبناء اسحق لم يسخطهم على ابن الأمير تلك المواقف الصارمة فقد عرفوا الرجل عن كثب وعرفوا مدى ايمانه برسـالته وأنه

لا يصدر عن هوى ومنافسة وانما يقول ما يؤمن به • لا يبغى من وراء قوله الا الخير العام لبلده وأبناء جلدته .

لذلك فقد اتصلت أسباب الود بينهم وبينه ولم تنقطع المراسلة شعرا ونثرا .

وكان الحسن واسماعيل يجدان فى هذه الرسائل سلوتهما فى السجن يشكوان مما يلقيان ويصوران مشاعرهما الى صديق وأستاذ وعلم من أعلام الاصلاح .

وكثيرا ما كان الحسن يلجأ الى الكنايات والتورية الى ما يريد حتى اذا وقعت القصائد أو الكتب فى أيدى الجلادين لم يفهموا ما تنطوى عليه.

وكان ابن الأمير وحده الذى يفهم عنهم ويفهمون عنه •

فى عام ١١٤١ أراد المنصور أن يوقع بابن الأمير فجمع العلماء وبعض حاشيته وكتب عهدا عليه لابن الأمير أن يعود الى صنعاء معززا مكرما .

لاتمتد اليه يد سوء ولا يقربه الامام بأذى وأشهد الناس على عهده وأكد العهد بالايمان المغلظة وتناهى الخبر الى الحسن بن اسحق فى السجن فسارع الى أستاذه يحذره موريا .

وقد كان كان غريبا على ابن الأمير أن تصل رسالة الحسن قبل أن يصل عهد الحسين .

وما أجمل أن نسوق الى القارىء قصيدة الحسن ورد ابن الأمير فهما يقدمان مثلا رائعا لأدب الرجلين وشاعريتهما واخلاص كل منهما للآخر .

كما أنهما يمثلان أخلاق المنصور التى لم تختلف عن أخلاق سابقيه وأخلاق لاحقيه من ملوك بيت القاسم .

يقول الحسن بن اسحق :

لا تتركنن الى أمانى الغيد ... فأمانها والله غير مفيد
وحذار ثم حذار منها أنها ... جبلت على ألا تفى بعهود

فلكم قتيل من سيوف لحاظها ... ولكم أسير موثق بقيود
لا يخدعنك لين منطقها ولا ... قسم يحف بأحرف التأكيد
وكذاك ان قبلت شفاعة شافع ... رأت الوفاء لذاك غير سديد
وضمانة الوجه المنير عن الرثا ... سفه أعيذك بعد لطم خدود
وكذاك ان كتبت أنامل كفها ... خط الأمان مؤكدا بشهود
لا تأمنن فكم رأيت مؤمنا ... غدرت به والغدر شان الغيد
فأقبل عداك الحب نصح مجرب ... قتلته بيض بالعيون السود

قال ابن الأمير :

(فوصلت الى هذه الأبيات الى شهارة قبل وصول كتاب الأمان من المنصور فازددت عجبا من سرعة وصول خبر ذلك الى المسجون مع التضييق عليه ومن سرعة وصول أبياته الى شهارة) .

وقد أجاب الأمير على هذه القصيدة بقوله :

مثلى يغر بنقش كف الغيد ... هيهات ان أغتر بالتسويد
ما خلت ذاك النقش الا حيلة ... فى الاقتناص لقلب كل عميد
مثل الشباك رأيت نقش أكفها ... أقصدت بالتشبيه صيد الصيد
اياك اطلاق اللحاظ فانه ... سبب لأسر القلب بالتقييد
كم من أسير فى سلاسل حبها ... يعتاض طيب النوم بالتسهيد
ولقد خبرت الغانيات فما لها ... عهد فلم تقضت سعاد عهودى
سحقا وبعدا للغوانى ان غدت ... كسعاد فى أخلافها لعهودى
أنا قد أطعتك ياعذولى فى الهوى ... ورأيت رأى سواك غير سديد
قد صنت طرفى أن يكون مسهدا ... وحفظت عن جرح الدموع خدودى
لو تسلك العشاق مثل طريقتى ... لم يشتكوا هجرا وقبح صدود
تابع فدتك النفس كل نصيحة ... واهد الغريب برأيك المحسود

ونرجو أن نقدم اليك فى المختارات التى سننهى بها هذا البحث مقتطفات من قصائد ابن الأمير لبيت اسحق والتى تتدارك بها ما أغفلناه فى هذا الفصل ايثارا للاختصار .

ولكن لابد لنا من أن نوضح نتيجة هامة للعلاقة بين ابن الأمير وبيت اسحق .

فقد رأينا هذا البيت ينتهى الى اعتناق مذهب ابن الأمير والاخلاص له والتفانى فى العمل به .

فما السر فى هذا التحول الكبير من بيت يعمل للملك ويصطرع عليه مع القاسم وابنه • ويبذل فى سبيل ذلك خير بنيه وكل ذخائره وأملاكه الى رجال يؤمنون بالكتاب والسنة ويواصلون العمل من أجلهما حتى أصبحوا من الأسر التى جانبتها العصابة ونفتها من ساحتها كما جاء فى كلام « المنصور) محمد بن يحى جد الطاغية أحمد : عن الأسر الهاوية التى أفسدها ابن الأمير :

لعل من الأسباب التى ساعدت على هذا التحول أن الجماعة حاولوا الملك مرتين وفشلوا واذا أردت الصدق فقد حاولوه ثلاث مرات اذا اعتبرنا الحركة التى اشتركوا فيها عقب تنازل المهدى صاحب المواهب كانت تهدف الى التملك أصلا .

ثم السجن الطويل الذى عاناه أفراد الأسرة فى عهد القاسم ثم فى عهد ابنه المنصور . وصلة ابن الأمير التى لم تنقطع ورسائله التى اتصلت تتحدث عن الدعوة والفراغ الذى عاشه التلاميذ الأبرار فترة طويلة جعلت مبادىء الأستاذ مجالا للتفكير الهادىء المنقطع عن أطماع الملك فكان الايمان بعد الاقتناع وكان الالتزام بالدعوة بعد ذلك لايحيدون عنها .

الفصل السادس

مختارات

لما كان اهتمامنا قد انصب على شعر ابن الأمير من الناحية السياسية والاجتماعية ولم يتسع المجال لدراسته من الناحية الأدبية . فاننا سنراعى فى هذه المختارات نماذج مختلفة من شعر ابن الأمير تعين الراغب على دراسة هذا الشعر .

كما أن هناك بعض الحوادث فى حياة ابن الأمير لم نشأ أن نعرض لها بالشرح والاطالة حتى لاتشق على القراء ورأينا أن تتولى المختارات الاشارة الى هذه الأحداث .

وقد ألجأت الأحداث والظروف التى أحاطت بابن الأمير أن يحيل كثيرا من شعره ورسائله على تلاميذه فى شتى مدن اليمن . كما أن هناك قصائد قد ندت عن ديوانه الذى جمعه ابنه .

واننا نعد القارىء بأن نقوم بالبحث وراء هذا الانتاج حتى نستكمل منه ما نستطيع فاذا قدر لهذا البحث أن يطبع مرة أخرى شملت هذه المختارات مجموعه كبيرة من هذا الشعر ومختارات من الرسائل التى لم تنشر . ومقتطفات من الآراء الخاصة لابن الأمير التى عنى بها فى مؤلفاته :

ايمـــان عميـــق

قال قدس الله روحه فى مدح بارى البرية وضمنها من شعر أبى الطيب المتنبى :

القلب أعــلم ياعــذول بــدائه	ما غيــر داء الذنب من أدوائــه
والذنب أولى ما بكاه أخــو التقى	وأحــق منك بجفنــه وبســـائه
فومن أحب لأعصـــين عــواذلى	قســما به فى أرضــه وســمائه
من ذا يلوم أخا الذنوب اذا بــكى	ان المــلامة فيــه من أعـــدائه
فــوحق من خاف الفــؤاد وعيده	ورجــا مثوبتــه وحســن جزائه
ما كنت ممن يرتضى حســن الثنــا	ببديع نظسى فى مــديح سوائه
من ذا الذى بسط البسيطة والورى	فرشـــا وتوجها بسقف ســمائه
من ذا الذى جعــل النجوم ثواقبا	يهدى بهــا السارين فى ظلمــائه
من ذا أتى بالشمس فى أفق السما	تجــرى بتقــــدير على أرجــائه
أســواه ســواها ضياء نافعـــا	لا والذى رفــع الســما ببنــائه
من أطلــع القمــر المنير اذا دجى	ليــل فشــابه صــبحه بضــيائه
من طــول الأيام عنــد مصــيفها	وأتت قصــارا عند فصل شــتائه
من ذا الذى خلق الخــلائق كلهــا	وكفى الجميــع ببــره وعطـــائه
وأدر للطفــل الرضــيع معاشــه	من أمــه يمتص طيب غــــذائه
يا ويح من يعصى الاله وقــد رأى	احســانه بنـــواله وندائـــه
ورأى مســاكن من عصى ممن خلا	خلوا تصــيح البوم فى أرجــائه
كم شاهدت عينــاك من ملك غــدا	يختــال بين جيوشــــه ولوائــه
مــلأت له الدنيــا كؤوســا حلوة	وســقته مر الســم فى حلوائه
ما طلق الدنيـــا اختيــارا انمــا	هى طلقتــــه ومتعتــه بدائـــه
جعلت له الأكفــان كســـوة عدة	واللحــد ســكناه وبيت بــلائه
ويضــمه لا مشــفقا فى ضــمه	حتى تــكون حشــاه فى أحشائه
وهنــاك يغلق لحــده عن أهــله	بحجــارة وبطينــة وبمـــائه

ويزوره الملـكان قصـد سـؤاله | عن دينـه لا عن سـؤال سـوائه
فاذا أجاب بمـا يطيب فحبـذا | ما بعـده من روحـه وجـزائه
واذا أجاب بـ «لست» أدرى أقبلا | ضربـا له في وجهـه وقفـائه
ويرى منـازله بقعـر جهنـم | ويقيم في ضيق لطـول عنـائه
يـارب ثبتنـا بقـول ثـابت | عنـد امتحان العهد تحت ثرائـه
أنا مؤمن بالله ثـم برسـله | وبكتبـه وببعثـه ولقـائه

وله رضى الله عنه وأودعها رسالة فى الاستعاذة :

لو الثقـلان الانس والجن أجمعوا | يريدون ايلامـا لأصـغر نسـلة
وكان لهـا رب السـموات ناصرا | لمـا ظفـروا منهـا بـأدنى مضرة

وله رحمه الله تعالى كتبهـا الى الشيخ العلامة زين العابدين بن سعيد المتوفى رحمه الله الى طيبة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مخاطبا أن يبلغ سيد الكونين صـلوات الله وسلامه عليـه وما شـكاه اليه صلى الله عليـه وآله وسـلم وذلك من شـهارة أيـام اقامتـه بها فى شـهر شوال سـنة ١١٤١هـ وأرسـلها الى الشـيخ المـذكور اذ هـو نزيل طيبة المنورة :

يـا قـرير العين فى بـلده | طيبة فى السـفح من أجـده
فى جـوار لا يضـام بـه | هـذه الدنيـا ويـوم غـده
دمت فى الأنعـام متصـلا | طارفا منـه وفى تـلده
أبـلغ المختـار أحمـد من | يسـتمد الـكل من مـدده
سـيد الكـونين قاطبـة | من أسـير الشـوق متقـده
عبـده تـرب النعـال له | وهـو فى الأنسـاب من ولده
صلوات لا انقضـاء لهـا | بانقضـاء الدهـر عن مـدده
وسـلاما لا يعـد ولا | يدخـل الامكان فى عـدده
وتلطف بعـد ذاك وقـل | هل لـكم أن تأخـذوا بيـده
فهـو فى بحـر الذنوب وقـد | كاد يلقيـه الى زبـده

انكم ان تأخذوا بيده	لايفت الزند في عضده
وله من بعد مسألة	أنت فيها كل معتمده
مطلب ما زلت أطلبه	أقطع الأيام في رصده
فتشفع لي الى ملك	كل خير فهو من صفده
في بلوغ النفس مطلبها	وخلوص القلب عن كمده
تغسل الأكدار عنه عسى	تشرق الأنوار من رشده
لست أرجو غير جاهك في	حل ما قد حل من عقده
ياشفيع الخلق في وطن	شابت الولدان من نكده
وأتوا نوحا وآدم والر	سل الأعيان من ولده
ثم عاد الكل نحوك في	طلب التخليص من كبده
فكشفت الكرب وانقشعت	سحب الاظلام من سدده
وبك الآن استغاث فتى	أنت أنت الكل من عمده
يا رسول الله كن عضدا	لغريب الدار مبتعده
كارها فارقتها وأبا	قطب أهل الأرض في بلده
وأخا أنوار طلعته	ترشد الغاوي الى رشده
وصغيرا لست أعرفه	قطعه الانسان من كبده
وأخلاء ودادهم	ليس يخشى حل منعقده
كل هذا في رضاك لما	صح من متن ومن سنده
من أحاديث لنا رويت	ما بها نقد كمنتقده
واليكم كفه رقمت	من يراكم كل مستنده
فأمدوه برفدكم	واقبلوا ما جاء من ثمده
صلوات الله تغشيك بلا	أمد يقضي الى أمده

ولما تداعى القوم للهجوم على صنعاء لاخراج ابن الأمير بحجة أنه أفسد المذاهب قال :

هذا بلا ريب لكل أريب	عين الجهاد لمعتد ومريب
هذه سهام قد أصابت كل من	أخطا الصواب فكان غير مصيب

زورا وبهتانا أتوا وتهددوا وجهالة بالرب والمربوب
أو ليس رب كافيا لعباده من كيد أهل الريب والتكذيب
قد شابهوا الكفار فى أقوالهم للرسل بالتهديد والترهيب
ولنخرجنك يا شعيب ومثله قالوا للوط وهو غير مريب
فلنا برسل الله أحسن أسوة ولهم بأهل الشرك شر نصيب

فخر وتواضع

وقال الى ولده ابراهيم يوما :

ولا تحسبن أنى أرى لى مزية على الناس فيها رفعة وثناء
فما أنا الا تبنة حل لبنة وبحر ظلام ليس فيه ضياء

وقال يتحدث الى ابنه ابراهيم وينصحه :

وماذا الذى نالنى منهم أما ألبسونى ثوب الجذا
غدا ستراني عند الاله وعند الرسول أنال المنى
وتعلم أن الذى نالنى من الحبس أحسن ما يقتنى
من الناس قد حجبوا طلعتى وماذا الذى يشتهى فى اللقا
فما القيل والقال مطلوبنا فهذا الذى عندهم لا سوى
وقل لى ما نال من يتصل بهم غير أنواع كل البلا
سباب الأنام وطول الملا م وحمل الكلام الى ذا وذا
فمن يعتزل يغتنم راحة وروحا ويسلم من قد قلا
ويخلو بمولاه رب الأنا م وخالقهم وجزيل العطا
يجالس أعيان صحب الرسو ل وأعيان أعلام هذا الورى
أناس هم الناس لا غيرهم وقد نزلوا فى بطون الثرى
ترى عالما فاضلا عاملا وملكا عظيما حوى ما حوى

وله نور الله برحمته ضريحه الى القاضي العلامة الحسن بن على البهكلى رحمه الله معاتبا لترك المعــاهدة وكان بينهما ألفة أيام الطلب فكتب اليه بعد أن صار حاكما فى أبى عريش :

سلا ان مررتم عن فؤادى على سلع … وقولا له طال الوقوف بــذا الربع
ولكن اذا عرجتمــا بتهـــامة … فعوجا بهــا واستفتيا حاكم الشرع
وقولا له هل جاز فى شرعة الوفــا … مقاطعة الاخوان أو صح فى السمع
وهيهات يفتى بالجواز وانمـــا … أريد بذا الزامه حجـــة القطـــع
وماذا الذى أنســاه ذكر أخــوتى … وهلا رفا خــرق التهــاجر بالرقع
فانهــم ســموا الرســالة رفعــة … لترفع قلبا هده الهجــر بالصــدع
أزهــده فى الخمــــول وانــــه … سما جل أترابى الى الجاه والوسع
وحصـــل مملوكا ودارا وبغـــلة … وأسرج مركــوبا وسرج بالشـــمع
وانى على ما كان يعهــد خامـــل … ولم أتحول عن طريقى وعن وضعى
فما أنا الا السيف كان قــرابة … خمولا فهز الســيف تسمع بالوقع
وانى فى روض العــلوم مخيـــم … مقيم على حصــد الفوائد والزرع
ودونك ذهنى فهــو يثمــر دائمــا … فوائد تجنى فى الدفاتــر للنفــع
ونقطف من روض العلوم معــارفا … وفى طبق التعبير تبــرز للدفـــع
ويطعمها أذهــان قــوم تســابقوا … الى طلب العليــا يهشون بالطبــع
وتاقت الى أوطـــان مــكة همتى … فحملها ما ليس يحمــله وســـعى
وقلت عسى ألقى خليــلا مهـــذبا … يساعد بالانصاف فى الأصل والفرع
فلم ألق الا جــاهلا متصــوفا … يرى أن أهل الأرض من خدم الشسع
يخطف للقلب الضــعيف بدفــــه … وبالرقص والثوب المرقــع والقبع
والا فتى قد نال حظـــا من العلى … ولكن يرى التقليد من موجب الشرع
ويحسب دعوى الاجتهــاد محــالة … ولا فرق فى الظنى لديه ولا القطعى
كأن كتــاب الله والســـنة التى … أمرنا بهــا قد ألحــدا باطن السمع

فقلت لنفسي ان في العـود راحـة وبعد اختبار الناس قد طاب لي ربعي
ولي جلساء لا يمـل حديثهـم يناجون طرفي بالأحاديث لا سمعي
سأجعلهم ما عشـت أهلي وجيرتي وأسلوبهم عن مفرد الناس والجمع

شــكوى

أشـكو اليـك نوى تطـاول بي وأطـال في همي وفي كـربي
تربت يـدا دهـري يعـاملني بالبعـد عـن وطني وعن تـربي
فـكأنني كـرة تقـاذف بي كفـاه في شرق وفي غـرب
قسرا بهـذا البين قـد رضـيت نفسي لخـوف الـذل في القـرب
ولهـا اذا اشـتهت الأسى ثقـة بالله فهو على الأسى حسـبي
منـه أرجي الوصـل عن كثب بالدار والأحبـاب والصـحب

وله رضوان الله عليه جوابا على القاضي على بن اسـماعيل بن محمـد العبدى عن أبيات كتبها اليه وتقاضى جوابها عند قدومه الى شهارة أيام بقاء ابن الأمير فيها وهي :

الى الله أشـكو من زمان محارب معـاد لأمجـاد كـرام أطـايب
عفـونا عن الأيام كل النـوائب فلا تخش منـا بعدها عتب عاتب
فقد حان لي منها الذي كنت أبتغي ووافي ربانا خير خـل وصـاحب
فان كان هـذا الدهر قد جاء تائبـا قبلنـا قبلنـا منـه توبة تـائب
وأتحفني من صـعدة بأحبتي وآنسـني في غـربتي بالأطـائب
رأى أنـه قـد حـال بين أحبتي بصـنعا وبيني بالنـوى والنوائب
فأبـدلني لمـارثي لي ورق لي نجـل كريم الأصل زاكي المناصب
سلوت به عن ذكر صنعا وأهلهـا وعديتهـا للدهر احدى المناقب
نظـامك وافـاني فـكان لمهجتي ألذ وأحلى من لقـاء الكواعب
وصـفت به حـال الزمان وأهـله ولا عجب فالدهـر جـم العجائب
وما هـذه الأيـام الا منـاهل مكدرة هيهـات تصـفو لشـارب

اذا ما صفت يوما تكدر صفوها شهورا وأعواما بهذى الشوائب
فصبرا على فقد الأحبة والنوى ستحمد عقبى الصبر من كل غائب
فعما قريب تطلع الشمس بالهنا وتكشف عنا غيم هذى السحائب

بيت اسحق

كتب الحسن بن اسحق من سجن صنعاء الى ابن الأمير فى حصن شهارة فأجابه :

أتى من أسير للغريب خطاب وقد حال بين بيننا وحجاب
أتاه فأحياه وقد كان ميتا يكاد عليه أن يهال تراب
فكل شراب ليس فى الذوق سائغ وكل طعام فهو عندى صاب
ولم لا وفى بطن السجون أحبة لديهم فؤادى فى السجون مصاب

يعاتبه اسماعيل بن محمد بن أسحق ولعل هذا العتاب مرده الى تخلف ابن الأمير عن الخروج معهم ضد القاسم وتوهم اسماعيل أن العلاقة قد فسدت بينهم بينهم وبين أستاذهم :

عجبا يعاتبنى بلا ذنب من سار عن عينى الى قلبى
ولقد عجبت لطول عتبك لى أجهلت أنك ساكن القلب
أظننت أنك صرت منفصلا لما نأيت كسائر الصحب
قد ساء ظنى فى مودتكم لما أطلت على فى العتب
أوهمتنى أنى سواك به وبمثل هذا كتبكم تنبى
كن كيف شئت فأنت أنت أنا وأنا وأنت أنا فما ذنبى
أوجب وأسلب أيما صفة أنا أنت فى الايجاب والسلب
أجهلت ما قد كنت تعلمه أيام سربك فى الهوى سربى
أيام نجنى كل فائدة من يانع التحقيق والرطب
وأنا أبشك كل شاردة وأريد أن ترقى على القطب
فاذكر فدتك النفس مجلسنا فى الدرس تذكر كنه ما أنبى
واجعل مكافأتى دعاؤك لى ان سرت منفردا الى ربى
ورحلت عن وطنى وعن سكنى وحللت فى الأكفان والترب

وله رحمه الله فى صدر كتاب من مكة المشرفة فى شهر ذى الحجة سنة ١١٣٩ هـ الى اسماعيل بن محمد بن اسحق :

ولقد ذكرتك عند أن جد النوى — والصحب بين مودع ومشيع
ولمشفقيهم أدمع منهلة — كالغيث الا أنها لم تقلع
وذكرتكم لما ارتحلت مطيتى — ورحلت عن وطنى وجدت بأدمعى
وذكرتكم فى كل أسفارى فما — من منزل الا وأنت به معى
وسل الديار العامرات وأهلها — ان شئت واسأل كل أرض بلقع
وسل البروق الشاميات فانها — لاتستمد بغير نار الاضلع
أفتذكرونا مثل ذكرانا لكم — ياحبذا ان كان غير مضيع
أم قد تناسيتم عهودا بالحمى — ولياليا مرت بذات الأجرع
أيام تجمعنا العلوم فبحثنا — يصبو اليه كل حبر ألمعى
واذا تجاذبنا النظام اتى لنا — ما لم يمر الذ منه بمسمع
واليك ياعين المكارم والعلى — رقمت على عجل بغير تصنع
قصدا لتذكير العهاد واننى — لم أنس ذكراكم بأشرف موضع

ويشترك مع أبناء اسحق فيما يتسابق فيه الشعراء وهذه أمثلة من وصف القهوة بالمصطكى :

شبهت ما دارت به — بقهوة مثل الضرب
فنجانها بالمصطكى — اذا جاء فى لون عجب
بوردة قد فتحت — رشت بمحلول الذهب

وقال فيه أيضا :

قهوتنا رقت وقد — راقت لكل شارب
فنجانها بالمصطكى — جاء بلون عاجب
مثل زباد نفشت — به خدود الكاعب

وله رضى الله عنه أيضا :

بمصطكى القهوة فى فنجانها المذهب	سطور لاذ فوقها برادة من ذهب

عتاب

وقال رضى الله عنه مجيبا على محمد بن اسحق عن أبيات عتاب له ولأخوانه وأولاده من آل اسحق كيف طاب لهم التنزه فى الرياض واخوانهم فى السجن :

نظامك وافانا فضاق به الصدر	وضاق علينا المنزل الرحب والبر
ولكننا لما أصبنا بفقدكم	ومد عليكم ذلك العمر
فزعنا الى الروض الذى منه خلقكم	عسى ينسلى بالنظير لنا الفكر
فما زادنا الا جوى وصبابه	ومن نار شوقى كاد يحترق الزهر
على أنه لولا رجاء خلاصكم	سريعا لذاب القلب مما جنى الهجر
ولكننا فى كل حين ولحظة	نرجى لكم قربا يجود به الدهر
فتنجاب عنا ظلمة الهجر والنوى	ومن خمرة اللقيا يحل لنا الشكر
ونغفر للدهر المسىء ذنوبه	ونلبس هذا الكون مانسج الشكر

فى المواهب

وله رضى الله عنه الى والده رحمه الله كتبها من المواهب سنة ١١٢٥ هـ وكان وصوله اليها لأجل رحم له هنالك فرأى فيها عجائب :

يا رفاقا حلوا بأكناف صنعا	ليت شعرى بعد التباعد رجعى
حال بينى وبينكم ريب الدهر	يبطل الوصل بالقطيعة قطعا
ولئن صرت مفردا عن رباكم	فمثنى ودادكم صار جمعا
وجفا جفنى المنام وقد صا	ر لطول البعاد نومى دمعا
وبلاد بها أقمت على الكر	ه وطوعا لحكم دهرى وسمعا

بلدة أخصبت من الظلم والجـــو ر فضـــاقت بهـــا الشريعـة ذرعا
حرفـة الســاكنين فيهـا نفـاق واختـــلاق وبالنميمة يســـعى
واذا ما الجهـول وافى ربـاها نال خفضـا من عيشـه ثم رفعـا
واذا الفـاضل اللبيب أتـاها نال صرفـا عنهـا وأعطى منعـا
ويسود السودان فيهـا فلا عـــز واذا أضـحت الشريعـة تنعى
فهـم الآمـرون فيهـا بمـا شا ءوا ولا يعقلون عقـلا ولا شرعـا
فأقم مأتـم الشريعـة أو قـم سـل سيفا تترك به القـوم صرعى
قـل لمن قام حامـلا راية الحـق متى للنزال تدعـو وتـدعى
مثال هـذا المطال ياليت شـعرى أى حين تثير خيـلك نقعـا
فتــدارك بقيـة الدين ان كنــ ت لاحيـا ميت الدين تسـعى
آه للعــلم كم يهـــان ذووه والى كم يلقـــون ذلا ووضـعا

مسعاى للصلح

وله من قصيدة يعدد فيها أعماله وجهاده :

وكذا باصـلاحى ثلاث طـوائف قد أشـعلوا فى الأرض نار شقاق
ما بين قاســم الامام وفتيــة من آله وهــم بنـو اســحق
فتن بهـا نهبت هنـاك طوائف وطوائف فــروا من الأشــفاق
وكذا الحسين وصـنوه فتنوا الملا وتقطعت طــرق عن الطــراق
تســع من الســنوات كان بقاؤها فتضـيق عن تفصـيلها أوراقى
أمنت باصـلاحى لتلك معــاشر وبه الدمـا حقنت عن الاهــراق
وعففت عن أموالهـم لا قطعـة أقطعت أو مكس من الأســواق
أو كيـلة من أى مخـزان فـلا أشـكو من الخـزان والسواق
عرضـوا على وزارة وولايـة فوقـانى الرحمـن أفضـل واق
جعـل الوزارة والولايـة لذتى فى العـلم ربى صـادق الميثـاق

ماذا تفعل القبائل

كم أباحـوا من كل ما حـرم الله وكم أيتمـوا من الأطفـــال
كم وكم من محـارم هتكوهـا واستباحوا النفـوس بالأمـوال
ولـكم يعبثـون بالنـاس دهـرا بقبيح الأفعـــال والأقـوال

نصيحة الى أهل مكة

الى الأشراف أعيـــان الأنـــام ... وأهــل البيت والبلد الحـــــرام

ســـــلام لا يزال على ربــــاكم ... من الرب الســلام عــلى الــدوام

أتانا عنكم خبـــر غـــــريب ... تواتــر من يمــانى وشـــــامى

بأن عبيــدكم أضــحوا لصــوصا ... يخيفــون الحجيج بـــكل عام

اذا ظنــوا بمـــال عند شــخص ... ببطن الجيب أو تحت الحـــزام

تــواثبت الجمــوع ليأخــذوه ... ولو فى الحجـــر كان أو المقــام

ولو بالقتـــل ان عنهـــم تــأبى ... بــلا خوف هنـــاك ولا احتشام

وحاشــا أنــكم ترضــون هــذا ... فمــا يرضــاه ذو الهمــم السوامى

وحق الضـــيف اكــرام وعـــز ... ولا يلقى بهضـــــم واهتضـــام

أيــأمن من يحــج بــكل فـــج ... ويلقى الخــوف فى البلد الحـرام

أتــوا من كل أرض لم يريـــدوا ... ســوى البيت المحـــرم والمقــام

يلاقــون الأمـــان بـــكل أرض ... وفى حـــرم يلاقـــون الحـرامى

فمــا البلد الأمين محــل عــاص ... وليس بهـــا لعــاص من مقــام

وقفة على قصور المتوكل بحدة

طال الوقوف على الأطلال والدمن ... فاستروها خبرا عن ذلك الســكن

ونــادها عن بنيهــا والبنــاة لهــا ... والنــازلين بهــا فى أقــرب الزمن

تخبــرك ناطقــة بالحــال صادقة ... بكل ما كان من قبــح ومن حسن

نعم نعم أخبرتنـــا وهى صامتــة ... والصمت أبلغ عنــد الحاذق الفطن

قوم رأينــاهم والدهــر يخــدمهم ... قد طال ذكرهم فى الشــام واليمن

ان المواهب قد شاهدت صاحبهــا ... وكان فى جوده كالعــارض الهتن

سفاك كل دم عــاداه صـــاحبه ... مفرق منـــه بين الروح والبــدن

هناك كل حمى ان لم يطـــاوعه ... كم من معاقل أخلاها ومن مــدن

وحين أدبرت الأقــدار عنــه أتت ... له المقـــادير بالآفات والمحـــن

ووجهت نحــوه الأقــدار أسهمها ... وما لسهم القضا فى الدفع من جنن

وعـاد أعـوانه عـونا عليـه ولم ينفعـه آهـل ولا مـال من المنن
وجاءه الضر ممن كان ينفعـه ورب قبـح أتى من ظاهر حسـن
وضاق عيشا وقد ضاق الفضاء بها قد كان يحويه من خيل ومن خدن
وصار فردا وفى أبنـائه عـدد لكنهـم وافقوا فى جفـوة الزمن
وتم للقاسـم المسـعور ما سمحت به المقادير من نجـد الى عـدن
وشاد فى حدة دورا مزخـرفة تزرى بما شاده الأملاك فى المـدن
مرت له سـنوات فى تنعمـة كأنهـا خفقات العين بالوسـن
ثم انثنت هذه الدنيـا لعادتهـا وبادرته بما يخشى من المحـن
وكـان أعظـم خطب قابلتـه بـه أن الحسين ابنـه لم يأت بالحسن
قاد الجيـوش الى صنعا وحاربه فاضطر منـه على صـلح على دخن
وقد سعيت أنا بالصـلح بينهمـا أطفأت نارا لهـا الايقـاد بالفتـن
ولم يعش غير أيـام منغصـة لم يخـرج الحول الا وهو بالكفن
وبعـده الناصران الأمر قـد طلبا محمد وحسـين من بنى الحسـن
وأشـعلا نار حـرب بينهـم سنة حتى أضرا بمن قد حـل فى اليمن
وبعـدها لحسـين تم مأربـه ونـال كل الذى يهـواه فى الزمن
وتم عشرين حـولا فى تقلبـه فى الملك حتى أتـاه سالب الوسن

لاتجـزعوا

أقـول لمن طـال شـكواهم ومن جـور عمـالهم يصرخـونا
دعوا ما أراه ولا تجـزعوا فعمـا قريب تـرون اليقينـا
فمـا ظلموكم بمـا نـالكم ولكن أنفسـهم يظلمـونا

المنقـذ

هذه نفثة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب من ضـياع الشريعـة محرور وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ،ويحيي شريعة سيد المرسلين ، وفيهـا ايقاظ للهمم لو كانت نائمة ولكنهـا ميتة لاترجى لها قائمة والجهاد باللسان أحد الأقسام نسأل الله قبول الأعمـال وحسن الختام :

شكت بلسان الحال طول جفاها ونادت ولكن من يجيب نداها
فيا غادة قد نالها من يسوؤها وطال عليها كربها وعناها
اذا أفلتت من كف مختلس لها تلقفها لص يطيل جفاها

سينقذها من بعد ذلك ماجد تسامى الى نيل العلى فسماها
همام سيجلو عارها بحسامه ويلبسها من بعد ذاك حلاها
فتى قد جنى من كل فن ثماره وحاز من العليا رفيع ذراها
قريب الى أهل الشريعة والتقى بعيد لمن يهدى بغير هداها
عفيف عن الأموال الا بحقها يرى زهرة الدنيا نظير هباها
يحف به قوم على كل سابح تعد المنايا فى الحروب مناها
اذا الأرض من نقع المعارك أظلمت تراهم وقد أضحوا نجوم دجاها
ولا جمعوا مالا و لاكسبوا لهم قصورا ولا باهوا برفع بناها
وما ادخروا الا حساما وذابلا ومهرا يبارى الريح عند سراها
وما قصدوا من سفكهم لدم العدى وتطويقهم بالسيف بيض طلاها
سوى أنهم يحيون شرعة أحمد وينفون عنها داءها بدواها
سيغسل عنها السيف أدران بدعة ويشرق فى الآفاق نور سناها
وتنفذ فى الطاغى سهام قسيها فويل لمن يهدى بغير هداها

فيا من لهم فى الدين أقصر همة ثكلتكم كم بالمنى نتسلاها
نرى كل يوم منكرات فظيعة فنعرض لا ننهى ولا نتناها
وما المرء الا من على كل ظالم أدار من الحرب الضروس رحاها
وأوردهم خوض المنون بسيفه وضيق عنهم أرضها وسماها
تعالوا بنا نحيى رياضا من العلى ذوت ان احببتم لذيذ جناها
وهبوا فقد طال المنام عن العلى وقد سخنت عين تطيل كراها

كفـــانا بأحوال المواهب عبـرة	ألم تر فيهـــا بؤســـها ورخاها
ألم نرها ممـلوءة بملوكهـــا	يضيق بهـم منهـا رحيب فضاها
فمــا هى قفر ما بهــا غير يومهـا	يجاوبها ان صاح صـوت صداها
خليـلى ان لم تأخـــذا بروايتى	فعــوجا على أرجائهــا وسـلاها
تخبركمـا عمـن بنى غرفاتهـــا	وفارقهـا من بعـده وسـلاها
وما مات حتى ذاق ســوء صنيعه	وأصـلى من نار الحروب لظـاها
ووصف الذى قد كان تحصيل حاصل	فـكل رآها جهـــرة ورواهـــا
سـيلحقه من يقتـــدى بفعـاله	فعمـا قريب فهـو من قتـلاها
فمـا الله عمـا تفعلون بغـــافل	ولـكن قضى أن للامور مداهـــا
ففى الذكر أخبــار بســوء مآلهم	وقد ضمنت « طس » منه « وطه »
بعيشكما ردا سـلامى على امرىء	على شرعة المختـــار رد رواهـا

صونوا الشعر

اطلع ابن الامير على مختارات أحد الأدباء ومن بينها رثاء كلب لجماعة من الشعراء فقال :

فالشـــعر أولى بالرثـــا	ء وبالبـــكاء والانتحـــاب
اذ صـــار طوقا للـــكلا	ب الميتـــات على الرقـــاب
هـــذا هـو الخسـف الذى	وردت به آى الكتـــاب
خسف لشـمس الشـــعر وال	قمر المنيـــرة والشـــهاب
صـلوا صـلاة كسوفهـا	ان كان يشرع فى كتـــاب
فليحتسـب أهـــل القريـــ	ض لمـــا أتاهم من مصـــاب

رثاء أبيه

أحقـا جـرى ما يسـبل العبرات	ويجرى دماء العين لا الدمعـات
لقد كاد روحى أن يفيض من الأسى	ويسلبنى حـزنى ثيـاب حيـاتى

أتى خبر أجرى الدموع وألهب الـ ـقلوب عقيب العصر من عرفات
فكذبته من هوله ثم ردنى رسائل أعلام أتت وثقات
ضياء الهدى من قد سما بفعاله الى الملأ الأعلى ذرى الدرجات
عليم حكيم حافظ للسانه وأفعاله الا عن القربات
أليف التقى خدن الهدى صاحب العلى حليف كتاب الله فى الخلوات
سيبكى عليه كل محراب مسجد ويلبس سربالا من الظلمات
فقد كان قنديل المساجد فى الدجى ينورها بالذكر والصلوات
وصول لأرحام قطوع لظالم لطيف السجايا طيب الحركات
وأزهد خلق الله فى زينة الدنا وأطمعهم فى الخير والحسنات
ذكى يحل المشكلات بذهنه وقور وقور الصخر فى الفلوات
مضى طاهر الأثواب مثر من التقى فقير من الزلات والهفوات
وخير الرثا ما كان حقا وشره كلام أتى بالزور والكذبات
وما كل من يرثى حقيق بوصفه ولا كل راث صادق اللفظات
الى الله أشكو فقده وفراقه شتات أتى من بعد طول شتات
وموت أتى من بعد بين وغربة تقضت بها سبع من السنوات
وقد كنت أشكو فقده فى حياته وأرجو لقاه قبل حين وفاتى
فما راعنى الا الرحيل بذاته الى منزل كل اليه سياتى
وبعدك لا آسى على فقد فائت أبعدك شىء موجع بفوات
وخفف حزنى اننى مذ عرفته مطيع له فيما يقول ويأتى

أحباى ما عنكم تبدلت راضيا

ولما أقام ابن الأمير بحصن شهارة فى سنة ١١٤١ هـ تزوج هناك واقتضى الحال فراق زوجته ابنة العلامة هاشم بن يحيى الشامى وكانت خرجت الى شبام أيام بقائه بها ثم عادت الى صنعاء وسافر هو الى شهارة وهى والدة ابنه ابراهيم .

كتب اليه الحسن بن اسحق وكان مسجونا بقصر صنعاء أبياتا يعاتبه فيها على فراق زوجته والتزوج وجعلها على لسان زوجته الأولى .

فأجاب ابن الأمير :

أبرق بدا أم زحزح اليوم برقع ... لسلمى فهذا نورها يتسطع
أم ابتسمت عجبا لما قال قائل ... بأنى للعهد القديم مضيع
لحى الله هذا الناس أين عقولهم ... يقولون ما ليست له الاذن تسمع
وقد أثروا اذ كثروا فى مقالهم ... وقد ساءها ما شيعوه وشنعوا
فقد أرسلت ريح الصبا برسالة ... وفى طيها عتب لطيف مروع
يكاد يسيل الدمع لو كان ممكنا ... ولكنه لم يبق للعين مدمع
توالت عليه الحادثات فلم يزل ... عليها بقدر الحادثات يوزع
فافنيته والحادثات بأسرها ... كأنى أسقيها بدمعى وأزرع
بروحى ذاك العتب من خير عاتب ... وان كان فيه ما يهول ويفزع
أحباى ما عنكم تبدلت راضيا ... ولكن لأمر ليس فى الكتب يرفع
ساملى عليكم ما يسر قلوبكم ... اذا ما سحاب البين عنا تقشع
لقد زادنى حبا لكم وصل غيركم ... خلاف الذى كنا له نتوقع
وعرفنى أن ليس فى الأرض غيركم ... فما الشمس الا أنتم حين تطلع
ولو كنت بالشرع الشريف محاججا ... لقلت لكم قد حل فى الشرع أربع
وقلنا لكم خير النبيين أحمد ... توفى عن تسع وذاك المشرع
وقلنا لكم أصحابه لاغترابهم ... عن الأهل فى أسفارهم قد تمتعوا
على أنكم لو تعلمون محلكم ... بقلبى لما نزت من العين أدمع
وقلتم لنا زد ما تريد فاننا ... تزيد لنا حبا بما أنت تصنع
فلست ترى فى الناس ما عشت غيرنا ... ولسنا نرى يابدر غيرك يولع
فلا تخش من عتب اليك موجه ... وحاشا يوافى سوحك اليوم تبع
وانا لفى خير اذا كنت سالما ... وعما قريب شملنا سوف يجمع
فهنيت ما أعطيت من كل نعمة ... عدوك مخفوض وشأنك يرفع

سبع وسبعون

وصديق لى صدوق   فى الذى أهواه يسعى
سمع الأنة منى   فامتلت عيناه دمعا
قال ما تشكو أبن لى   قلت سبعين وسبعا

مؤامرة

وقال رضى الله عنه لما نزغ الشيطان وسول لجماعة أن يقتلوه وتجمعوا لذلك وحال الله — وله الحمد كثيرا — بينهم وبين ما يرمون وحبسوا وأعاد الله كيدهم فى نحورهم :

شكرا لربى دائما   أبدا وحمدا
شكرا لما لا أستطيـ   ـع لعشره حصرا وعدا
جاء العدا وتجمعوا   لأذيتى بغيا وحسدا
وأرادوا الأمر العظيـ   ـم جهالة منهم وحقدا
سفك الدم المعصوم بالا   يمان عدوانا وعمدا
فكفى الهى شرهم   فله الثنا ما عشت يهدى
لم أنه الا عن مخا   لفة النبى ممن تعدى
ونهيت عن جمع الصلا   ة بخارج الأوقات عمدا
ونهيت عن بدع القبو   ر وعن ندا من حل لحدا
وعن النجوم وان فيـ   ـها عندهم نحسا وسعدا
عرفتكم سنن الهدى   وأبنتها رسما وحدا
وعلى المنابر والكرا   سى لم أدع للنصح جهدا
أملى الكتاب وسنة ال   مختار تفصيلا وسردا
ومفسرا لكتاب ربى   من به البلغا تحدا
أبرزت فيه نفائسا   أوضحتها حلا وعقدا
ومزجته بالوعظ حـ   ـتى لان قلب كان صلدا
ومبلغا عن أحمد   خير الورى علما وزهدا

حتى ملأت بسنة الـ مختار أغوارا ونجدا

تبع السعيد طريقتى فنجا ونال هدى ورشدا

كان الحديث بأرضكم مستغربا والله جدا

حتى نشرت فنونه وجلوت منه ما تصدى

ولدرسه ولأخذه من بعدنا كل تصدى

وتنافس العلماء فى كتب الحديث هوى ووجدا

هذا بتنسيخ وذا بشرائها بالمال نقدا

ما قلت ذا فخرا ولا أرجو بنشر العلم جدا

بالله قل لى يا عذو ل علام تعذلنى مجدا

أعلى الرسول وحبه وهدايتى حرا وعبدا

الفصل السابع

مؤلفاته

امتدت حياة ابن الأمير العلمية فى نفس الخط الذى اتجه اليه فى مذهبه ودعوته الاصلاحية ، وكانت دروسه ومؤلفاته تخدم هذا الاتجاه .

وقد ربط الرجل بين دروسه وخطاباته ومؤلفاته وتلاميذه وصداقاته فى رباط واحد تنتظم جميعها فى سلك واحد :

نفض الخرافات عن آراء زيد بن على رضى الله عنه ومسح التشويه الذى حمل على هذا الامام الجليل من غير تبصر .

توثيق الصلة بين الناس وبين الكتاب والسنة وبين مدارس العلم اليمنية وتكوين مدارس لخدمة هذا الهدف النبيل .

الكشف عن المؤلفات المتحررة لعلماء اليمن العظام الذين مهدوا الطريق لحركة ابن الأمير .

اهداء عدد من المؤلفات الاسلامية العظيمة للباحث اليمنى وكشف الستار عنها وتقريبها الى الأذهان .

مناقشة كثير من المسائل التى انحرف بها الباحثون واعادة الرأى فيها الى جادة الطريق .

عنى بتحرير كثير من الرسائل التى توضح رأى الاسلام الصحيح فى المبادىء والأحكام التى أصدرها رجال الحكم والتى انعكست على الشعب اعتداء على حقوقه واغتصابا لأملاكه وسلبا لحريته .

ومما يدعو الى الأعجاب بصاحبنا أنه لم تسر به محنة ولم تعرض له فرصة الا كانت فرصة يهتبلها لخدمة مذهبه .

كما أن كثرة المؤلفات والرسائل التى خلفها وراءه تزيد من اعجاب الدارس لشخصية هدا العالم الجليل الذى استطاع برغم الظروف التى مرت به أن يخلص الى هذه الدراسات الواسعة الخصيبة وأن يقدم هذا الانتاج الغزير .

واليك أسماء المؤلفات التى تعرفنا عليها لابن الأمير :

١ — الأحراز لما فى أساس البلاغة للزمخشرى من كناية ، ومجاز ألفه فى مجلد لطيف .

٢ — اجابة السائل شرح بغية الآمل بمنظومة الكافل فى مجلد شرح فيه منظومته للكافل .

مع زيادة فى المنظومة على الكافل فى أصول الفقه .

٣ — الادراك لضعف أدلة تحريم التنباك .

٤ — ارشاد النقاد الى تيسير الاجتهاد .

٥ — استيفاء المقال فى حقيقة الأرسال .

٦ — الأنفاس الرحمانية على الافاضة المدنية .

وهو جواب رسالة للشيخ أبى الحسن السندى المدنى فيما يتعلق بخلق أفعال العباد .

٧ — الأنوار : شرح « ايثار الحق على الخلق » لمحمد بن ابراهيم الوزير ولم يتم .

٨ — ايقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة : فى مجلد يشتمل على شرح حديث « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه » .
ترك فيه مقالة الأصحاب ورجح أدلة السنة والكتاب .

٩ — بشرى الكئيب بلقاء الحبيب ، منظومة وشرحها فى المعاد .

١٠ — التعبير شرح « تيسير الوصول الى جامع الأصول » فى مجلدين ولم يكمل .

١١ — التنوير : شرح الجامع الصغير فى حديث البشير النذير ، فى أربعة مجلدات ، ألفه بمدينة شهارة قبل اطلاعه على شرح المناوى وجعله أولا كالحاشية لا يستوفى فيه المتن .

ولما اطلع على شرح المناوى ألحق منه بعض المسائل واستوفى المتن ، فكان التنوير غريب المنوال غزير المنال جم الفوائد الفائقة والعبارات اللائقة .

جمع تصحيح الأحاديث والتنبيه على الفوائد اللغوية والتنبيه الى مسائل فقهية ونكات غريبة وتراجم مفيدة واستنباطات وترجيحات وأقوال راجحة واشتغاله بما تدل عليه الأحاديث الشريفة لا التوسع فى نقل أقوال العلماء المشتتة لفهم الطالب .

١٢ — توضيح الأفكار على تنقيح الأنظار فى علوم الحديث والآثار فى مجلدين نبه فيه على بدائع . وحقق شروط أئمة الحديث وانتقد بعض المواد ، وأصلح بعض العبارات ، ونقل الأبحاث المفيدة .

١٣ — ثمرات النظر فى علم الأثر .

١٤ — جمع الشتيت شرح أبيات التثبيت للسيوطى : فى مجلد ، وهذا الشرح المفيد يحتاجه كل فرد من أهل الاستعداد للمعاد . فانه تكلم فيه على الأبحاث المتعلقة بعالم البرزخ والمعاد وضم اليه منظومته « بشرى الكئيب بلقاء الحبيب » وشرحها .

١٥ — حاشية على البحر الزخار وهى تعليقات قيمة جامعة من كتاب الطهارة الى كتاب الزكاة .

١٦ — حاشية على شرح الرضى على الكافية . كان يؤلفها أثناء تلقيه دروس العلم على شيخه عبد الله بن الوزير ، وكان يعرض ما كتبه

عليه فيعجب به ، فلما انقطعت الدروس عند باب المنادى انقطعت الحاشية أيضا .

١٧ — الدراية شرح العناية في أصول الفقه . لما قرأ على شيخه « هداية العقول شرح غاية السول » وكان شيخه ينظم درس كل يوم فى المتن نظما حلوا جامعا لفوائد الأصل مع سهولة وانسجام وسماه « العناية » وكان الأمير يشرح المنظوم . ولما وقف شيخه على الشرح سماه الدراية .

وقد بلغا فى نظم المتن وشرحه الى بحث الاجماع وعاقت العوائق عن الاكمال بانقطاع القراءة .

١٨ — ديوان شعره الذى تولى جمعه ابنه عبد الله ورتبه على حروف المعجم .

١٩ — رسالة فى الرسالة : جواب سؤال : هل التحدى بالقرآن مستمر أم يرتفع اذا اختلف اللسان ؟

٢٠ — رسالة فى المفاضلة بين الصحاح والقاموس : أبان فيها أن الصحاح والقاموس يشتركان فى الجمع بين الحقيقة والمجاز .

٢١ — رسالة ألفها للمهدى عباس فى وجوب ازالة أصنام البانيان من ثغر المخا .

٢٢ — الروضة الندية شرح التحفة العلوية فى مجلد .

٢٣ — سبل السلام شرح بلوغ المرام .
فى مجلدين وهو شرح حوى التصحيح والتحقيق والتنقيح والاتقان والتوضيح والترجيح ، اختصر من شرح شيخه القاضى الحسين بن محمد المغربى الصنعانى الموسوم بالبدر التمام وأضاف فى سبل السلام فوائد خلا عنها البدر التمام وحذف ما لا يرى فائدة فيه من الأصل .

٢٤ — السهم الصائب فى القـول الكاذب ألفها فى شعبان سنة ١١٥٣هـ رد بها على جماعة تسموا بالشيعة وقالوا ان تدريس القرآن بالجامع من المنكر .

٢٥ — السيف الباقر فى بين الصابر والشاكر ، اختصره من عدة الصابرين لابن القيم ، وغايته أن الانسان ان رزق شكر ، وان ابتلى صبر .

٢٦ — العدة ، حاشية العمدة لابن دقيق العيد ، وكان شروعه فى تأليفه وهو بمكة عام ١١٣٤ هـ عند قراءة شرح ابن دقيق العيد على العلامة محمد بن أحمد الأسدى ، وأشار الى ذلك فى خطبـة الحاشية .

٢٧ — فتح الخالق : شرح مسادح رب الخلائق ، فى مجلدين والأصل لمحمد بن ابراهيم الوزير .

٢٨ — منحة الغفار على ضوء النهار شرح الأزهار فى مجلدين ضخمين .

٢٩ — منسك فى الحج ومعه قصيدة له فى المناسك عدد أبياتها ٢٨٣ ، مطلعها : « أياعذبات البان من أيسن الحمى — رعى الله عيشا فى رباك قطعناه » .

٣٠ — نهاية التحرير فى الرد على قولهم ليس فى مختلف فيه نكير ، أبان فيه أن هذا القول ليس على اطلاقه ، وأوضح أن مدار ذلك على ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣١ — اليواقيت فى المواقيت فى بيان أوقات الصلوات بمـا دلت عليـه الأدلة ، ألفه فى شهارة .

٣٢ — مجموعة من المساجلات الشعرية بينه وبين علماء عصره ورسـائل فى اصلاح أداة الحكم والتنبيه الى رأى الاسـلام فى مفاسـد العصر .

وبعد :

فقد رحل ابن الأمير عن الدنيا وترك مدرسته . وانهارت العصـابة وفقدت مكانتها بين الشعب وأصبح صاحب صنعاء لا يملك من أمر صنعاء

قليلا ولا كثيرا ، وكثر الأئمة وتوزعوا على القبـائل والمدن وفقدوا هيبتهم في نفوس الناس .

ولولا بقية من وهم لما تذكر الناس امامهم أبدا حتى في يوم الجمعة .

فقد كانوا لا يذكرونه الا في هذا اليوم يسوقونه في موكب تقليدى للصلاة ، فاذا قضيت الصلاة أسلموه للنسيان مرة أخرى .

وكان بعض الناس يتخذون البيعة مجالا لابتزاز الأموال ومايزالون بصاحبهم يتقاضونه ما عنده ان أراد أن تستمر بيعتهم له حتى ألجأوا واحدا منهم أن يبيع خنجره بملحقاته في سبيل أن يبقوا عليه .

وكنت تكاد تحصى في منطقة واحدة عددا من الأئمة يستطيعون أن يتراشقوا بالحجارة .

وضعف سلطان المدرسة : مدرسة ابن الأمير بضعف السـلطة التى كانت تقاومها .

وعاد الاستعمار التركى الى اليمن وبدأ الشعب يقظته يندب وحدته وأمجاده .

وتذكر واحد من بيت القاسم ما صنعه القاسم نفسه أن يستغل سخط الشعب وايمانه بحريته في السطو على الملك .

وسطا المنصور على ملك اليمن ومن بعده الطاغية يحيى ، وحدثت المؤامرة الكبرى على اليمن .

« أطرافها الانجليز والرجعية ويحيى حميد الدين » .

واقتطعت أطراف البلد الحضارى العـريق لتكون سورا لسجن كبير يحرس طرفان أسوار السجن من الشمال والجنوب والشرق ويبقى السجان — الطرف الثالث — في داخل اليمن متربعا على عرش صنعاء يسـوم الشعب سوء العذاب .

واجتمع له دهاء المتوكل اسماعيل وجشع صاحب المواهب وقسـوة القاسم الرهيب وحقد المنصور حسين ونلهف المهدى عباس على الأوقاف .

واستيقظت المعارضة واستيقظت معها آراء نشوان والوزير والجلال والمقبلي وابن الأمير ، وكانت زاد الأحرار فى سجونهم .

فلما أضيف الى كل هذا جنون أحمد واستهتاره قويت المدرسة وعمق الايمان بها وكانت الكتب تتسلل الى سجن حجة .

لتضيء ظلام السجن الرهيب .

وعلم الأحرار أن طريقهم الى الحرية .

الى القضاء على الجلادين هو العلم ، هو المعرفة .

هو كشف التضليل وازاحة الغشاوة عن العقول والأبصار .

وبدأوا يتخذون من السجن مدرسة أقلقت بدويها الملك المتربع فى تعز .

وضيق السفاحون الخناق على الفكر ، وحاربوا الرأى يتسلل من أنواب « نافع » .

وفر من فر من الأحرار الى خارج اليمن .

فربطوا بين حرية اليمن وانتشار التعليم .

وفتحت القاهرة ذراعيها لأخوة الأصل والتاريخ والدين واللغة والعاطفة ، وبدأت مدارسها تستقبل مئات من الفارين .

وتحايل المقيمون فى عدن على المدارس يفتحونها فى غفلة من الاستعمار تهيىء الطلاب لمدارس القاهرة ودمشق وبغداد .

وما زالت الحركة العلمية تصاحب حركة التحرر وتمضى معها الى أهدافها الكبرى حتى تدفق هدير الثورة فى ليلة السادس والعشرين من سبتمبر .

وتحطمت الأسوار .

وانهارت الحصون .

وارتفع علم الحرية .

وبدأ الشعب العظيم يعيد بناء مجتمعه .

وحضارته .

ووحدته .

ويخفق فؤاده بالحنين الى فروعه التى امتـــدت من الخليـــج الى المحيط .

والله ولى التوفيق .

فهرس الكتاب

القسم الأول

أسـرة القاسم

١٥ — ١١١

القسـم الثـانى

محمد بن اسماعيل الأمير

١١٣ — ٣٢٩